2020
2.1.2020

أوسكار وايلد

من الأعماق

رسائل أوسكار وايلد من السجن

ترجمة: دعاء النوري
تحرير: غسان البرهان

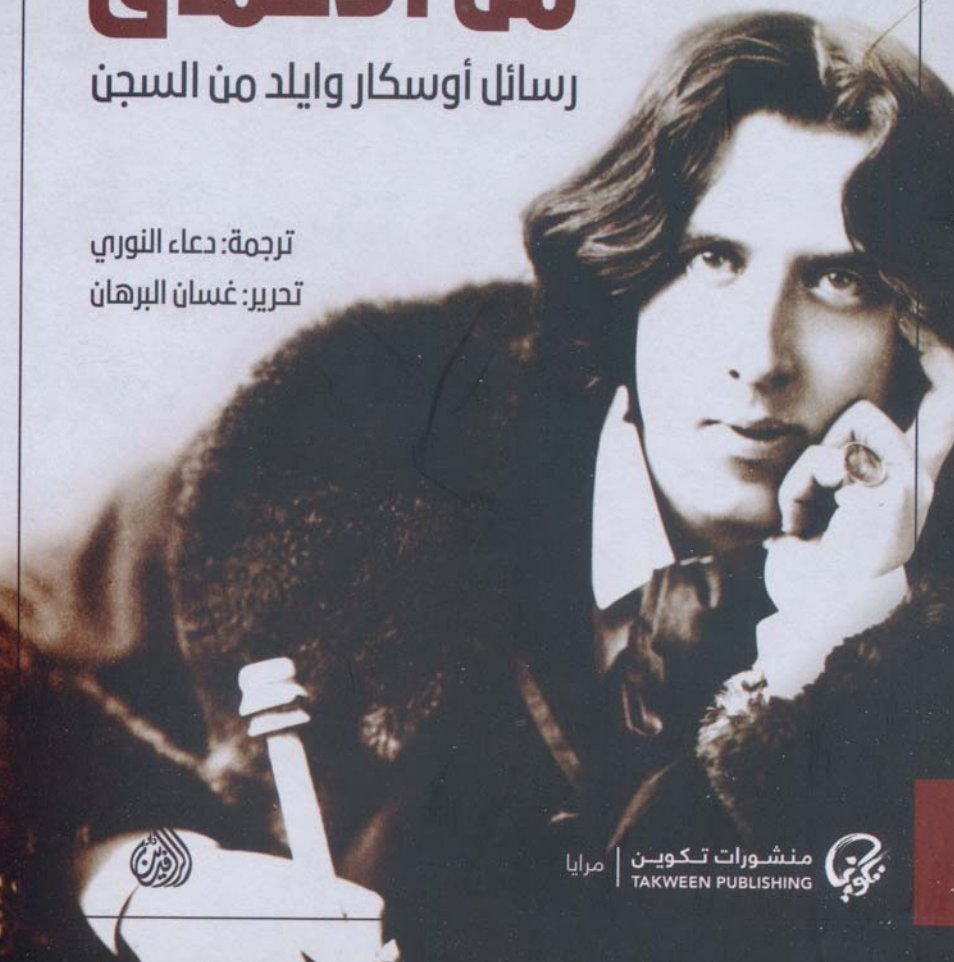

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

من الأعماق

رسائل أوسكار وايلد من السجن

ترجمة

دعاء النوى

تحرير

غسان البرهان

من الأعماق

رسائل أوسكار وايلد من السجن

الكاتب: **أوسكار وايلد**

عنوان الكتاب: **من الأعماق/ رسائل أوسكار وايلد من السجن**

ترجمة: دعاء النوى

تحرير: غسان البرهان

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9922-623-01-6

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

الفهرس

شكر وعرفان 7
المقدمة 9
من الأعماق.. 19
سجن ريدنج 179

شكر وعرفان

أتقدم بخالص الشكر والإمتنان لأسرة دار الرافدين على جهودها المبذولة في خدمة الترجمة و إثراء المكتبة العربية بنفائس الكتب وأروعها كما أخص بالذكر الأستاذ محمد هادي والأستاذ غسان البرهان لما لهما من فضل كبير في إخراج هذا العمل في أفضل صوره المنشودة.

المترجمة

المقدمة

«إنني لا أدافع عن سلوكي، بل أوضحه».

أوسكار وايلد

إن مأساة أوسكار وايلد لم تبدأ بدخوله إلى السجن وتعرضه للفضيحة التي أطاحت به من سلم الشهرة والعلو الفني والأدبي الذي كان يتصدره في عصره، بل نشأت مع بداية علاقته مع «ألفريد دوجلاس» الذي استنزفه من كل النواحي: مخزونه المالي، تركيزه على أعماله الأدبية والفنية، والاضطراب العاطفي الذي كان يلازمه مع وجود دوجلاس في جواره أينما حل وارتحل، وحتى عندما كان يهرب أوسكار منه ويسافر بعيداً عنه، كان دوجلاس يلاحقه كأسوأ كوابيسه، ويُرسِل إليه خطابات وبرقيات متلاحقة، إلى أن وصل إلى نقطة اللا عودة في علاقته معه. إن مأساة أوسكار الحقيقية بدأت عندما اتخذ دوجلاس منه وسيلة ضغطٍ في معاركه ضد والده، فكان يحتمي بأوسكار من والده ودارت بينهما معركة الخطابات التي أوصلتهما في النهاية إلى قاعة المحكمة حيث وقف والد دوجلاس «ماركيز كوينز بيري» كمتهم وأوسكار وايلد كرافع لدعوى التشهير ضده تحت ضغط من دوجلاس، ولكن سرعان ما قلب الماركيز الطاولة على أوسكار فوجد في هذه المواجهة التي شهدها القضاء فرصة سانحة لأن يُسقِط أوسكار وايلد ويتخلص منه، فأطلق جيشاً من المخبرين

كانت مهمتهم الرئيسية جمع الأدلة وعمل مقابلات مع بعض الشهود وإجراء تحقيقات تثبت صدق الخطابات التي كان يصف فيها أوسكار بأنه على علاقة شاذة ومنحرفة مع ابنه. مع تقدم إجراءات المحاكمات انقلب الأمر رأساً على عقب، فقد كانت غالبية الأدلة التي عرضها الماركيز تؤكد أن اتهامه لأوسكار كان صحيحاً.

وفي قاعة المحكمة وجد أوسكار وايلد نفسه يقتبس بعض الجمل الواردة في مقدمة رواية صورة دوريان غراي للدفاع عن نفسه. حين سأله المدعي العام عن بعض القصائد ومحتواها وفكرتها، فواجههم أوسكار بوحشيتهم، إذ كانوا ينزعون الجماليات الخاصة بقصائده ويجعلونها شيئاً قذراً لا يستحق بأن يذكر. وقال كلماته الشهيرة : «**لا يوجد كتاب أخلاقي أو غير أخلاقي، توجد كتبٌ كُتِبَت بطريقة جيدة، وكتبٌ كُتِبَت بطريقة سيئة، هذه كل المسألة. الذين يجدون معاني قبيحة في الأشياء الجميلة هم أُناس فاسدون، ولا يمتلكون حتى القدرة على الإدهاش. إن هذا لخطأ. الذين يجدون معاني جميلة في الأشياء الجميلة هم الناس المتحضرون. بالنسبة إلى هؤلاء يوجد أمل. لا يوجد فنان لديه ميول أخلاقية. الميول الأخلاقية لدى الفنان هي شذوذ غير مقبول في طريقة التعبير. المعصية والفضيلة بالنسبة إلى الفنان لا يتجاوزا أن يكونا مواد خام للفن**».

ومع أن دفاع أوسكار عن نفسه كان في غاية الصدق والعمق إلا أن القضاء كان في غاية التحجر والقسوة عليه، فأصدر القاضي حكم السجن على أوسكار لمدة عامين مع الأعمال الشاقة.

لقد فقد أوسكار كل شيء دفعة واحدة، وانتقل من حياة المترفين السعيدة إلى عالم المسجونين المظلم. وقد حمل معه هذا السقوط تبعات لم يخل

وايلد أنه سيشاهدها بعينيه ويتذوقها بنفسه. لقد اختصر وايلد مجمل حياته في مشهدٍ واحد، فعندما كان طالباً في جامعة أكسفورد، كان يشاهد أمامه حديقة جميلة للغاية، ويتمنى، بل ويسعى لأن يأكل من ثمار هذه الحديقة وكل حدائق الدنيا. وتخرج من الجامعة وهو يحمل هذه الشهية للَذّة اندفع بها إلى أقصى حد، وكانت تلك غلطته القاتلة. حصر نفسه في أشجار تلك الحدائق التي تراءت له وارفة الظلال، زاهرة سامقة، ولم يطلع على تلك الحدائق التي لا يصل إليها الضوء، حدائق الخيبة والعار والفقر والأسى واليأس والشقاء والدموع، وتأنيب الضمير، كان يخشى كل هذه وعزم أن لا يعرف عنها شيئاً. ولكن القدر حكم عليه بأن يتذوق من كل الأصناف، وأن تكمّل الحياة دورتها عليه، فيتذوق من كل أنواع البهجة، وكل أشكال الحزن واليأس والمعاناة.

ولد أوسكار فينغل ويلز وايلد، في دبلن في 16 أكتوبر 1854، وكان الابن الثاني للسير وليام وايلد، الذي كان طبيب عيون ذائع الصيت، وزوجته جين، وقد كانت كاتبة ومترجمة تتصف بحس وطني عالٍ، وفي عام 1871 التحق وايلد بجامعة ترينتي في دبلن، ثم حصل على منحة دراسية في كلية مجدولين في جامعة أوكسفورد، التي تخرج منها عام 1878 حاصلاً على مرتبة الشرف الأولى على دفعته وعلى جائزة نيودايجت في الشعر.

وفي العام التالي انتقل وايلد إلى لندن وكرس نفسه باعتباره أستاذاً لعلم الجماليات. وفي غضون عدة شهور، كان وايلد قد حقق لنفسه شهرة واسعة في المجتمع الإنجليزي، استناداً إلى مظهره المتألق وبديهته الحاضرة وحسه الفُكاهي.

وفي عام 1884، تزوج من كونستانس ماري لويد، وانجب منها طفلين

وهما «سيريل وفيفيان». وفي عام 1888، نشر أوسكار مجموعة قصصية للأطفال تحت عنوان «الأمير السعيد وحكايات أُخرى». وفي عام 1890، صدر لأوسكار رواية «صورة دوريان غراي» وقد نُشِرَت للمرة الأولى مُجزأة في أعداد مجلة «ليبينكوت» الشهرية. وتعرضت الرواية حينها لإجراءات رقابية صارمة، فقد حذف المحررون خمسمئة كلمة من الرواية قبل نشرها، وقال بعض المقيمين للرواية إن أوسكار وايلد يستحق الملاحقة القضائية لانتهاكه قوانين الأخلاق العامة. وردا على ذلك، دافع وايلد بقوة عن روايته وفنه في مراسلاته مع الصحافة البريطانية وأصدر طبعة كاملة للرواية كتب فيها مقدمة موجزة عن حرية الكتابة وفن الرواية والقارئ. وتُعَد «صورة دوريان جراي» الرواية الوحيدة التي كتبها أوسكار وايلد، وتأخذ الرواية طابعاً فلسفياً كلاسيكياً، وهي موجودة في نسختين، نسخة المجلة عام 1890 ونسخة الكتاب عام 1891.

أما عن مسرحياته فقد كانت أول مسرحية تعرض لوايلد هي «مروحة ليدي ووندرمان» في عام 1892، وسمح المسرح بإبراز عبقرية أوسكار وتأكيد حضوره الأدبي أمام الوسط الفني المترقب لأعماله، وعلى امتداد السنوات الثلاث التالية بلغ شهرته وثروته إلى أعلى مستواهما، خصوصا مع تقديم أعماله الكوميدية التي حظيت بشعبية فائقة، حيث قدم مسرحيته «امرأة بلا أهمية» و«زوج مثالي»، وثم تبعتهما مسرحية «أهمية التحلي بالجدية».

وفي عام 1905 م نشر الوصي الأدبي لأوسكار وايلد، روبرت روس، مقتطفات من رسالة لأوسكار وايلد في السجن إلى ألفرد دوغلاس تحت عنوان De Profundis، وهي كلمة لاتينية تعني «من الأعماق»، كتبها وايلد خلال فترة سجنه، مختصراً تجربته بشعرية متدفقة، وغضب عارم وألم

ممتزج بالعار والمهانة، ولكن النسخة المختصرة من مقتطفات الرسالة لم تكن موجهة إلى شخص بعينه إلى أن نُشِرَت بنصها الكامل في عام 1965 وفيها ظهر الفرق. حيث لم تشكل الرسالة المختصرة إلا نسبة قصيرة للغاية من الرسالة الكاملة. وفي النسخة الكاملة اتضح أن الرسالة موجهة إلى شخص بعينه وهو اللورد ألفريد دوغلاس، صديق وايلد ورفيقه، وصاحب العلاقة التي قادت وايلد إلى حتفه.

إن هذه الرسالة في بنيتها ليست مقسمة إلى أجزاء. بل كتبت بتناسق مذهل وتناغم أدبي واحد، دون أن يكون هناك أي انقطاع أو تغير في لغة الخطاب، ولكنها كانت تتسم بالحدة والغضب في بداياتها وكأن وايلد كان يصرخ بكل ما في داخله. ويدعو صديقه بأن يقرأ الرسالة ويكررها حرفاً حرفاً فيقول:

«يجب عليك أن تقرأ هذا الخطاب من بدايته وحتى النهاية، من دون أن تتوقف، حتى لو جائت كل كلمة تقرأها فيها كالجمرة التي يشوى بها اللحم الرقيق، أو سكيناً حاداً تسيل منه الدماء! أريدك أن تدرك جيداً أن البؤس الذي ستشعر به عند قراءتك لخطابي، كنت أشعر به أضعافاً إذ أكتبه لك! قد كانت القوى الخفية طيبة معك.. بينما سلبت مني الحياة الزاهرة المفعمة بجميل الألوان والحركة!».

ثم تتغير طبيعة الرسالة بعد عدة صفحات من القسوة الضارمة التي صبها أوسكار على صديقه دوجلاس إلى انكسار واضح في شخصيته يرافقه مزيج متفاقم من الحزن والمعاناة والألم. ثم يتحرر وايلد من إلقاء كل ما يريد لدوغلاس، ويبدأ بالكتابة عن نفسه وعائلته والفن والفلسفة واللاهوت، والسجن والحياة والعفو والذنب والخطيئة.

«لقد منحتني الآلهة كل شيء تقريباً. ولكنني غررت بنفسي وتساهلت بقضاء فترات طويلة من حياتي بلا معنى أسعى من أجله، وبلا إحساس أتعلق به، غدوت عبثياً، مختالاً من الطراز الأول، ومواكباً لآخر صيحات الأزياء. ثم أحطت نفسي بأحقر الطبائع وأردى العقليات، كنت المدمر الوحيد لعبقريتي الخاصة، ولكن الغريب أن ضياعي وإهداري لشبابي كان يهبني شعوراً خاصاً من البهجة. السأم من البقاء على القمة دائماً، جعلني أخطو بخطى واثقة نحو القاع السحيق، باحثاً هناك عن إثارة جديدة، وأصبح انحرافي العاطفي متزامناً مع مثيله الفكري. تعاظمت الرغبة حتى غدت سقماً، أو جنوناً، أو كلاهما معاً. وبت غير مبالٍ بحياة الآخرين، ناهلاً من غمار الملذات أينما وجدت فيها مسرتي، تناسيت أن بمقدور كل عملٍ صغيرٍ أرتكبه يومياً أن يكسبني أو أن يُفقِدَني أخلاقي وسمعتي، ومن ثم أن ما يرتكبه المرء سراً في غرفته سيبكي عليه نائحاً على سطح منزله، لقد توقفت على أن أكون سيداً لنفسي ولم أعد مسيطراً على عاطفتي، لقد جهلتها تماماً، وانصعت أمام رغباتي المجردة. فانتهيت إلى عارٍ مريع. ولم أعد أملك سوى أمرٍ واحد فقط ، وهو الخضوع المطلق».

تكشف الرسالة عن مشهدين أساسيين يمثلان المفتاح الرئيس لفهم الحالة النفسية التي انتابت أوسكار في تلك الفترة ففي المشهد الأول يخرج أوسكار من المصح إلى السجن، ويقف تحت الجو الماطر بثياب السجن منتظراً تحرك عربته ووقف من حوله جمعٌ من الشامتين الذين بادلوه أفظع الشتائم والإهانات وبصقوا في وجهه وسخروا من منظره فكتب أوسكار في استذكار لذلك الموقف:

«لنصف ساعةٍ وقفت هناك تحت أمطار نوفمبر الرمادية، محاطاً بعصبةٍ

متهكمة. ولمدة عام تلت ما حدث، بكيت كل يوم في الساعة نفسها، والقَدْر ذاته من الوقت».

وفي المشهد الثاني يُنقَل أوسكار من سجنٍ إلى آخر، ويقابل في الممر المؤدي إلى السجن مجموعة من الناس، منهم من لاذ بالصمت ومنهم من كان ينظر إليه بازدراء ومنهم من سخر منه علانية ولكن رجلاً واحداً رفع له قبعته وانحنى إليه باحترام بالغ، فوصف أوسكار هذا الرجل الذي لا يعرفه بالقديس، وقال: **«لقد ذهب رجال إلى الجنة لأمور أصغر من هذه. بمثل هذه الروح، وهذه الطريقة في المحبة، ركع القديسون ليغسلوا أقدام الفقراء، وانحنوا مقبلين الأبرص على خده.**

لم أقدم على الحديث معه مطلقاً حول ما فعله، ولست أعلم حتى هذه اللحظة ما إذا كان قد أدرك أنني كنت على علم بصنيعه. لم أستطع أن أرد امتناني من خلال عبارات الشكر الرسمية والكلام المنمق، ولكن كنزته في صميم قلبي، واحتفظت به كدين خفي، تسرني فكرة أنني عاجز عن سداده أبدا، بعد أن انهمرت العطور العذبة المنسكبة من دموعي، وعندما أصبحت الحكمة عديمة الجدوى، وضروب الفلسفة عقيمة المعنى، وغدت تعازي المشفقين كالغبار في فمي، تعود لي ذكرى هذا العمل الصامت الجميل، الذي ألغى كل ينابيع الاسترحام والشفقة، وغدت صحرائي زهرية كالورود وأخرجني من مرارة منفاي الوحيد إلى وئام مع الجرحى المكسورين، الذين هم قلب العالم النابض». ينتهي وايلد في مسيرة الحزن هذه إلى وصف الحزن بأنه أكثر العواطف البشرية حساسية، ولا يوجد في عالم الفكر ما يهزه الحزن هزاً عنيفاً. وخلف هذا الحزن هناك المعاناة. وهي ليست دائماً مدعاة للحزن، بل قد تكون مدعاة للفرح والسعادة. صرخة

الطفل هي صرخة ألم، لكنها مدعاة للسعادة. ولكنها ـ أي المعاناة ـ في أحيان كثيرة، تحتاج للتسليم حتى يتحرر المرء من الثقل.

خلال سجنه، كتب وايلد قصيدة بعنوان «سجن ريدنج» وكانت هذه القصيدة آخر عمل أدبي كتبه وايلد بعد خروجه من سجنه، وتدور حول ضابط شرطة قتل زوجته، ثم سُجِنَ وينتظر تنفيذ حكم الإعْدام شنقاً بحقه. لا يختلف وايلد عن ضابط الشرطة كما عبر في الرسالة، إذ إن أي رجل عظيم كان أم حقير لا يمكن أن يُهلك نفسه إلا بيديه. وبالنسبة له، إذا قيس ما فعل العالم به من شر مقابل بما فعله لنفسه، لرجحت كفة الإساءة التي تلقاها من نفسه وألقت به في غياهب المجهول.

ولكن كلَ رجلٍ يقتل الشيء الذي يعشقه

ليسمعَ الجميعُ كلامي هذا

أحدُهم يفعلُها بنظرةٍ مريرةٍ

والآخرُ بكلمةٍ مُغازِلة

الجبانُ يفعلُها بقُبْلَة

وَالشجاعُ بضربةِ سيفٍ عاجلة

لم يكن دخول أوسكار للسجن نضالاً من أجل قضية وغاية محددة. ولو كان كذلك، لكان السجن أكثر حرية له من الخارج. بيد أنه دخل السجن متهماً وموسوماً بأفظع سمات العار التي يمكن أنت تُنسَب لرجلٍ بمستواه الثقافي والاجتماعي المرموق، لقد دخل السجن وضحكات الساخرين ونكاية الشامتين يتقاذفها جميع من تمنوا له السقوط والفشل.

حتى أدبه الذي بلغ صيته أعلى مستوياته والمسرحيات التي كانت تُعرَض لسنين عدة، توقفت جميعها وحُظِرَ إعادة تمثيلها على المسارح الوطنية، وأصبحت الكتب التي تحمل اسمه ممنوعة من التداول. ومع أن كل هذه التبعات كانت عظيمة ومدمرة بمركز أوسكار وحياته بأكملها، إلا أنه يُرجِع سبب معاناته وألمه الرئيسي إلى خذلان صديقه له ونسيانه جميع ما قدمه إليه من معروف وإحسان.

هذه الرسائل هي حصاد المعاناة والحسرة التي قضى بها أوسكار أيامه في السجن وهو يتجرعها وحيداً ومخذولاً دون أن تتاح له الفرصة رواية قصته من وجهة نظره الخاصة، رسائل أُرسِلَت إلى العالم قبل أن تصل إلى «ألفريد دوجلاس»، حتى يوضح لهم سلوكه لا أن يدافع عنه، ويفسر طبيعة العلاقة الوجدانية التي ربطته بدوجلاس بعد أن حُكِم عليها القضاء بالشهوانية والشذوذ في الوقت الذي كان يراها أوسكار علاقة عشق ومحبة، بغض النظر عما آلت إليه في النهاية من خسارة وخذلان، وتدمير لحياة أوسكار وايلد الأدبية والاجتماعية.

دعاء النوى

من الأعماق..

واحد من أفضل مئة كتاب سردي في تاريخ الأدب.

لقد حظي أوسكار وايلد خلال حياته وبعد موته، بعبقرية فريدة خلفت من حولها صيتاً أسطوريا. فقبل أن يؤمِّن لنفسه مكاناً بين أعظم المسرحيين في بريطانيا بوقت طويل، جلب أوسكار لنفسه سمعة خفيفة الظل تُعَبِّر عن المثال الإستطيقي. وبحلول ربيع عام 1882، انتقل أوسكار إلى أمريكا ليعلن «عبقريته»، وأُحتفيّ به في كل من الولايات المتحدة وإنجلترا (حيث سخر جلبرت وسوليفان من حركة وايلد الإستطيقية التي تَمَثَّلَت في شخصية الشاعر بونثورن في أوبرا بيشانس)، ولم يكن منبع ذلك كتابته فقط ولكن كان لشخصيته دورٌ كبير بالقدر ذاته. ثم تعرض وايلد لفترة من الخمول الأدبي، استمرت حتى صيف عام 1894، إلى أن كتب مسرحية «أهمية أن يتحلى المرء بجدية» في ثلاثة أسابيع، توهَّج وايلد وكأنه شهاب مر بلندن الفكتورية قبل أن يسقط ويحترق أثناء محاكمته أمام قضاء محكمة «أولد بيلي» بعد كارثة قضية التشهير التي رفعها على ماركيز كوينزبري (في مايو عام 1896).

لو كان أوسكار فناناً أقل مكانة فلربما كان قد تحطم بفعل سقوطه أما وايلد فقد ألهمته هذه التجربة. لقد بدأ أوسكار وايلد كتابة رسالة غير نمطية في زنزانته، وذلك بين شهري يناير ومارس عام 1897، كتمهيدٍ لإطلاق

سراحه من سجن ريدينج في أبريل،. أراد من خلالها أن يتحدث عن علاقته سيئة السمعة مع اللورد ألفرد دوجلاس، وهي قصة حب تتسم بسمات نهاية القرن التاسع عشر وتحولت سريعاً إلى مأساة مميتة. ظل «بوسي» لامبالياً تجاه حبيبه السابق طوال المدة التي قضاها وايلد بالسجن والتي استمرت لعامين (مع الأشغال الشاقة)، وصارت مسودة الـ80 صفحة التي كُتِبت في عشرين ملزمة من أوراق السجن الزرقاء الرفيعة تعبيراً عن سعي وايلد المنكسر لتحقيق التقارب. الرسالة التي بدأت ساعية للتصالح تحولت إلى سجل سيرة ذاتية مؤثرة وشديدة الجاذبية، ودفاع إستطيقي ملهم عن الذات، وأخيراً إنجاز سردي لأحد عباقرة العصر الفكتوري المتأخر. (كان عنوانها الأول: خطاب من السجن، مكبلاً بالأغلال).

لطالما كان وايلد أستاذاً في التنكر والتجسيد، ومسرحية «أهمية أن يتحلى المرء بجدية» كانت تدور بمجملها عن طبيعة الحياة المزدوجة. أما في «من الأعماق» (الاسم مأخوذ من المزمور 130)، يضع وايلد قناع السجين الملطخ بالعار والنادم ليراجع علاقته مع بوسي، محاولاً ممارسة نوعٍ من الاعتراف، وبعد التطهر المناسب، يُعبر عن «حالة جديدة من الإدراك الذاتي». وبعد مرور أكثر من قرن على ظهورها الأول ما زالت تلك الصراحة القاسية التي كثيراً ما اتسمت بلوم الذات وإبكائها، والتي أظهرها وايلد دون تحفظ، صادمة لنا.

في بداية الرسالة تحدث وايلد عن ذروة العلاقة، والشغف اللامبالي وغير المسؤول، وانغماسه المُهمِل في صداقاته مع الشباب الأصغر سنًا:

«لقد كانت هناك منذ البداية، ثغرة واسعة بيني وبينك، كنت كسولاً في مدرستك، وأسوأ من كسول في جامعتك، ولم تتمكن من إدراك أن

الفنان الذي هو من نوع خاص، كما كنت أنا، يحتاج إلى جو عقلي خاص، وصحبة فكرية، وعزلة ينعم فيها بالهدوء والاطمئنان».

مع سيطرة إدراك وايلد لعملية هدمه لذاته، استعاد التسلسل البشع للأحداث التي أدت لسقوطه وتلطيخه بالعار وسجنه:

«كل ما تعلق بمأساتي كان بشعاً، وسافلاً، ومنفراً، ومفتقراً في الأسلوب. فحتى ملابسنا نفسها تجعل منا أشياء مضحكة، فنحن مهرجي الحزن، والمضحكين الذين كُسِرت قلوبهم. والذين قد صمموا بشكلٍ خاص ليكونوا مدعاة للسخرية».

إحدى الفقرات الشهيرة تستدعي انتقال السجين من لندن إلى ريدينج، بالقطار، في 13 نوفمبر عام 1895:

«من الساعة الثانية وحتى الثانية والنصف من ذلك اليوم كان عليَّ أن أقف على الرصيف الرئيسي في محطة كلافام جانكشن، مقيداً وأرتدي زي المدانين، والعالم بأسره ينظر إليَّ. كنتُ الأكثر غرابة بين كل الأشياء. عندما رآني الناس ضحكوا، جاء كل قطار مكتظاً بالركاب المتفرجين. لنصف ساعة وقفت هناك تحت أمطار نوفمبر الرمادية، محاطاً بعصبة متهكمة. ولمدة عام تلت ما حدث، بكيت كل يوم في الساعة نفسها، والقَدْر ذاته من الزمن».

تُظهِر هذه الفترة أسوأ ما في أعماق وايلد وأدناها، ويظهر كتاب «من الأعماق» بقوة وثقة في الوقت الذي يرصد فيه السجين ذكريات عمله الرائع كـ«رجل وقف في نقطة تقاطع العلاقات الرمزية للفن والثقافة في عصره». ويقارن بين لحظات الذروة في فنه ونجاحه المدهش بإذلال

الإفلاس والسجن. وأنه قد توجب عليه أن يتصالح بشكل ما مع فكرة أن «أوسكار» العظيم صار رقماً كئيباً من أرقام السجن «ج.3.3»، تحول إلى شفرة. بعض الأجزاء الأخرى في «من الأعماق» تحيل إلى حملة وايلد اللاحقة لإصلاح السجون: **«إن نظام السجن خاطئ بالكامل. وإنني على أتم الاستعداد بأن أُضحي بأي شيء لأستطيع تغييره عندما أخرج»**، وقد وصل الهوس الذي لازمه إلى ذروته في «قصيدة سجن ريدينج»؛ التي تُعَد عمله الشعري الأبرز على الإطلاق.

وبينما كانت عضلاته الفنية تتعافى وتستعيد بعضاً من إمكانياتها القديمة، تجرَّأ وايلد وشَرَع بعقد مقارنة بين حياته كفنان وحياة المسيح؛ وهي الفكرة التي ترددت من آن لآخر في أعماله السردية الأبكر، خاصة في مقال «الناقد كفنان» (1890)، ومقال «روح الإنسان في ظل الاشتراكية» (1891). وبالنسبة لوايلد، الفنان النبيل، تُمثِّل شخصية المسيح النمط الأسمى للخالق المعذَّب، وكذلك تُمَثِّل فكرة الفرداني المطلق. في أوقات الانحطاط والإذلال التي مر بها أثناء محاكمته عام 1859، وجد وايلد حسّاً من التألق في ممارسة دوره كشهيد، وهو الدور الذي سرَّه أن يشارك فيه ابن اللّه.

لا يمكن أن يعني هذا أن أوسكار وايلد كان يعوزه الإيمان بذاته،، يكتب: **«تنبأت بكل هذا وأشرت إليه في فني.. يختبئ قدر كبير منه في النغمة الملعونة الأشبه بخيط أرجواني يغزل النسيج الذهبي لكتاب (دوريان جراي)»**.

ويقول:

«أرى الآن أن الحزن هو مصدر كل الفنون العظيمة ومحل اختبارها.

وإن ما يسعى إليه الفنان على الدوام هو حالة الوجود التي لا تفترق فيها الروح عن الجسد: التي يكون فيها الخارجي معبراً تماماً عن الداخلي التي فيها يَتكشَّف الشكل».

ويضيف: **«لدى الفنان، التعبير هو الحالة الوحيدة التي يمكن من خلالها فقط تصور الحياة. لديه يكون كل شيء أبكمَ ميتاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك لدى المسيح».**

بعد أن ينتهي وايلد من ذكر هذه الروابط الرنانة، تنحدر الرسالة إلى ممارسة التقريع المستمر لشخصية بوسي وسلوكه، وقد كانت «عادته الرهيبة في كتابة رسائل مهينة» هي أدنى السمات المزعجة في شخصية الشاب الذي أدى غروره وجشعه وخيانته وتمركزه الخبيث حول ذاته إلى جذب وايلد وإسقاطه.

ولكن وايلد مع ذلك ينهي رسالته بتعليمات عن سلوكهما المشترك في المستقبل بعد أن يُطلَق سراحه، وينهي الرسالة بلهجة تصالحية:

«لقد جئت إليّ لتتعلم عن لذة الحياة ولذة الفن، ولربما اختِرت لأعلمك شيئاً أكثر روعة؛ معنى الحزن وجماله».

ليس من الصعب أن نستنتج أن وايلد بَذَل سرده الرفيع المثير على بوسي. بعد ثلاثة أعوام ونصف من إكمال هذه الوثيقة الاستثنائية، توفى وايلد في عمر السادسة والأربعين.

«إن صداقتنا الملعونة والمثيرة للرثاء أدت إلى تحطيمي والإساءة إلى سمعتي. إلا أن ذكرى عاطفتنا القديمة كثيراً ما تراودني، وفكرة أن يشغل الاحتقار والمرارة والازدراء الموضع الذي شغله الحب من قبل فكرة

تجلب الحزن إلى نفسي. وأظن أنك تشعر في قرارة نفسك أن كتابتك لي وأنا أعيش وحدي حياة السجن، أفضل من نشر رسائلي دون إذني، أو إهداء قصائدٍ لي دون أن تسألني، رغم أن العالم لن يعرف شيئاً عن طبيعة كلمات الأسى أو العاطفة، أو الندم أو اللامبالاة التي ربما تختار إرسالها لتمثِّل ردك أو مناشدتك».

روبرت مكروم
صحيفة الغارديان
30 يناير 2017

إلى روبرت روس[1]

أول أبريل 1897

سجن ريدنج

أرسل إليك في ملف منفصلٍ عن هذا، رسالتي إلى ألفريد دوجلاس، والتي آمل أن تصل آمنة، وبمجرد قراءتك لها، ومعك بالطبع «مور أدي»[2] الذي أشمله معك دائماً، أريد منك أن تشرف على نسخها بعناية. هناك العديد من الأسباب التي تجعلني أقوم بذلك، ولكنني سأكتفي بتوضيح سببٍ واحد، أريدك أن تكون وكيلاً لأعمالي الأدبية في حالة وفاتي، وأن أمنحك التوكيل الكامل للتصرف في مسرحياتي وكتبي وأوراقي. وسأفعل ذلك بمجرد أن يصبح لديّ الحق القانوني في إنشاء وصية. زوجتي لا تفهم

---

(1) بالإنجليزية (Robbie Ross): (1869 ـ 1918 م) هو كاتب، وصحفي، وناقد أدبي من كندا، وهو حفيد زعيم الإصلاح الكندي روبرت بالدوين، وابن جون روس وأوغستا إليزابيث بالدوين، اشتهر بعلاقته بأوسكار وايلد، الذي كان صديقًا مخلصًا له طوال فترة معرفته إياه، ويعتبر روس شخصية محورية في المشهد الأدبي والفني بلندن من منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر وحتى وفاته المبكرة، وقام بتوجيه العديد من الشخصيات الأدبية، بما في ذلك سيغفريد ساسون. جلبت له مثليته الجنسية المفتوحة العديد من المصاعب، في الفترة التي كانت فيها أعمال الشذوذ الجنسي من الذكور غير قانونية.

(2) وليم مور أدي William More Adey (1858 - 1924) مترجم ومحرر صحفي، كان صديقاً لروبرت روس، اشترك معه في إدارة معرض صور (كارفاكس) وفي تحرير صحيفة (The Burlington Magazine) من عام 1911 إلى عام 1919.

فني، ولا يمكن توقع أن يكون لها أي اهتمام به، وسيريل ليس سوى طفلٍ. فكان من الطبيعي أن أعتمد عليك في هذا، كما أفعل في الواقع مع كل أموري، وأود أن تحصل على جميع أعمالي، أما الخصم الذي سيتحصل من بيعها، فأودعه إلى سيريل وفيفيان.

حسناً، إذا كنت وكيلاً لأعمالي الأدبية، فيجب أن يكون بحوزتك المستند الوحيد الذي يقدم حقاً أي تفسيرٍ لسلوكي الاستثنائي فيما يتعلق بكوينزبري وألفريد دوجلاس. وحينما تطلع على الرسالة سيتبدى لك التفسير النفسي لمسار السلوك الذي يبدو من الخارج مزيجاً من البلاهة المطلقة مع العربدة المبتذلة. يجب أن تكشف الحقيقة في يوم من الأيام: ليس بالضرورة فيما يتعلق بحياتي أو بدوجلاس؛ لكنني لست مستعداً للجلوس في آلة التعذيب التي وضِعتُ بها طوال الوقت؛ لسبب بسيط وهو أنني قد ورثت عن والدي ووالدتي اسما له مكانته الرفيعة في عالم الأدب والفن، ولا يمكنني أن أسمح مطلقا لكوبنزبري أن يتخذ من هذا الاسم درعاً ومخلباً إلى الأبد. إنني لا أدافع عن سلوكي، بل أوضحه.

يوجد أيضاً في هذه الرسالة بعض الفقرات التي تتناول تطوري العقلي في السجن، والتطور الحتمي لشخصيتي وموقفي الفكري تجاه ما عشته من أحداث، وأريد منك، وجميع الذين ما زالوا يقفون بصفي ويتعاطفون معي، أن تدركوا تمام الإدراك، ما كان في حالتي والطريقة التي آمل أن أواجه العالم بها. إنني أعلم يقيناً من إحدى زوايا النظر، أن يوم إطلاق سراحي، لن يكون سوى انتقال من سجن إلى آخر، وستكون هناك أوقات لن يبدو لي فيها العالم بأسره أكبر سعة من زنزانتي، ولن يكون أقل منه رعباً. ما زلت أعتقد أن اللّه قد خلق لكل منا عالمه الخاص، وعلى كل

واحدٍ منا أن يسعى للعيش في هذا العالم الذي بداخله. على كلِ حالٍ، سوف تقرأ تلك الأجزاء من رسالتي بألم أقل من الأجزاء الأخرى. ولست بحاجة أن أذكرك بمدى تداخل الأفكار معي ـ ومعنا جميعاً ـ ومن أي مادة متلاشية تصنع عواطفنا. ومع ذلك، فإنني أرى أمامي نوعاً من الأهداف المحتملة التي يمكنني أتقدم نحوها من خلال الفن، وليس بمستبعد أن تكون قادراً على مساعدتي.

فيما يتعلق بطريقة النسخ، فمن الطبيعي أن تكون الرسالة من الطول بحيث لا يمكن أن تُنسخ بخط اليد، ثم أن كتابتك في خطابك الأخير، يا عزيزي روبي، جاءت وكأنها مصممة خصيصاً لتذكيري بأنه لا يجب علي أن أكلفك بمثل هذه المهمة، ولعلي كنت مخطئاً في فهم مقصدك، وآمل أن أكون كذلك، غير أنني كنت منخرطاً في كتابة رواية من ثلاثة مجلدات، تدور حول الانتشار الخطير للفكر الشيوعي بين الأغنياء، وبعض الموضوعات المهيبة التي تثير اهتماماً حيوياً، أو كما لو كنت بطريقة أو بأخرى تحاول أن تفني شبابك الذي كان واعداً، وسيبقى كذلك دائماً. أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يتحتم عليك فعله وهو أن تتبع الطريقة الحديثة، وتعمل على النسخ بواسطة الآلة. وبالطبع يجب أن لا يخرج أصل المخطوطة عن نطاق سيطرتك، ولكن أليس بمقدورك أن تطلب من السيدة مارشال أن ترسل واحدة من فتياتها اللواتي يتقن الكتابة ـ فالنساء هن أكثر من يمكن الوثوق بهن في مثل هذا الشأن، حيث إن ذاكرتهن لا تحتفظ غالباً بالأشياء المهمة ـ فترسل الفتيات إلى هورنتون ستريت أو فيليمور جاردنز للقيام بذلك تحت إشرافك؟ وإني أؤكد لك أن الآلة الكاتبة إذا ما أدت دورها في التعبير فلن تكون أكثر

إزعاجاً من آلة البيانو إذا ما وقعت عليها شقيقة أو واحدة من القريبات، بل إنها مفضلة لدى كثير ممن كرسوا أنفسهم للحياة المنزلية.

أرجو ألا تُنسخ على أوراقٍ من النوع الرقيق، بل على أوراقٍ من النوع الجيد مثل الذي يستخدم في الروايات، وأن يوضع في أسفل الصفحة هامش عريض لوضع التصحيحات. فإذا تم التحقق من النسخة المرسلة مع المخطوطة الأصلية، فليأخذها مور إلى ألفرد دوجلاس، وأرجو أن تحتفظ بنسخة أخرى مطبوعة لك، تبقى لديك بجانب تلك التي سأحصل عليها[1] كما أتمنى عمل نسختين مطبوعتين أيضا ابتداء من الصفحة الرابعة من المخطوطة التاسعة حتى الصفحة الأخيرة من المخطوطة الرابعة، من فقرة «وخاتمة الأمر أنني أغفر لك..»، إلى «... ليس بيني وبين الفن شيء»، (إنني أقتبس من الذاكرة). وأيضاً من الصفحة الثالثة من المخطوطة الثامنة عشر، من فقرة من «سيفرج عني إذا سار كل شيء على ما يرام»، حتى فقرة «الأعشاب المرة... كاملة»، في الصفحة الرابعة. فإذا رُبِطَ سياق هذه الفقرات، مع إضافة ما تراه مناسباً بجميل مقصدك، مثل الصفحة الأولى من المخطوطة الخامسة عشر، فإنني أرغب في إرسال إحدى هاتين النسختين إلى سيدة ويمبلدون ـ التي حدثتك عنها دون أن أذكر لك اسمها ـ وأن ترسل النسخة الأخرى لفرانكي فوربس روبرتسون. لأنني على علمٍ بأن هاتين المرأتين الجميلتين توليان اهتماما بالغاً بمعرفة ما يحدث لروحي ـ ليس بالمعنى اللاهوتي، ولكن فقط بمعنى الاهتمام الروحي المنفصل عن

(1) لم يرسل هذا الخطاب الطويل مباشرة من السجن، بسبب رفض إدارة السجن بل سلمه وايلد إلى روبرت روس بعد خروجه من السجن، وقام روس باستخراج نسختين منه على الآلة، غير أنه لم يرسل النسخة الأصلية إلى دوجلاس، كما طلب وايلد، بل أرسل واحدة من النسختين المطبوعتين، وقد أنكر دوجلاس تماما أنها قد وصلته.

انشغالات الجسد، ويمكن لفرانكي أن تطلع أخاها إريك على النسخة إذا رغبت بذلك، فقد كنت دائماً محبباً له، غير أن الأمر يجب أن يبقى سراً مكتوماً، وهذا ما يجب أن تعلمه سيدة ويمبلدون أيضاً.

فإذا أُجريت النسخ في شارع هورنتون، فإن السيدة التي ستقوم بالنسخ يجب أن تتناول طعامها من دون أن تخطو خارج عتبة الباب، كما يفعل الكردينالات عندما ينتخبون البابا، حتى تخرج إلى الشرفة وتهتف للعالم «إليك أيها العالم خطاباً»؛ فالواقع إنه خطاب عام، وكما تُسمى نشرات الأب المقدس من خلال كلماتها الاستفتاحية، فيمكن أن يُعلَن أنه خطابٌ كُتِبَ في عالم السجن والأغلال.

ليست هناك حاجة لإخبار دوجلاس. أنه قد أُخِذَت نسخة من الخطاب، إلا إذا كان سيكتب شاكياً من الإجحاف والتحريف في ما كنت قد كتبته، ففي هذه الحالة يجب إخباره، وإنني آمل بإخلاص أن يكون لهذه الرسالة أثر في إصلاحه. إنها المرة الأولى التي يخبره فيها أي شخصٍ بالحقيقة عن نفسه. فإذا سمح لنفسه أن يتصور بأن الخطاب ليس إلا نتيجة لتأثير المضجع الخشبي على سلوكي، وأن وجهات نظري تشوهت بسبب ما لاقيته في حياة السجن من حرمان، فلن يعقب ذلك أي خيرٍ. آمل أن يعلمه أي شخص بأن هذه الرسالة هي ما يستحقه، وأنه إذا كان يراها مجحفة، فهو يستحق كامل ما يلحق به من ظلم. ومن ذا الذي يستحق ذلك حقاً، أكثر من الذي طالما كان جائراً مع الآخرين.

والواقع يا روبي، أن حياة السجن تجعل الإنسان يرى الناس والأشياء على حقيقتها. وهذا هو السبب الذي يجعلها تحول الإنسان إلى حجر. إن الأشخاص الذين هم خارج السجن يعيشون منخدعين بوهم الحياة

بسبب حركتها المستمرة على الدوام. إنهم يدورون مع الحياة ويساهمون في تزييف حقيقتها. أما نحن الذين لا نتحرك، فإننا نرى ونعلم. وسواء كان الخطاب نافعاً لطبيعته الضيقة وعقليته المريضة أو غير نافعٍ له، فقد أفادني كثيراً على الصعيد الشخصي، إذ إنني قد «طهرت صدري من أشياءٍ محتملة محفوفة بالمخاطر»، وإنني هنا أستعير عبارة للشاعر الذي كنا نفكر معاً بإنقاذه من زمرة الماديين. لست في حاجة إلى أن أذكرك بأن مجرد التعبير في حدِ ذاته هو أرفع أساليب الحياة بالنسبة إلى الفنان. بل إنه أسلوب الحياة الوحيد في نظر الفنان. فنحن نعيش من الكلمات الذي نكتبها، ومن بين الأشياء الكثيرة، والكثيرة جداً، التي يجب أن أشكر محافظ السجن عليها، فلا يوجد أعظم من سماحه لي بأن أكتب إلى الفرد دوجلاس بحرية تامة، وبالقدر الذي أريده من الاستفاضة. ولقد كنت طوال عامين أحمل في روحي عبئاً متزايداً من المرارة والحنق، أما الآن فقد تخلصت من أكثره، يوجد على الجانب الآخر من سورَ السجن قليلٌ من الأشجارِ الحقيرة السوداء التي لطخها السخام، وهي الآن تنبت براعم فاقعة الخضار، وإنني أعلم تماماً ماذا تفعل هذه الأشجار، فهي تبتدع طريقتها الخاصة في التعبير.

هناك شيءٌ آخر على قدر كبير من الأهمية، أجد نفسي ملزماً بأن أكتب إليك حوله، وإنني أتجه إليك بكلامي لأن لدي ما يوجب لومك، وإن حبي الشديد لك، يمنعني من أن أبدي هذا اللوم لسواك من الناس. ففي العشرين من مارس 1896، أي قبل مضي أكثر من عام، كتبت إليك بأقوى عبارات التعبير، منبئاً أنني لا أحتمل فكرة وجود خلاف بين وبين زوجتي على أمر تافه كالمال، وذلك بعد أن أبدت الكثير من اللطف بمجيئها من إيطاليا

لتدلي إليَّ بنبأ وفاة والدتي، وقلت إنني أرغب في أن يسحب أصدقائي اقتراحهم بشراء الفائدة العمرية الخاصة بي[1]، إذ إن ذلك يتعارض مع رغبتها، وكان يجب أن تهتم بهذا الأمر وتعمل على تنفيذه، غير أنك تجاهلت ذلك، فكان فيه كل الخطأ. فقد كان وجودي في السجن، يجعلني عديم الحيلة، ولم يكن أمامي من خيارٍ سوى أن أعتمد عليك، لقد كنت تعتقد أن الشيء الوحيد الصحيح الذي يجب أن تفعله هو الشيء المبهر والغارق في الذكاء، ولكنك كنت مخطئاً تماماً، فالحياة ليست معقدة، بل نحن المعقدين، الحياة بسيطة، والشيء البسيط هو الصحيح، وانظر الآن إلى العاقبة التي وصلنا إليها، هل أنت سعيد بها؟

ثانيا، لقد حدث خطأ فادح في تقدير شخصية مستر هارجروف، فقد كان يُعَد محامياً من رتبة الهمفريز ـ واحد من أولئك الذين يهددون للحصول على مبتغاهم، ويصخبون أصواتهم، ويبتزون، إلى غير ذلك، ولكنه كان على النقيضِ تماماً، فقد كانت أخلاق الرجل عالية، وله مركزه الاجتماعي المرموق، وهو يعني دائماً ما يقوله، لقد كانت فكرة وضعي ـ سجيناً وبائساً ـ لمحاربة هارجروف والسيد جورج لويس فكرة غريبة. كما كانت فكرة التقاضي ضدهما سخيفة. إن مستر هارجروف[2] ـ وهو محامي عائلة لويد طوال ثلاثين عاماً ـ يستطيع أن يقدم إلى زوجتي عشرة آلاف جنيه بمجرد إشارة صغيرة منها، من دون أن يشعر بأنه فعل شيئاً. لقد سألت

---

(1) حق الانتفاع مدى الحياة بالأملاك.

(2) كان المحامي الشخصي لعائلة وايلد، (السيد جورج لويس) جورج هنري لويس (1832ـ 1916) محامي انجليزي، حصل على رتبة فارس في عام 1893، ثم على رتبة بارون عام 1903.

مستر هولمان. ما إذا كانت التسوية لن تُبطَل بفعل الواقع في حالة الطلاق، فلم أتلقَ رداً، وأخال الأمر كما تصورت.

كم هي سخيفة الرسائل الجدية الطويلة التي أُرسِلَت إلي تنصحني «بعدم تسليم حقوقي إلى أطفالي»، وهي عبارة تكررت سبع مرات في المراسلات. حقوقي! لم يكن لدي شيء. إن الادعاء بأن الاستئناف الرسمي للقاضي في المحاكم يمكن أن يبطل في عشر دقائق ليس حقاً من الحقوق. والواقع أنني مندهش تماماً من الوضع الذي كنت فيه. فكم كان من الأفضل لو كنت قد فعلت كما طلبته منك، ففي ذلك الوقت كانت زوجتي من اللطف بحيث كان من الممكن أن تسمح لي برؤية أطفالي والبقاء معهم لبعض الوقت. لقد وضعني ألفريد دوجلاس في موقف كاذب فيما يتعلق بوالده، وأجبرني على أن أبقى محتجزاً هناك. كما قد فعل هذا مورأدي أيضاً، مدفوعاً بأفضل النوايا الحسنة، فقد أجبرني على اتخاذ موقف كاذب فيما يتعلق بزوجتي. حتى لو كان لي أي حقوق قانونية ـ والواقع أنه ليس لديَّ أي شيءٍ منها ـ فكم كان جميلاً أن أحصل على الامتيازات التي مُنِحَت لي بالمودة بدلاً من ابتزازها بالتهديدات! لقد كانت زوجتي في غاية اللطف معي، والآن، كنتيجة طبيعية للغاية، فإنها تتخذ طريقها ضدي تماماً، وقد حدث خطأ أيضاً في تقدير طبعها، فهي كانت قد حذرتني من السماح لأصدقائي بالتقاضي ضدها، وإلا سلكت طريقاً معيناً، ولا شك أنها فاعلة.

يقول سوينبورن في إحدى قصائده، مخاطباً ماري ستيوارت:

من المؤكد أنكِ قد كنتِ شيئاً أعظم

من شيءٍ بريء!

في الواقع، سيواجه أصدقائي في النهاية هذه الحقيقة «مستبعدا تفاصيل اتهامي التي تتعلق بأصدقائي الأخلاء الثلاث»، وهي أنني لست في السجن كرجل بريء. بل على العكس تماماً، فإن سجل نزاوتي المنحرفة، وعواطفي المدمرة، يملأ العديد من المجلدات الحمراء! أعتقد أن من الصواب الاعتراف بهذا، مهما كان وقعه صعباً على الكثير من الناس، فهو بلا شكٍ سيكون مدهشاً، بل ومفجعاً ـ وذلك لأن مور أدي يخبرني في خطابه أن خصمي في الجانب الآخر، سيكون ملزماً بتقديم تفاصيل صارمة عن التواريخ والأماكن والظروف الدقيقة للتهم المروعة التي ستوجه ضدي. فهل لديه تصور جدي أن قولي سيلقى قبولاً إذا كنت قد استسلمت للاستجواب؟ هل ينتظر مني أن أفعل ذلك، لألقى المصير نفسه الذي لقيته في قضية كوينزبري؟ لم يكن في هذه القضية تهم صحيحة موجهة ضدي، غير أن الأمر لم يزد عن ذكر التفاصيل، فإذا سكر رجلٌ مثلاً، فليس ثمة أهمية لنوع مشروبه، أبيض كان النبيذ أو أحمر، وإذا كان رجل يخفي في داخله شهوات منحرفة، فليس ثمة أهمية كذلك لطرق ظهورها.

لقد قلت في البداية إنني أعول كلياً على صفح زوجتي، وإنما أرى الآن أن صفحا واحداً لن تكون له أي قيمة في الوقت الذي يمكن أن تلقى عليَّ أكثر من تهمة.

فستقول زوجتي ببساطة إنها تصفح عني فيما يتعلق بالتهمة رقم 1، ولكنها لا تعلم شيئاً عن التهمة رقم 2، ولن تسمع شيئاً فيما يتعلق بالتهمة رقم 3! هناك كتيب صغير، لا تزيد قيمته عن أوقية واحدة، بل يباع نقداً بتسعة بنسات، عنوانه «كل رجل محامي نفسه» فلو أن أصدقائي أرسلوه إليّ، أو حتى

قرأوه بأنفسهم، فقد كان يمكن التغاضي عن كل هذه المتاعب، والنفقات، والهموم. على أي حال، وإن كنت ألقي اللوم عليك من البداية، إلا أنني الآن في حالة عقلية تجعلني أرى أن كل ما يحدث، إنما يحدث في سبيل الأصلح، وأن العالم ليس في حالة من العبثية بحيث يصطدم فيه الحظ بالمهارة. وكل ما يجب أن أفعله الآن هو أن أبدأ بالتسليم في مسألة الطلاق. ولا أعتقد أن بإمكان الحكومة أن تعود مرة أخرى إلى مقاضاتي. فحتى لو كانت حكومة بريطانية، فمثل هذا الإجراء ستعتبره بالغ الهمجية. ثم يجب علي ان أرد الفائدة الناتجة عن التسوية المالية إلى زوجتي، بدلاً من أن أجعلها تنتظر أن تأخذها مني. وكذلك يجب أن أعلن أنني لن أقبل أن آخذ منها أي شيء على الإطلاق، لا مستحقات ولا أعطيات، فهذا بنظري أقل الأفعال السوية والمهذبة التي يتحتم عليَّ فعلها من أجلها. لقد وجهت إليَّ ضربة شديدة، جعلتني أقاسي الكثير من الألم بسبب الحرمان القانوني من أطفالي.

جلبتني صداقتي مع ألفريد دوجلاس إلى قفص الاتهام في محكمة الجنايات، ثم أودت بي إلى محكمة الإفلاس وها هي الآن تدفع بي إلى قفص محكمة الطلاق. وبقدر ما أستطيع أن أستنتجه «من دون الاعتماد على ذلك الكتيب الذي يباع لقاء أوقية واحدة»، أنه لم يعد هناك أقفاص يمكن أن أدخل إليها، فإذا صح ما أراه، فإنني أستطيع أن أتنفس الصعداء أخيراً، غير أنني أريد منك أن تهتم جديا باقتراحي، وأن تطلب إلى مور أن يفعل ذلك أيضاً، وكذلك يجب على محاميه. ثم تكتب إليَّ بصدد الموضوع بأسرع ما يمكنك أن تفعل، وتجعل مور يكتب إليَّ أيضاً. أعتقد أن زوجتي لن تعترض على رد مبلغ الـ 75 جنيها الذي دفع من أجل الوراثة الملعونة للفائدة العمرية الخاصة بي. إنها عادلة جدا في الشؤون المالية،

غير أنني شخصياً أرجو أن لا يكون هناك أي مساومة. لقد وقع خطأ جسيم، فيجب أن يعالج بالتسليم بالطلاق. ولذلك أقترح أن تعاد الفائدة العمرية الخاصة بي إلى زوجتي، فهي من لها الحق الشرعي بها، وكهدية فراق مني. فإن هذا يجعل من خروجي من الزواج أمراً أقل خزيا مما لو ترك لينفذ بالإلزام القانوني. وسواء كنت متزوجاً أو لم أكن، فإن هذا لم يعنيني بشيء، فلقد تجاوزت ذلك الرباط منذ عدة سنين، غير أنني أعتقد أن من الصعب على زوجتي أن تكون مرتبطة بي، لطالما فكرت بذلك، ومع إن الأمر قد يدهش بعض أصدقائي، إلا أنني مولع جداً بزوجتي، وأشعر بالأسف الشديد عليها. إنني آمل مخلصاً أن تنعم بزواجٍ سعيد، إذا قدر لها أن تتزوج مرة أخرى. إنها لم تتمكن من فهمي، فلقد شعرت بالسأم القاتل من الحياة الزوجية. ولكنها مع ذلك، كانت تمتاز بصفات جميلة، وكانت مخلصة إلى حدٍ بعيد وعلى أساس من هذه المنطلق، وهو تسليمي بكل شيء، أرجو أن تجعل مور يكتب إليَّ، وأن تكتب أنت في الحال، وذلك بعد أن تكونا قد درستما المسألة جيداً.

كذلك إذا كتب مور إلى الأشخاص الذين رهنوا معطف الفرو الخاص بي أو عرضوه للبيع منذ دخولي إلى السجن فسأعتبر ذلك بمثابة فضل كبير أدين به عليه، سائلاً عوضاً عني، ما إذا كانوا يتكرمون بالإدلاء بمكان بيعه أو رهنه وما إن كانت استعادته ممكنة، وذلك لأنني مهتم باقتفاء أثره، وأرغب بشدة في استرجاعه لو أُتيح لي ذلك. فقد احتفظت به طوال اثني عشر عاماً وكان معي طوال الوقت الذي أمضيته في أمريكا، وكان حاضراً في جميع أمسياتي الأولى، وهو يعرفني جيداً، وإنني أريده حقاً يجب أن تكتب الرسالة بأسلوب رقيق جداً، وأن توجه بداية إلى الرجل، فإذا لم يرد عليها،

ترسل إلى زوجته. إذ إن زوجته هي من كانت قد ألحت عليَّ لأترك معطفي في عهدتها ولعلك تذكر بأنني أشعر بالدهشة والضيق من صنيعها، ولا سيما وأنني دفعت من جيبي منذ بداية اعتقالي جميع نفقات حبسها التي بلغت خمسين جنيها، والتي كنت قد سلمتها بواسطة ليفرسن[1]. ويكفي ذكر هذا ليكون سبباً في الضيق الذي أشعر به. وإنما يجب الاحتفاظ بهذه الرسائل لأن هناك أسباباً مهمة توجب ذلك. بلى، فهناك في الواقع أسباباً جوهرية، وإنما أريد أن يكتب الخطاب في صيغة مهذبة، كما كنت قد أسلفت، ولذلك فيجب أن لا يحتوي على شيء من الجدل أو الإنكار. فالواقع أنني لا أطلب أكثر من دليل مكتوب ألجأ إليه لحماية نفسي. أرجو أن أقابل «فرانك هاريس»[2] في أحد أيام السبت، أو في أقرب وقت، وسأسعد بسماع أنباء نسخ خطابي، وسيكون ذلك عندما أسمع منك عن مسألة الطلاق، وإذا رغب «آرثر كلفتن»[3] في الاطلاع على النسخة فلا بأس من اطلاعه عليها، وكذلك لا بأس من أن يطلع عليها أخوك «أليك».[4]

المخلص دائما
أوسكار وايلد

---

(1) زوج (أدا ليفرسن Ada Leverson) وهي كاتبة بريطانية عرفت بصداقتها مع أوسكار وايلد وعملها كرائدة بارعة في مهرجان الفنون.

(2) جيمس توماس (فرانك) هاريس (1856 ـ 1931) مؤلف ومحرر، قضى شطراً كبيراً من شبابه في أمريكا ثم عاد إلى إنجلترا، وعمل محررا في إحدى الصحف، ومن أهم كتبه «أوسكار وايلد: حياته واعترفاته».

(3) آرثر بلامي كليفتن (1862 ـ 1932) كان ابنا لأستاذ الفلسفة التطبيقية في جامعة أكسفورد. وكان محامياً ثم توجه إلى العمل في مجال الفنون

(4) الكسندر جالت روس (1862 ـ 1932) الأخ الأكبر لروبرت روس. مؤسس وسكرتير جمعية المؤلفين، وقد صحب ريدر هاجارد إلى إيسلاندا في عام 1888 وبعد فترة قصيرة في معالجة الأدب أصبح شريكا في بيت الشؤون المالية.

من الأعماق

رسالة أوسكار وايلد إلى دوغلاس في سجنه[1]

(يناير ـ مارس 1897)

سجن صاحبة الجلالة ريدنج

عزيزي بوسي..

بعد انتظار طويل بلا أيّ فائدة تُرجى، عزمت أن أكتب إليك بنفسي، وذلك من أجل مصلحتك بقدر ما هو لمصلحتي، إذ إنني لا أود أن أذكر حقيقة أنني قضيت عامين طويلين في السجن، من دون أن أتلقى منك ولو سطراً واحداً، أو أي أنباء منك، أو حتى رسالة صغيرة، باستثناء تلك الأشياء التي تسبب الألم.

---

(1) اللورد ألفريد بروس دوغلاس (22 أكتوبر 1870 ـ 20 مارس 1945)، شاعر وصحفي بريطاني اشتهر بعلاقته الغرامية بأوسكار وايلد، الذي التقى به خلال دراسته في جامعة أكسفورد، حيث كان يقوم بتحرير مجلة للطلاب الجامعيين، بعنوان The Spirit Lamp، فنشأت بينهما علاقة وثيقة و جامحة. وكان من أشد الرافضين لهذه العلاقة والد دوغلاس، (ماركيز كوينزبيري)، حيث شرع في إذلال وايلد، واتهمه علانيةً بالشذوذ الجنسي. وبعد أن تمادى والد دوجلاس بمضايقاته، رفع وايلد دعوى قضائية ضده بتهمة التشهير الإجرامي، ولكن تم اكتشاف بعض التفاصيل التي تخص علاقة دوجلاس وأوسكار، وسُجن حسب القوانين التي تمنع الشذوذ. وبعد إطلاق سراح أوسكار، عاش لفترة وجيزة مع دوغلاس في نابولي، لكنهما انفصلا في الوقت الذي توفي فيه وايلد في عام 1900.

إن صداقتنا سيئة الحظ، والتي يُرثى لها إلى حدٍ بعيد، قد انتهت بجلب الخراب والفضيحة العلنية إليَّ، ومع ذلك ما زلت محتفظاً بذكرى محبتنا القديمة في أغلب الأوقات ولكن عندما أفكر في أن مشاعر الاشمئزاز، والمرارة، والاحتقار التي ألحقتها بي، ستحل محل الحب الذي كنت أكنه لك في قلبي، أشعر بحسرة شديدة، وأعتقد أنك ستشعر في أعماقك بأنك عندما سترسل إليَّ كتاباتك في وحدتي التي أُقاسيها في السجن، أنه سيكون أفضل من نشر خطاباتي من دون إذن مني، أو تهدي إلي قصائدك وتنشرها دون أن تأخذ موافقتي، وإن كان الناس لن يعلموا شيئاً عن طبيعة الكلمات التي ترسل بها إليّ في ردك أو استشهادك، أهي كلمات حزن أو انفعال أو عدم مبالاة!

إنني على أتم الثقة في أن هذا الخطاب الذي وجب أن أتكلم فيه عن حياتي وحياتك، وعن الماضي والمستقبل، وعن الأشياء الحلوة التي انقلبت إلى مرارة، وعن الأشياء المرة التي انقلبت إلى سرور - هذا الخطاب يتضمن الكثير مما يجرح خيلاءك في صميمه، فإذا كان صحيحاً، فأعد قراءته المرة تلوى الأخرى حتى ينقضي كل ما فيك من غرور. فإذا وجدت فيه شيئاً تشعر من خلاله أنك قد أُتِهمتَ ظلماً، فتذكر أن المرء يجب أن يكون ممتناً لوجود خطأ يمكن أن يُتهَم به ظلماً، فإذا كان فيه فقرة واحدة تجعلك تذرف في عينيك الدموع، فإبك كما نبكي نحن في السجون، حيث جعل لنا النهار والليل بطوله لذرف الدموع، إن البكاء هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنجيك، فإذا ذهبت تشكو إلى والدتك، كما فعلت يوم أن أعربت عن احتقاري لك في خطابي إلى «روبي»، لتقوم أمك بهدهدتك والتملق إليك ليعود خيلائك إليك ورضاك النفسي عن ذاتك، فستكون بذلك قد ضعت تماماً. لأنك عندما

تجد عذراً واحداً كاذباً، فستجد في اللحظة ذاتها مئة عذر آخر يعيدك كما كنت من قبل، هل ما زلت تقول، كما كنت قد قلت لروبي في إجابتك بأنني «أنسب إليك دوافعاً غير لائقة»، ياه! أنت حتى لم يكن لديك أي دوافع في حياتك، بل كانت مجرد شهوات. فالدافع هو هدف عقلي، أو أنك كنت «صغير السن للغاية» عندما بدأت صداقتنا كما كنت تدعي؟ لم يكن عيبك في أنك عرفت القليل عن الحياة، بل في أنك قد عرفت الكثير! لقد خلفت ورائك إشراقة الصبا بما فيها من تورد ناعم وإشراقة صافية، وسرور ينبع من البراءة والأمل، لقد خلفت كل هذا ورائك بعيداً، لتندفع في عدو سريع من الخيال إلى الواقع، ثم بدأت تجنح إلى التعلق بالحضيض وبمن يعيش فيه، وكان هذا منشأ الاضطراب الذي جعلك تنشد مساعدتي، ولقد منحتك ما طلبت بدافع من الشفقة، وكنت في هذا غبياً بالقدر الذي تتجلى لي فيه حكمة هذا العالم.

يجب عليك أن تقرأ هذا الخطاب من بدايته وحتى نهايته من دون أن تتوقف، حتى لو جاءت كل كلمة تقرأها فيه كالجمرة التي يشوى بها اللحم الرقيق، أو سكيناً حاداً تسيل منه الدماء! عليك أن تذكر أن الغبيّ في نظر الناس لا يكون كذلك في نظر الآلهة. فالرجل الذي يجهل كل أساليب الفن في ثورته وأمزجة الفكر في اندفاعاته، ولا يعلم شيئاً عن فخامة الأساليب اللاتينية، ولا يحس بالزخم الذي تفيض به الموسيقى الإغريقية، ويجهل طراز النحت التوسكاني، ولا يدري ما هي أغنية العصر الإليزابيثي، أن هذا الرجل قد يكون ممتلئاً بأعظم معاني الحكمة، أما الغبي الحقيقي، ذلك الذي تسخر منه الآلهة أو تضره، فهو الذي لا يعرف نفسه، وقد كنت كذلك ردحاً طويلاً من الزمن، كما كنت أنت أيضا، فلا تعد كما كنت! لا تخف،

فإن أعظم الرذائل هي ضحالة العقل. وما أُدرِكَ فهو صحيح، أريدك أن تدرك جيدا بأن البؤس الذي ستشعر به عند قراءتك لخطابي، كنت أشعره أضعافاً إذا أكتبه لك! قد كانت القوى الخفية طيبة معك، فقد سمحت لك بأن ترى الجانب السحري العجيب من الحياة، كما يرى المرء الخيالات في البلورة، بلى، فقد سمحت لك بأن تنظر إلى رأس «ميدوسا»[1] التي تحيل الأحياء إلى حجارة في المرآة، وكنت تمشي في حرية بين الأزهار، بينما سلبت مني الحياة الزاهرة المفعمة بجميل الألوان والحركة!

في البداية، أريد أن أُخبرك بأنني ألوم نفسي بعنف، أنني قابع في هذه الزنزانة الموحشة مرتدياً ملابس المجرم، لأشعر بأنني رجلٌ قد فُضِحَ عاره ودُمِرَت حياته، أنني لا أملك إلا أن ألوم نفسي في الليالي المؤرقة، والمقلقة بفعل العذاب، والأيام الطويلة المضجرة بفعل الألم، ليس هناك من ألومه سوى نفسي، أنني ألوم نفسي لأنني سمحت لصداقة بهذا القدر من الغباء أن تُسيطر كلياً على حياتي، ومع أن هدفها الأول لم يكن في الأساس سوى اختلاق الأشياء الجميلة والتأمل من خلالها، ولكنها قد كانت مسيطرة بصورة بائسة، قد كانت هناك منذ البداية، ثغرة واسعة بيني وبينك، كنت كسولاً في مدرستك، وأسوأ من كسولٍ في جامعتك، ولم تتمكن من إدراك أن الفنان الذي هو من نوع خاص، كما كنت أنا، يحتاج إلى جو عقلي خاص، وصحبة فكرية، وعزلة ينعم فيها بالهدوء والإطمئنان، وأعني بالفنان هنا هو ذلك الذي تعمد نوعية أعماله على

---

(1) في أساطير الإغريق القديمة، أن «ميدوسا» كانت فتاة جميلة «تخدم في معبد الآلهة بأثينا، وحولتها آلهة الحكمة والقوة والحرب، الحامية المدينة، إلى قبيحة متشيطنة، منبتة في رأسها أفاعي وثعابينَ بدل خصلات شعرها الطبيعي حين كانت فاتنة، لممارستها الجنس مع من أغواها داخل المعبد، وهو «بوسيدون» أله البحار.

تقوية شخصيته، ومع أنك كنت تبدي إعجاباً بالغاً بكل قطعة من أعمالي فور انتهائي من كتابتها، وتسر من كل نجاحاتي المشرقة التي وصلت إليها في أولى بداياتي، وتسر بالحضور إلى الحفلات المتألقة التي كانت تعقب ذلك، وكنت تفخر ـ وكان من الطبيعي أن تفعل ـ بكونك الصديق المقرب لفنان ذائع الصيت، ومع كل هذا، أنت لم تفهم شيئاً من الشروط التي لا غنى عنها لإخراج العمل الفني! إنني أذكرك بأنني طوال المدة التي قضيتها برفقتك، لم أستطع كتابة سطرٍ واحد، ولا أقول ذلك من باب المبالغة في الحديث، ولكن من صميم الحقيقة المجردة، منبئة بواقع صحيح، فسواء كنت في «توركواي» أو «جورنج» أو في لندن، أو في فلورنسا، أو في أي مكان آخر، فإن حياتي كانت عقيمة تماماً وغير خلاقة طوال الوقت الذي كنت فيه بجانبي، ويؤسفني أن أقول إنك كنت دائماً بجانبي، باستثناء فترات قليلة، سأذكر لك مثالاً واحداً من عدد لا يُحصى. فقد حدث في سبتمبر عام 1893 أن اتخذت سكناً خاصاً بي، وذلك كي أنعم بالعمل من دون أن أتعرض للإزعاج، إذ كنت قد أخلفت وعدي مع «جون هير» بكتابة مسرحية، فمضى يلح لإتمام الموضوع. ولم تكن قد حضرت إليَّ في سكني في الأسبوع الأول، فقد كنا على خلاف في ذلك الوقت ـ وكان ذلك في الواقع من الأمور العادية ـ اختلفنا في تقدير القيمة الفنية للترجمة التي قمت بها لـ«سالومي» فلم يسترح لك بال إلا بعد أن أرسلت إليَّ خطابات مليئة بالتراهات حول الموضوع. في ذلك الأسبوع تمكنت من كتابة الفصل الأول من مسرحية «زوج مثالي» وأتممت الفصل بجميع تفاصيله، كما قد مُثِّلَ في النهاية. غير أنك عدت في الأسبوع الثاني، فكانت النتيجة أن توقف عملي بصورة تامة. فقد كنت أصل إلى ساحة

سان جيمس في الحادية عشرة والنصف من كل صباح لكي تتاح لي فرصة للتفكير والكتابة بغير أن أتعرض لأسباب الإزعاج التي لا تخلو منها حياتي المنزلية، على الرغم مما فيها من هدوء واطمئنان، وفي الثانية عشرة كنت تأتي راكباً. وتجلس لتدخن غيلونك، وتثرثر حتى الواحدة والنصف، حيث كان عليّ أن أصطحبك لتناول الغداء، إما في مقهى رويال أو في مطعم بركلي، وهذا الغداء وما يتبعه من شراب، يمتد غالبا حتى الثالثة والنصف، وعندها كنت تمضي لتهجع ساعة في هوايت، لتعود مرة أخرى وقت تناول الشاي، وتبقى حتى موعد الاستعداد لتناول العشاء، وكنت تتعشى معي في مطعم سافوي أو شارع تايت، ولم نكن نفترق، كفرض لازم، حتى بعد منتصف الليل، إذ إن وجبة منتصف الليل في مطعم ويليس تستمر حتى إشراقة الصباح. كانت هذه حياتي طوال تلك الشهور الثلاثة، وفي كل يوم منها، باستثناء تلك الأيام الأربعة التي ذهبت فيها إلى الخارج، وبالطبع كان يتحتم علي أن أذهب إلى «كاليه» لأحضرك مرة أخرى، فقد كان ذلك، منذ الوهلة الأولى، وضعاً كريهاً وبائساً لشخصٍ في مثل طبيعتي ومزاجي.

لا شك أنك تدرك الآن ذلك! بل يجب عليك أن تدرك حقيقة عجزك عن البقاء وحيداً، وأن طبيعتك لحوحة في تطفلها الدائم على ما يتعلق بحياة الآخرين وأوقاتهم، وأنك تفتقر لأي قدرة على التركيز الذهني الثابت، ثم الحادثة المشئومة ـ لأنني أميل إلى الاعتقاد بأنها لم تكن أكثر من ذلك ـ وهي أنك لم تستطع مطلقاً أن تكتسب «أطباع أكسفورد» فيما يتعلق بتوجهاتها العقلية، أعني أنك لم تكن مطلقاً قادراً على أن تتلاعب بالتخاطر بكياسة، بل وصلت إلى آرائك بتعصب، كل هذا يُضاف إليه أن رغباتك واهتماماتك لم تكن في الفن، بل كانت في الحياة ـ وجميع هذا

كان له نتائج في تأخير تقدمك الثقافي، كما كان في تحطيم سمعة أعمالي كفنان! وعندما أُقارن صداقتي بك مع صداقتي لأولئك الذين لا يزالون أصغر سناً منك، ولكن أعظم قدراً، كـ«جون جراي»[1] و«بيير لويس»[2] فلا يسعني سوى أن أشعر بالخجل، فقد كان يجب أن أمضي حياتي مع أمثالهم.

إنني لا أتحدث عن النتائج المريعة التي أوصلتني لها صداقتي معك، بل أفكر فقط في نوعها حينما كانت قائمة، فلقد كانت من عوامل الانحطاط بالنسبة إليّ فيما يتعلق بالناحية العقلية، وحقا أنه كان في طبيعتك وباء معدي للمزاج الفني، ويبدو أنني التقيتك إما متأخراً جداً أو متقدماً جداً، لا أستطيع أن أجزم بذلك، ففي الوقت الذي كنت فيه بعيداً عني كنت أشعر بأنني في حالة جيدة، وفي اللحظة التي أرسلت فيها إلى والدتك ونجحت في إقناعها بأن ترسلك خارج إنجلترا، وكان ذلك في أوائل ديسمبر من السنة التي أشرت إليها، استطعت أن أستعيد مرة أخرى ما كان قد تبدد من خيوط مخيلتي، وأن يعود بمقدور يدي أن تتحكم في زمام أمور حياتي، فلم أتمكن من إنجاز الفصول الثلاثة المتبقية من مسرحية «زوج مثالي» وحسب، بل أمكنني أيضا أن أشرع في كتابة مسرحيتين أُخرتين من نوع مختلف تماماً، وهما «المأساة

---

(1) كانون جون جراي Canon John Gray (1866 ـ1934) شاعر وكاهن من إنجلترا، من أعماله (النقاط الفضية Silverpoints) و (الطريق الطويل The Long Road)، قيل أنه كان مصدر الإلهام لخيال أوسكار وايلد عندما كتب دوريان جراي.

(2) (بيير لويس) Pierre Louÿs (1870 - 1925) شاعر وكاتب فرنسي، اشتهر بإثارة المواضيع الكلاسيكية والسحاقية في كتاباته، حتى وصفه البعض بأنه يسعى إلى (التعبير عن الإثارة الوثنية مع الكمال الأسلوبي)، حصل على رتبة فارس مع فيلق الشرف في عام1909 لمساهمته في الأدب الفرنسي كرائد لأدب الرسائل، ثم تم ترقيته إلى رتبة بارونيت عام 1922.

الفلورنسية» و«الغانية القديسة» وكنت في صدد إكمالهما تقريباً، وإذا بك تعود فجأة! هكذا من دون دعوة، وبغير ترحيب، وتحت ظروف كانت أشد شؤماً على سعادتي، فكان أن بقيت المسرحيتان ناقصتان، ولم أعد قادراً على إكمالهما بعد أن عجزت عن استعادة المزاج الذي خلقتهما فيه. وأحسبك الآن، بعد أن نشرت ديوانك الشعري بنفسك، تستطيع أن تدرك صدق هذا، ومع ذلك فسواء استطعت أو لم تستطع، فإنها حقيقة مريعة في صميم صداقتنا، فكلما كنت معي، كنت سبباً في الإفساد الفعلي لأعمالي الفنية.وإنني لأشعر بالخجل من نفسي، وألومها بأشد ما أوتيت من حسرة، عندما أذكر بأنني كنت السبب في ذلك، عندما سمحت لك بأن تقف بعنادٍ بيني وبين الفن. إنك لم تستطع أن تعلم، ولم تستطع أن تفهم، ولا أن تدرك قيمة الشيء. ولم يكن لديَّ الحق الذي يتيح لي توقع منك أي شيء من ذلك. فقد انحصر جل اهتمامك في ترويض أمزجتك وتناول وجباتك، وكانت جميع رغباتك متجهة إلى أصناف اللهو المختلفة، وألوان السرور العادي، وما دون ذلك. وكانت تلك الرغبات تأتي بإلحاح من أمزجتك المتقلبة، أو ما رأيت أنها في حاجة إليه في لحظتها، فكان من المفترض أن أمنعك من دخول منزلي واقتحام مسكني إلا بدعوة خاصة مني. ولذلك فإنني الآن ألوم نفسي باستمرار على ضعفي. فقد كان الأمر مجرد ضعف. والواقع أن لا شيء في حياتي كان له أقل أهمية إذا ما قورن بالفن. غير أن الضعف بالنسبة إلى الفنان ليس أقل من جريمة، ولاسيما إذا كان يؤدي إلى شل حركته في التخيل.

إنني ألوم نفسي مرة أخرى، لسماحي لك بأن تسوقني إلى انهيار مالي تام مشين. وأذكر أنني جلست مع والدتك في غابة براكنل المصفرة صباح أحد الأيام الأولى من شهر اكتوبر، وفي ذلك الوقت لم يكن لديَّ سوى علم

قليل بحقيقة طبيعتك، فقد مكثت والدتك معك في أكسفورد من يوم السبت وحتى يوم الإثنين، ثم بقيت معي في كرومر لمدة عشرة أيام كنت خلالها تلعب الجولف، واتجه حديثي مع والدتك نحوك، فمضت والدتك تحدثني عن طبعك، وأخبرتني بأن لديك عيبين كبيرين، هما غرورك و«سوء تصرفك بالمال» ـ هكذا قالت. وإني أذكر جيدا كيف ضحكت يومها من ذلك القول، إذ لم يكن لديَّ أدني فكرة بأن العيب الأول سوف يسوقني إلى السجن وأن الثاني سيؤدي بي إلى الإفلاس، فقد ظننت وقتها بأن الغرور الذي تقصده ما هو إلا زهرة لطيفة يتجمل بها شاب غرير. أما عن الإسراف ـ فلم أعتقد بأنها تقصد شيئاً آخر ـ فإن فضائل الحصافة والحرص المالي، لم تكن يوماً في طباعي ولا في طباع آبائي، ولكنني كنت قد بدأت أدرك ما رمت إليه والدتك قبل نهاية الشهر الأول من صداقتنا. وذلك لأن إصرارك على العيش بإفراط وطيش، ورغبتك المستميتة في الحصول على النقود باستمرار، واعتقادك بأن كل ما تناله من مسرات يجب أن يُدفَع من حسابي سواء كنت حاضراً أو غائباً، نتج عن كل هذا بعد وقت قصير متاعب مالية خطيرة أثقلت كاهلي، جعلت جميع أوجه الإنفاق تبدو لي تافهة ومضجرة، بينما كانت يدك تزداد انقباضا في التحكم بحياتي، إنها لم تكن في الواقع تنفق على أكثر من متع الطعام والشراب، وما شابه ذلك، والحق أن المرء قد يسر إذا ما رأى مائدته مزدانة بين الحين والآخر بزجاجة حمراء من النبيذ، أو ببعض الزهور التي تكسبها إشراقا، غير أنك تجاوزت في ذلك كل ذوق، وتخطيت كل مزاج، فقد كنت دائما تطلب دون لطف، وتأخذ بغير اِمتنان، وبت تؤمن بأن لديك الحق الصريح بالعيش على حسابي في رفاهية مترفة بإفراط لم تعتد عليه من قبل، وهو ما جعل شهواتك تزداد انجرافاً، وحينما خسرت في النهاية

مبلغاً على مائدة القمار في بعض نوادي الجزائر، لم يكلفك الأمر سوى أن ترسل برقية إليَّ في لندن صباح اليوم التالي، طالباً إيداع المبلغ الذي خسرته لحسابك في مصرفك، وذلك بغير أن تعير أدني أهمية للأمر!

وحينما أخبرك أنني كنت في المدة التي تتراوح من خريف 1892 وحتى دخولي السجن، قد أنفقت عليك ما يقرب من أكثر من خمسة آلاف جنيه بالإضافة إلى الفواتير الأُخرى التي تكفلت أدائها بنفسي، سيكون لديك فكرة عن نوع الحياة التي كنت مصراً على أن تعيشها، فهل ترى أنني أُبالغ؟ إن نفقاتي العادية معك، في اليوم العادي في لندن (تشمل الغداء والعشاء ووجبة منتصف الليل، وألوان اللهو، والركوب وما يتبع ذلك) كانت تتراوح بين الـ12 إلى 20 جنيه كل يوم. وكان من الطبيعي أن تكون نفقات الأسبوع بذات المعدل من الكثرة، فكانت تتراوح بين الـ80 إلى 130 جنيها كل أسبوع. وفي الشهور الثلاثة التي أمضيناها في جورنج بلغ مجمل نفقاتي 1340 جنيها (بما في ذلك إيجار المسكن طبعاً)، وعلى هذا المسار وجدتني أطأ كل شيء في حياتي خطوة بعد أخرى مستقبلا بذلك إفلاسي، وكان هذا أمراً فظيعاً. وبالطبع لم يكن في استطاعتك بذلك الوقت أن تتقبل مثالاً كهذا (حياة بسيطة مصحوبة بتفكير عالٍ) غير أن مثل ذلك الإسراف كان وصمة عار لك ولي! إن واحدة من الوجبات التي أذكرها دائما كأمتع ما تناولته في حياتي كانت تلك التي تناولتها مرة مع روبي في إحدى مقاهي «سوهو» وقد كلفتني من الشلنات قدر ما كانت تكلفه وجبة معك من الجنيهات! وفي ذلك الغذاء تجاذبت مع روبي أروع حوار، حتى إنني قد عزمت على أن أشرع في كتابته متناولا فكرته، وعنوانه، ومعالجته

وأسلوبه وكل ما جاء فيه[1]، قد ظفرت بهذا الحوار بثمن لا يزيد عن ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيما لقاء وجبة كاملة، أما في الوجبات المترفة التي كنت أتناولها معك، لم أظفر بأي شيء سوى ذكرى ما أفرطنا في تناوله من طعام وشراب! ثم إن تسليمي لرغباتك كان يعود بالسوء عليك؛ وأنك الآن تعرف هذا، فقد جعلك تتعلق بي دائماً، في استهتار أحياناً وفي خشونة دائماً. وبصفتي مستضيفا لك، لم أكن أشعر بأكثر المناسبات إلا بقليل من السرور والامتياز، فقد نسيت اللطف الجميل للصداقة، وسحر المحادثة التي تبعث على السرور، وجميع السجايا الخلقية الرقيقة التي تصاحب الحياة وجعلها محببة للنفوس، كالموسيقى وهي تجعل الأشياء تتوافق مع الوقت، وتملأ بأنغامها الجميلة جميع الأماكن الموحشة، وإنني عندما أتحدث عن لطف الصداقة فإنني لا أقصد المجاملة الرسمية في تقديم الشكر، إذ إن المجاملة الرسمية توتر عروة الصداقة الوثيقة. ومع أنه قد يبدو لك غريباً أن يستطيع من هو في مثل وضعي أن يفرق بين عار وآخر، فإنني أقول بصراحة إن خرقي لمبادئي كان في تبديد كل تلك الأموال عليك، وتركك تبعثرها بطريق يعود عليك بالضرر كما يعود عليَّ أيضاً، وكل هذا كان يقدم علامة بارزة أمام عيني على تبديد عام للأموال أدى إلى إفلاسي، وهو ما يجعلني أشعر بالخجل مضاعفاً، فأنا لم أخلق لمثل هذا!

ولكن الأعظم من كل ذلك أنني ألوم نفسي على سماحي لك بأن تجلب ذلك الانحطاط الخلقي التام على حياتي. إن قاعدة الخلق هي قوة الإرادة. وقد أصبحت قوة إرادتي خاضعة لقوة إرادتك بصورة

---

(1) قد تناول أوسكار وايلد الحوار في مقال كتبه تحت عنوان (the decay of lying ـ اضمحلال الكذب) عام 1891 م.

تامة. إن هذا يبدو فظيعا، ولكنه ليس سوى الحقيقة. فتلك المشاجرات المتوالية، كانت تبدو مما لا غنى لروحك ولجسدك عنه، وأخذت تفسد من عقلك وبدنك لتجعل منك شيئاً منفراً للناظرين والسامعين! وذلك الجنون الذي ورثته عن أبيك ـ جنونك بكتابة خطابات فظة ومنفرة، ثم افتقارك التام إلى القدرة في التحكم بانفعالاتك التي كانت تتجلى بمظهر من الاستياء في جهوم وجهك العابس الطويل، ولم تكن بأقل منها تلك النوبات الهستيرية من الغضب التي كانت تنتابك فجأة. كل هذه الأشياء التي كنت أشير إليها في خطاباتي، تلك التي كنت تلقيها جانبا في فندق سافوي أو غيره، ليمثل بها بعد ذلك محامي والدك في المحكمة، والتي كانت تحتوي على توسل لا يخلو من العاطفة، لو كنت في ذلك الوقت قادراً على أن تدرك ما هي العاطفة، سواء في عناصرها أو في كيفية التعبير عنها، وأقول إن تلك الأشياء كانت هي السبب في استسلامي المشؤوم لرغباتك اليومية المتزايدة، ولو كنت قد أدركتها لما أبليت معك أي إنسان، وكان في ذلك انتصار الطبيعة الصغرى على الكبرى، لقد كانت حالة من استبداد الضعيف بالقوى كما صورتها في إحدى مسرحياتي على أنها «النوع الوحيد من الاستبداد الذي يمكن أن يستمر» [1]. وكان أمراً لا مفر منه. ففي كل علاقة مع الآخر لا بد من أن يبحث المرء عن بعض وسائل الحياة. وفي حالتك كان علي إما أن أستسلم لك أو أنبذك. ولم يكن هناك طريق آخر أمامي، فمن محبتي العميقة لك، وإن كانت في غير موضعها، ومن شفقتي الكبيرة عليك، بسبب عيوبك وطبعك ومزاجك، ومن طبيعتي الخيرة في مثاليتها، وذلك الفتور الذي ورثته من سلالة

(1) في الفصل الثالث من مسرحية «امرأة دون أهمية».

عائلتي، ومن روحي الفنية التي تنفر من المشاجرات الخشنة وتعاف الكلام القبيح، ومن عدم ميلي إلى رؤية الحياة وهي تنقلب إلى المرارة، وقد تركزت عيناي على أشياء أُخرى، مجرد توافه أحقر جدا من أن ينظر المرء إليها أو يهتم بها لأكثر من لحظة ـ من أجل كل هذه الأسباب، التي قد تبدو بسيطة، كنت أستسلم لك دائماً، وكنتيجة طبيعية لذلك، أخذت ادعاءاتك وجهودك للسيطرة، وابتزازاتك، تزداد عن الحد المعقول، وأصبح أحقر دوافعك، وأحط شهواتك، وأكثر انفعالاتك شيوعاً، قوانيناً تسيطر بها دائما على حياة الآخرين، وإذا اقتضى الأمر فإنك ستضحي بحياتك في سبيلها من دون أدنى تردد، ولأنك كنت تعلم أنك باصطناع مشاجرة سوف تحصل على مبتغاك، فقد كان من الطبيعي أن تنتهج هذا الطريق دائما بغير وعي، ولم تكن تدري في النهاية إلى أي مرمى كنت تسرع خطاك أو إلى أي هدف كانت تصبو إليه عيناك، ولكنك استطعت أن تظفر به، ففي أعظم لحظات حياتي خطورة وأشدها رعباً، في ذلك الوقت الذي اتخذت فيه خطوتي البائسة برفع تلك القضية السخيفة، كان والدك على أحد الجانبين يهاجمني بتلك البطاقات الفظيعة التي تركتها في النادي الذي كنت أتردد عليه، وكنت على الجانب الآخر تحاججني بخطابات لا تقل فظاعة، وكان الخطاب الذي تلقيته منك في صباح اليوم الذي تركتك تقودني فيه إلى محكمة الشرطة للحصول على أمر القبض على أبيك، من أسوأ الخطابات التي كتبتها طوال حياتك، وكانت من أعظم دواعي الخزي، وبهذا فقدت رأسي بينكما معاً. وهجرني فكري وحل الرعب محله، ولم يلح أمامي أي مهرب ممكن منكما، وهو ما يجب أن أقوله بصراحة، لقد مضيت أترنح معمى البصيرة، كما يفعل

الثور في المذبح. وإنما اقترفت من قبل خطأ سيكولوجيا هائلاً. فقد كنت أحسب دائماً أن الاستسلام لك بالأشياء الصغيرة لا يعني شيئاً، فحينما تأتي اللحظة الكبيرة سيكون بمقدوري أن أُعيد تثبيت قوة إرادتي في أوجها الطبيعي. غير أن الأمر لم يكن كذلك، فحينما حانت اللحظة الكبيرة، رأيت قوة إرادتي تخونني تماماً، والحقيقة أنه لا توجد في الحياة أشياء صغيرة وأخرى كبيرة، فكل الأشياء في الواقع تتساوى في قيمتها وفي جرمها. وكان أن أصبحت عادتي في الاستسلام لك في كل شيء جزءاً حقيقياً من طبيعتي، وباتت تصبغ طبعي بحالة دائمة من الخطر من دون أن أشعر، فالعادات ترجع دائما إلى عدم الاكتراث بالبدايات، وهذا ما أشار إليه «باتر» Pater في ختام الطبعة الأولى من مقالاته، إذ يقول: «إن الفشل يؤدي إلى تكوين العادات»، وحينما قال ذلك ظن الأغبياء من جماعة أكسفورد أن العبارة مجرد عكس مقصود لبعض النصوص المضجرة من كتاب الأخلاق لأرسطو، غير أن هناك حقيقة عجيبة، بل حقيقة مرعبة، تنطوي خلف ما قاله، فقد سمحت لك بأن تقوض قوة إرادتي، فتحقق لي أن تكوين العادة لا يؤدي إلى الفشل وحسب بل إلى الدمار. فقد كنت من الناحية الأخلاقية أشد وأبعد تدميراً لي مما كنت من الناحية الفنية.

وعندما تم الحصول على أمر القبض على والدك أضحت إرادتك توجه كل شيء بطبيعة الحال. ففي الوقت الذي كان يتحتم علي البقاء فيه في لندن للحصول على استشارات حكيمة، والتأمل بتروٍ في واقعة الفخ الفظيع الذي سمحت لنفسي بالوقوع فيه ـ الفخ الخادع كما يسميه والدك إلى اليوم ـ كنت قد أصررت على أن أذهب بك إلى مونت كارلو، من بين كل

الأماكن المتمردة في أرض اللّه، لتستطيع أن تقامر طوال النهار، بل وطوال الليل أيضاً، طالما كان الملهى مشرع الأبواب، أما أنا فلم أكن مفتوناً بهذه الأماكن، فبقيت أنتظرك في الخارج لوحدي، ورفضت أن تلتفت إليَّ ولو لساعة واحدة، لقد كان ذلك هو الحال الذي عملت أنت وأبوك على دفعي إليه، فقد كانت مهمتي محصورة في أن أقوم بدفع حساب الفندق عنك وعن خساراتك. وكانت أقل إشارة إلى المصيبة التي كانت تنتظرني شيئاً مضجراً بنظرك. إذ كان نوع الشمبانيا الذي مدحوه لك أكثر أهمية بنظرك.

وعندما عدنا إلى لندن توسل إليَّ بعض الأصدقاء ممن يكنون لي الخير أن أسافر إلى الخارج. لكي لا أواجه محاكمة مستحيلة. غير أنك عزوت إليهم بدوافع منحطة لتقديمهم مثل تلك النصيحة، كما اتهمتني بالجبن لاستماعي إليها. وهكذا أجبرتني على البقاء لأجمد التهمة إن استطعت بينما أكون في قفص الاتهام، وذلك بأكاذيب تافهة وسخيفة. وكنتيجة طبيعية أُلقي القبض عليَّ، وأصبح والدك بطل الموقف، بل أكثر من ذلك في الواقع، فقد ارتفعت أسرتك إلى معالي الخالدين، وهو ما يدعو إلى العجب؛ فقد استطاع والدك بذلك التأثير المضحك الذي بدا كما لو كان عضواً قوطياً[1] في أحد الحقب التاريخية، والذي جعل من «كليو»[2] آلهة تافهة الذكر بين الملهمات، استطاع أن يضمن لنفسه موقعاً بين الآباء الصالحين أصحاب الفكر الطاهر في آداب مدارس الأحد، وأن يضمن

---

(1) نشأ اسم قوطي مع مثقفي النهضة الإيطالية المعروفين بالإنسانيين وينسب إلى قبائل القوط الجرمانية التي اجتاحت إيطاليا، في القرن الخامس الميلادي. ويعد الإنسانيون فن القرون الوسطى من انتاج القوط الهمج.

(2) كليو: إلهة التاريخ، وتُعد من آلهة الإلهام أو ما يعرف بالميوزات تمثل في الفنون حاملة معها لفافة ورقية مفتوحة، أو جالسة بالقرب من مجموعة من الكتب.

لك منزلة لا تقل عن منزلة الطفل صمويل.أما أنا فقد كان علي أن أجلس في حمأة «مالبولج» بين جبل «سيد ريه» و«مركيز دي ساد».[1]

كان يجب علي بالطبع أن أتخلص منك، كان يجب أن أقذف بك خارج حياتي، كما يقذف المرء شيئاً علق بثوبه، ففي واحدة من أعجب مسرحيات «أخيلوس» يخبر عن ذلك السيد العظيم الذي جلب أسداً إلى منزله، ثم أُغرِم به حينما رآه يقبل عليه بعينين لامعتين، مستجيباً لندائه، ومتذللاً إليه طلباً للطعام، غير أن الشبل بدأ بالنمو وأصبح يعي طبيعة جنسه، فكانت النتيجة أن أطاح بسيده وبمنزله وجميع ما كان فيه. وإنني أشعر الآن بأنني قد كنت كذلك الرجل، غير أن خطئي لم يكن في أنني لم أُفارقك بل في أنني فارقتك غالباً أكثر مما يجب. حيث إنني كنت أنهي صداقتي معك كل ثلاثة شهور بانتظام، وفي كل مرة كنت أنت من يعمد إلى إقناعي بإعادة العلاقة، مستخدماً كل أنواع التوسل والبرقيات والخطابات، ومرسلاً لأصدقاء وسطاء بيني وبينك، وعندما تركت منزلي في تركواي في أواخر مارس 1893، كنت قد عقدت العزم ألا أكلمك مطلقاً مرة ثانية، وأن لا أسمح لك بأن تكون معي تحت تأثير أي ظرف من الظروف، ففي الليلة التي سبقت رحيلك كنت قد اصطنعت مشجارة عنيفة معي، ثم مضيت بإرسال خطابات وبرقيات من برستول طالباً فيها أن أصفح عنك وأن أُقابلك، وكان أستاذك قد أخبرني أنه يعتقد بأنك تكون أحيانا غير مسؤول تماماً عما قلت

(1) كان سيد «ريه» أحد المحاربين مع جان دارك، وقد ضل بعد ذلك واتجه إلى عبادة الشيطان وقتل الأطفال وأُعدِمَ بسبب ذلك، أما «مركيز دي ساد» فهو مؤلف «جوستين» وقصص أخرى تحمل طابع القسوة، وقد حُكِمَ عليه بالإعدام بسبب عدة جرائم بيد أنه أفلت من المشنقة، ليموت بعدها في واحدة من مصحات الأمراض العقلية.

وفعلت، وأن جل من كانوا في كلية ماجدالن يعتقدون ذلك، فقبلت بأن أقابلك، وصفحت عنك بالطبع، وإذ بك في الطريق إلى المدينة ترجوني أن آخذك إلى سافوي، والواقع أنها كانت زيارة شؤم بالنسبة إليَّ.

بعد انقضاء ثلاثة أشهر، وفي يونيو بالتحديد، كنا في جورنج. وجاء بعض أصدقائك في أكسفورد فمكثوا معنا من يوم السبت وحتى الإثنين، وفي صباح اليوم الذي غادروا فيه صعدت من حدة مشاجرة وصل بها العنف إلى أوجها، أخبرتك حينها بأننا يجب أن نفترق. إنني أذكر الموقف جيداً، حينها كنا واقفين على أرضية ملعب الكروكي المستوية، وقد ترامى الملعب من حولنا. وقد مضيت أبين لك بأن كلا منا يفسد حياة الآخر، فقد كنت الدافع الأكيد لخراب حياتي، ولم أكن بدوري قادراً على اسعادك، فكان الفراق الذي لا يُرجى الرجوع منه هو الحل الوحيد، وبعد أن سمعت ذلك رحلت بغضب بعد الغداء، مخلفاً ورائك خطاباً من أقسى ما كتبت، كنت تركته مع الساقي ليسلمه إليَّ بعد رحيلك. وبعد مضي ثلاثة أيام أرسلت إليَّ برقية من لندن، طالبا أن أصفح عنك وأسمح لك بالعودة، فقد كنت قد استأجرت المكان إرضاءً لك، واستعملت خدماً لك بناءً على طلبك، وكنت أشعر بأسى عميق تجاه الطبع المخيف الذي أيقنت بأنك كنت ضحية له، وكنت مغرماً بك. فلم يسعني إلا أن أسمح لك بالعودة وأصفح عنك. وبعد مضي ثلاثة أشهر أخرى، وفي سبتمبر، افتعلت مشاجرات جديدة، كان سببها أنني قد اصطدت عليك أخطاء لا يقع فيها إلا الطالب الصغير وذلك في ترجمتك لمسرحية «سالومي» التي كتبتها. يجب عليك الآن أن تكون قد بلغت في دراستك للفرنسية درجة تجعلك ترى بأن تلك الترجمة لم

تكن جديرة بمستوى الخريج العادي من جامعة أكسفورد، وهذا مالم تكن تعلمه في ذلك الوقت بكل تأكيد. وفي واحدة من الخطابات العنيفة التي كتبتها إليَّ حول هذه المسألة وجدتك تقول إنك لا تخضع «لأي إلزام عقلي من جانبي مهما كان نوعه» وأذكر أنني حينما قرأت هذه الجملة رأيت أنك لم تكتب شيئاً أصدق منها طوال مدة صداقتنا. فقد رأيت أنك لم تكن تمثل إلا أقل مستوى في الثقافة. وأقول ذلك ببساطة، لا بحسرة، تقريراً لحقيقة ما توجبه العلاقة. فغاية رابطة العلاقات، زواجاً كانت أو صداقة، هي المحادثة، ويجب على المحادثة أن تبنى على قاعدة مشتركة، فإذا حدثت بين شخصين على مستوى مختلف من الثقافة بدرجة كبيرة، فإن القاعدة الممكنة ستكون في أدنى مستوايتها. فالأشياء العادية تصبح عند عرض الأفكار والتمثيل أكثر سحراً، وقد جعلت منها أنا حجر عقد الفلسفة المتألقة التي عبرت عنها في رواياتي ومتناقضاتي. غير أن العبثية في حياتنا أصبحت شيئاً مملاً بالنسبة إليَّ، فقد قُدِر لنا إلا نلتقي إلا في الوحل! ومع أن الموضوع الواحد الذي كان يدور حوله حديثك دائما من دون تغيير كان موضوعاً ساحراً، وساحراً بشكل مريع، إلا أنه أصبح مضجراً لي بصورة تامة، وبات حملاً ثقيلاً على نفسي إلى حدٍ مميت، ولكنني قبلته، كما قبلت رغبتك الجامحة في التردد على الذهاب إلى صالات الرقص، أو جنونك المفرط في تناول الطعام والشراب إلى حد بالغ بالسخافة، أو أي جزء من صفاتك التي لم يكن فيها شيء من الجاذبية بالنسبة إلي، قبلت ذلك كله كشيء يجب على المرء أن يتعود عليه ببساطة، وجزء من الثمن الكبير الذي كان يجب عليَّ أن أدفعه لكي أعرفك! وعندما ذهبت إلى «دينار» بعد مغادرة جورنج

لقضاء أسبوعين، فإذا بك تثور عليَّ بعنف لأنني لم أصحبك معي، وقبل رحيلي من هناك بقليل، افتعلت مشاجرة شائنة في فندق مبارل بسبب الموضوع، وأرسلت إليَّ برقيات سيئة في البيت الريفي الذي نزلت فيه لبضعة أيام، وكنت قد أخبرتك فيما أذكر، أنني أرى أن من الواجب أن تعود لقضاء بعض الوقت مع عائلتك، إذ إنك أمضيت الفصل بأكمله بعيداً عنهم، ولكن كان يجب عليَّ أن أكون صريحاً، فالحقيقة أنني لم أعد أستطيع تحمل وجودك بجانبي تحت أي ظرف من الظروف. فقد كنا معا لمدة اثنى عشر أسبوعاً تقريباً، فأصبحت بأمس الحاجة إلى الراحة، بل وإلى التحرر من ذلك الضغط المريع الذي كنت أشعر به في صحبتك. كان من الضروري أن أبقى وحدي لبعض الوقت، فقد كان هذا مهماً بالنسبة لي من الناحية الفكرية، وإنني أعترف لك بأنني قد وجدت فرصة سانحة في ذلك الخطاب الذي اقتبست منه لأنهي تلك الصداقة المشئومة التي حلت بيننا، وأن أنهيها من دون أدنى أسف، كما حاولت أن أفعل ذلك في الصباح المشرق من يونيو حينما كنت في جورنج قبل ثلاثة أشهر. غير أن واحداً من أصدقائي ـ ويجب أن أقول ذلك بشجاعة ـ وهو من ذهبت إليه حينما حزبك الأمر، أبدى لي بأن مشاعرك ستُجرح بل، وربما كنت ستشعر بالمهانة، إذا ما رأيت عملك يرد إليك كما يعاد التمرين للطفل في المدرسة، وأنني قد انتظرت منك ما هو أعلى بكثير من مستواك العقلي، وأنه لا ضير فيما كتبت أو فعلت طالما كنت تشعر بالولاء لي بصورة كاملة. ولم أرد بالطبع أن أكون أول من يصدمك أو يثبط عزيمتك في محاولاتك الأولى في مجال الأدب. وكنت أعلم جيداً أن أي ترجمة، ما لم يكن قد قام بها شاعر متمكن، لا يمكن أن تعيد

اللون والنغم إلى أعمالي في مقياسها المطلوب. وقد بدا لي الولاء، ولا يزال يبدو، شيئاً بديعاً لا يصح أن يُقذف به بخفة هكذا. فكان أن قبلت الترجمة وقبلتك معها، فإذا ما مضت ثلاثة أشهر على وجه الدقة، وبعد سلسلة من المشاحنات، تكللت بواحدة بلغت الثورة فيها أوجها، وذلك عندما جئت في مساء الإثنين إلى سكني وبصحبتك اثنين من أصدقائك، إذا بي أجد نفسي أحلق خارجاً هرباً منك، وذلك بعد أن أبديت لعائلتي بعض الأسباب السخيفة تبريراً لذلك الرحيل المفاجئ، وتركت عنواناً مزيفاً لمحل إقامتي عند الخادم، خوفاً من أن تلحقني بالقطار التالي! إنني أذكر ذلك الصباح جيداً، كنت قد جلست في عربة القطار المسرع إلى باريس أفكر فيما وصلت إليه حياتي من حالة مستحيلة ومريعة بلغ فيها الخطأ أكبر مبالغة، فها أنذا، الرجل الذي ذاع صيته في العالم كله، أرى نفسي وقد أُجبِرت على الهروب من إنجلترا، محاولا التخلص من صداقة دمرت كل شيءٍ جميل في حياتي، وكل ناحية يعول عليها، فكرية كانت أو خلقية! ولم يكن الرجل الذي هربت منه مخلوقا بشعاً برز من المستنقع أو قفز من حمأة ليتسلل إلى الحياة العصرية، فترتبك معه حياتي، بل كان أنت، أنت نفسك، الشاب الذي كان في مستواي الاجتماعي نفسه ومركزي عينه، والذي ارتاد الكلية عينها التي تخرجت منها، والذي طالما حل ضيفاً بمنزلي! وكما هي العادة، توالت برقيات التوسل والاعتذار، فتجاهلتها. وإذا بك تهدد في النهاية بأنك لن توافق على الذهاب إلى مصر مهما كانت الظروف مالم أنزل عند رغبتك بلقائي. وكنت أنا من قام، تحت علمك وموافقك، برجاء والدتك لترسل بك إلى مصر بعيداً عن إنجلتزا.حيث كنت تدمر حياتك في لندن. ولأنني علمت

أن عدم ذهابك سيكون فيه خيبة أمل كبيرة لها. لهذا السبب فقط، رضيت بأن أقابلك، وتحت تأثير من انفعالاتك المحتدمة، التي لا تستطيع أنت نفسك أن تنساها، رأيت نفسي أصفح عن الماضي، غير متحدث بأي كلمة عن المستقبل.

وحينما عدت إلى لندن في اليوم التالي، أذكر أنني جلست في غرفتي أفكر بجدية وحزن، محاولاً أن أقرر ما إذا كانت حقيقتك كما رأيتك: ممتلئا بالتناقضات الفظيعة، مفسدا لنفسك وللآخرين، شؤما على من عرفك، أو حتى من حاول الاقتراب منك! وقد قضيت أسبوعاً كاملاً في دوامة التفكير تلك، ثم عدت بعد ذلك اسأل ما إن كنت قد ظلمتك في تصوري. في نهاية ذلك الأسبوع تلقيت خطاباً من والدتك، وإذا بما جاء فيه يؤكد ما تصورته عنك بصورة تامة. وقد تحدثت والدتك عن غرورك الأعمى الذي لا يقف عند أي حد، والذي جعلك تحتقر أهلك وتعامل أخاك الأكبر (كما لو كان منحطاً)؛ كما تكلمت عن طبعك الذي جعلها تتحاشى أن تسألك عن حياتك، تلك التي كانت تشعر، بل وتجزم بأنك كنت تحياها وعن سلوكك فيما يتعلق بالشؤون المالية، وهو ما أورثها الهم بأسباب عديدة، وعما اعتراك من انحطاط وتغير يزداد سوءاً مع الأيام. وقد رأت ـ بالطبع ـ أنك ورثت أفظع صفات آبائك، وقد سلمت بذلك بصراحة، بل سلمت به بقلق، إذ قالت: «إنه الوحيد من أبنائي الذي ورث ذلك المزاج المشئوم لآل دوجلاس». ثم ذكرت في النهاية أنها لا تملك إلا أن تصرح بأن صداقتك معي، في رأيها، قد ضاعفت من غرورك إلى حد جعلها مبعث لجميع أخطائك. ولذلك قامت ترجوني بحرارة ألا أقابلك في الخارج. فكتبت إليها في الحال بأنني أوفق تماما على كل كلمة جاءت

في خطابها، بل إنني ذهبت إلى أبعد من ذلك بقدر ما استطعت، فأخبرتها أن سبب صداقتنا كان يرجع في الأساس إلى ترددك عليَّ أيام دراستك في أكسفورد، حيث كنت تطلب مساعدتي في كل اضطراب جاد صادفك مما يرجع إلى طبعك الغريب. ثم أخبرتها بأن حياتك لا تزال تسير على الأسلوب المضطرب نفسه. وكنت قد عزوت سبب ذهابك إلى بلجيكا إلى خطأ من رفيقك في تلك الرحلة، وقد عادت والدتك علي باللوم لأنني من كنت قد قدمتك إلى ذلك الصديق. كان يجب علي وقتها أن أبين لها أن المخطئ لم يكن رفيقك بل أنت. ثم أكدت لها في نهاية الخطاب أنني لا أفكر مطلقا في مقابلتك في الخارج، بل ورجوتها أن تحاول إبقاءك هناك، لمدة سنتين أو ثلاث على الأقل، إما كملحق شرف، إذا تسنى ذلك، أو لتتعلم اللغات الحديثة، أو بأي سبب آخر تراه مناسباً، لما في بقائك بعيدا من خير عليك وعليَّ.

وكنت أتلقى منك في الوقت ذاته، مكاتبات في كل بريد جاء من مصر، فلا أُلقي لها بالاً، بل كنت أمزقها بمجرد النظر إليها؛ إذ كنت قد عزمت بشكل صارم على ألا يعود هناك شيء بيننا. ولقد شعرت بسرور لاتخاذ ذلك القرار، إذ أصبح بمقدوري أخيراً أن أُكرس نفسي للفن، بعد أن سمحت لك بأن تعترض نجاحي فيه. وإنما حدث بعد ثلاثة أشهر أن عادت والدتك لتكتب لي مدفوعة بضعف إرادتها المحزن الذي هو من خصائلها، ذلك الذي كان في مأساة حياتي عنصراً لا يقل شؤما عن قسوة والدك. ولم يكن لديَّ شك في أنها قد فعلت ذلك بتحريض مباشر منك. كتبت تخبرني بأنك في أشد حالات القلق بسبب عدم كتابتي إليك. ورأت أنه لا يوجد لدي عذر في ذلك، فأرسلت إليَّ عنوانك في أثينا، وكنت

بالطبع على علم بهذا العنوان. والواقع أنني شعرت بصدمة شديدة حينما اطلعت على خطابها. وإلا فكيف عادت، بعد كل ذلك الذي كتبت به إليَّ في ديسمبر، وما رددت به عليها وقتها، فتفكر، مهما كانت الأحوال، في القيام بمثل هذه المحاولة لإصلاح صداقتي المشئومة معك، أو إرجاعها من جديد؟ وبالطبع قمت بالرد على خطابها، غير أنني عدت أحثها على السعي لجعلك تتصل بأي سفارة في الخارج، وذلك لكي لا يتاح لك العودة إلى إنجلترا. ولكنني لم أكتب إليك، بل وأصبحت لا أكترث لرسائلك بشكل أكبر مما كان قبل أن تكتب إليَّ والدتك. وبالنهاية، لم يسعك إلا أن تبرق إلى زوجتي، راجيا منها أن تستعمل نفوذها لحملي على أن أكتب إليك. ومع أن صداقتنا كانت دائماً مبعث ألمٍ لها، لا لأنها لم تشعر قط بميلٍ إليك شخصياً وحسب، بل أيضاً لأنها رأت كيف غيرتني صحبتك المستمرة، وهو تغير لم يكن إلى الأفضل، إلا أنها مع ذلك، قد كانت معك دائماً بأحسن ما تكون من اللطف والكرم، لم تحتمل أن تراني قاسياً مع أصدقائي بأي صورة ـ هكذا كان تصورها ـ فقد رأت، بل وعلمت، أن هذا بعيد جدا عن خلقي. وهكذا لم يسعني إلا أن أكتب إليك ثانية بناء على رجائها، وإني أذكر جيدا ما تضمنته برقيتي، فقد قلت إن الزمنَ كفيلٌ بشفاء كل جرحٍ، ولكنني لن أكتب إليك ولن ألتقي بك لعدة شهور مقبلة. فذهبت إلى باريس على الفور، وأرسلت إليَّ في طريقك برقيات حارة طالباً أن أراك ولو لمرة بأي حال من الأحوال، فرفضت. وكنت قد وصلت إلى باريس في وقت متأخر من مساء السبت لتجد خطاباً قصيراً مني في الفندق الذي حللت فيه، ذكرت فيه أنني لن أراك، غير أنني تلقيت منك برقية في صباح اليوم

التالي في شارع تايت، بلغ عدد صفحاتها عشر صفحات أو إحدى عشرة صفحة، وقد جاء فيها أنه بغض النظر عما بدر منك فإنك لم تكن تتوقع أنني سأمتنع بتاتاً عن رؤيتك، مع أنك تكبدت عناء السفر عبر أوروبا ستة أيام بلياليها بغير توقف لكي تراني ولو لمدة ساعة، إن هذه العبارة مست عاطفتي بصورة شديدة، ولم تكتف بذلك، بل ختمت خطابك بما بدا لي أنه تهديد سافر بالانتحار، لا سيما وقد أخبرتني مسبقاً بأن كثيراً من بني جلدتك قد لطخوا أيديهم بدمائهم، منهم عمك، وجدك، وغيرهما من بني السلالة المجنونة السيئة التي انحدرت منها، ومع أنني لم أكن لأحيد عن موقفي، غير أن شفقتي عليك، ومحبتي القديمة لك، وتخيلي لحال والدتك عندما تعلم بموتك في مثل تلك الظروف المريعة، وما سينتج عنه من صدمة لا تقوى على احتمالها، والفكرة المفزعة، وهي أن حياة فتية كحياتك لا تزال تبشر بالخير، على الرغم مما فيها من أخطاء ستنتهي على هذه الشاكلة المتمردة، ثم الاعتبار الإنساني بكامل ما يقتضيه، كل هذه الأسباب أجبرتني على أن ألتمس لنفسي العذر ـ إن كان هناك حاجة إلى أعذار ـ في أن أسمح لك بمقابلتي للمرة الأخيرة. وحينما وصلت إلى باريس رأيت دموعك تسيل وتسيل طوال الليل لتتساقط على خديك مثل قطرات المطر، وكنا وقتها جالسين في مطعم فوازان لتناول الغداء، ثم انتقلنا إلى مطعم بيار لتناول العشاء. وكان الفرح الصادق الذي برق في عينيك عندما وقع نظرك عليَّ، وتلهفك على توسد يدي كلما استطعت كما لو كنت طفلا وديعاً نادماً، وذلك الانكسار الذي بدا منك حينها في بساطة وإخلاص عميق، كان ذلك كله كافياً لأوافق ثانية على تجديد صداقتنا، وبعد يومين من عودتنا إلى لندن، رآك والدك بينما كنت

تتناول معي طعام الغداء في مقهى «رويال»، وتشاركنا المائدة وتتناول من شرابي. وفي ذلك المساء بدأ حملته الأولى عليَّ بعد أن أرسل خطاباً موجهاً إليك.

قد يبدو غريباً أن أقول بأن فرصة الانفصال عنك كانت متاحة لي وقتها، بل وكان هذا ما يفرضه الواجب، ولست بحاجة إلى تذكيرك بأنني أشير هنا إلى سلوكك معي في برايتون من 10 إلى 13 من شهر أكتوبر عام 1864، إن استحضار ما حدث قبل ثلاث سنوات ليس بالسهل على شخص مثلك، غير أنه ليس كذلك بالنسبة إلينا، نحن الذين نعيش في السجون، وليس لنا في حياتنا غير الحزن. فنحن نقيس الزمن بنبضات من العذاب، ونؤرخه بسجل حافل باللحظات المريرة. وليس لدينا شيء آخر نقضي وقتنا بالتفكير فيه، فالتألم ـ وهو ما قد يبدو لك غريباً ـ هو وسيلة البقاء بالنسبة إلى حياتنا، إذ إنه الوسيلة الوحيدة التي تشعرنا بوجودنا، كما أن تذكر آلامنا الماضية ضروري جدا، فهو الضمان لوجودنا والدليل على استمرارنا في الحياة. إن بيني وبين ذكريات السرور محيطاً لا يقل عمقا عما بيني وبين واقعي الحالي. ولو كانت حياتنا هذه كما يتخيلها الناس: سهلة، يملؤها الإسراف وتغمرها الضحكات والمسرات، ما كنت لأذكر عبارة واحدة. ولكن لأنها كانت تمتلئ بلحظات مؤلمة، وأيام مريرة ومظلمة، وقاسية في ثقلها، فإنني أستطيع أن أرى وقائع كل حادثة بحذافيرها وأسمع تفاصيلها الدقيقة. كلا، فالحقيقة أنني لا أرى من تفاصيل الأشياء الأخرى ولا أسمع من وجودها إلا القليل. فالناس في هذا المكان يعيشون في عذاب شديد، وهو ما جعلني مجبراً على استرجاع ذكرى صداقتي معك بهذه الطريقة، فهي تبدو لي دائما كأنما هي لحن متوافق مع تلك الأساليب المتغيرة من

العذاب التي يجب علي أن أخوضها كل يوم، بل التي يجب أن أجعلها غير قابلة للاستغناء، كما لو كانت حياتي لحن حقيقي من الأحزان، يمر في حلقاته الموزونة النغم إلى قراره المؤكد، مع تلك الحتمية التي تميز معالجة كل موضوع عظيم في الفن.

لقد أشرت إلى سلوكك معي في ثلاثة أيام متعاقبة قبل ثلاث سنوات. كنت منفردا في ورثنج، أحاول تكملة روايتي الأخيرة، وذلك بعد أن انقضت زياراتك لي. وإذا بك تظهر فجأة مرة أخرى ومعك رفيق ترغب في أن يحل ضيفاً في منزلي، فرفضت ذلك بتاتا (ويجب أن تعترف الآن بأنني كنت مصيباً)، غير أنني استضفتكما بالطبع، ولم يكن لديَّ خيارٌ آخر، فقد كان يمكن أن يكون صديقك في أي مكان إلا في مسكني الخاص. وفي اليوم التالي، أي يوم الإثنين، عاد رفيقك إلى عمله وبقيت أنت معي. وكنت تشعر بالضيق في ورثنج، وأكثر من ذلك ـ وهو ما لا أشك فيه ـ من مجهودات تراءت لك غير مثمرة، وهي تركيز انتباهي في المسرحية التي كنت أكتبها، وكان ذلك في الواقع الشيء الوحيد الذي يهمني في ذلك الوقت، فقد أصررت على أن أمضي بك إلى فندق جران في برايتون، وفي الليلة التي وصلنا فيها، طرحك المرض بسبب تلك الحمى الخسيسة التي يسمونها ببلاهة بالإنفلونزا، وكانت المرة الثانية، إن لم تكن الثالثة التي تصاب فيها بذلك المرض. ولست بحاجة إلى تذكيرك، كيف خدمتك وقتها، ومقدار العناية التي بذلتها من أجلك، ولم يكن ما بذلته قاصراً على شتى ألوان الترف، من فاكهة وزهور وهدايا وكتب، إلى غير ذلك من كل ما يشترى بالمال، بل شمل أيضا عظيم عطفي وحناني وحبي لك، وكل ما يخطر ببالك مما لا يمكن شراؤه مقابل المال. وباستثناء ساعة كنت أقضيها

مشيا في الصباح، وأخرى كنت أقضيها ممتطيا الخيل عند حلول الأصيل، فإنني ما عدا ذلك لم أكن أغادر الفندق مطلقاً. وقد بلغ من اهتمامي بك أن أرسلت بطلب نوع خاص من العنب من لندن حينما عافت نفسك ما قدم إليك من أطعمة في الفندق، وكنت أستحدث أشياء لإدخال السرور على نفسك، وقد بقيت طوال الوقت إما بجانبك أو في الغرفة المجاورة. وكنت أجلس معك كل ليلة لأقوم بتسليتك والتهديء من روعك. فتماثلت للشفاء بعد أربعة أيام أو خمسة. واستأجرت مكانا لأستطيع إتمام مسرحيتي، وكنت ترافقني بطبيعة الحال. وفي مساء اليوم الذي انتقلنا فيه، آلمني مرض شديد، فذهبت إلى لندن في مهمة عاجلة، واعداً بأن تعود بعد الظهر. ولكنك قابلت هناك صديقاً لك، فلم تعد إلا في اليوم التالي متأخراً، وكنت أعاني في ذلك الوقت من حمى مريعة، اكتشف الطبيب أن عدواها انتقلت لي منك. ولم يكن هناك ما هو أسوأ من المسكن الذي حللت به بالنسبة إلى رجل مريض. فقد كانت غرفة الجلوس في الطابق الأول بينما كانت غرفة النوم في الطابق الثالث. ولم يكن هناك خادم يعتني بي، ولا واحدا يمكن إرساله لقضاء حوائجي، أو حتى لإحضار ما نصح به الطبيب. ولكنك كنت هناك، ولذلك لم يكن ثمة ما يدعو إلى القلق. غير أنك تركتني في اليومين التاليين وحدي تمامًا، بغير اهتمام، وبغير رعاية، وبغير أدنى شيء. ولم تكن مسألة أعناب، أو أزهار أو هدايا ساحرة، بل كانت مسألة ضروريات فقط. فقد تعذر عليَّ الحصول حتى على اللبن الذي أمر به الطبيب، أما عصير الليمون فقد كان من المستحيلات. وحينما رجوتك أن تشتري لي كتاباً من المكتبة، أو تختار واحداً إذا تعذر وجود ما أبتغيه، لم تكلف نفسك عناء الذهاب إلى المكان، فإذا ما قمت بالتلميح إليك بأنني

تركت طوال اليوم بغير أن أجد شيئاً أقرأه، رددت علي ببرود بأنك قمت بشراء الكتاب ووكلت المكتبة بمهمة إرساله، وهو قول مختلق من أساسه كما اكتشفت مصادفة فيما بعد، وكنت تعيش طوال الوقت على حسابي، فتركب إلى هنا وهناك، وتتغدى في فندق جران ولا تطرق باب غرفتي في الواقع إلا لطلب النقود. وفي مساء السبت تركتني تماماً بغير رعاية، وحيداً منذ الصباح. فطلبت منك بأن تعود بعد الغداء لتجلس معي قليلاً، فرددت بصوت حاد وأسلوب فج بأنك ستفعل. وانتظرتك حتى الساعة الحادية عشر غير أنك لم تحضر مطلقاً، فتركت لك مذكرة في غرفتك لم أزد فيها عن الإشارة إلى وعدك، وكيف وفيت به! وفي الثالثة صباحاً، عانيت من عدم مقدرتي على النوم، وكنت أتعذب من العطش، فمضيت أتلمس طريقي في الظلام والبرد، فهبطت إلى غرفة الجلوس، آملا أن أعثر على شيء من الماء. فإذا بي أجدك هناك، وإذا بك تنهال عليَّ بأقبح ما يمكن أن يصدر من طبيعة جاهلة وفاجرة من كلمات، وأحط ما تستعمله من أساليب. فقد جعلك الزيف الذي أشاعه فيك غرورك بنفسك أن تصب عليَّ جام غضبك بدلاً من أن يؤنبك ضميرك. فقد اتهمتني بالأنانية لأنني توقعت منك أن تكون بجانبي في حالة مرضي، وبأنني أحول بينك وبين وسائل لهوك، وأحاول أن أحرمك من مسراتك. وقد أخبرتني ـ وهو ما علمت أنه صحيح ـ أن لم تعد في منتصف الليل إلا لتغيير ملابسك، لتخرج مرة أخرى في طلب مسرات جديدة. ولأنني تركت لك خطاباً ذكرتك فيه بأنك قد أهملتني طوال الليل والنهار، فإنني كنت بذلك قد سلبت منك رغبتك بطلب المزيد من الاستمتاع وقللت من طاقتك لتذوق أصناف جديدة من المسرات! فلم يسعني بعد سماع ذلك إلا أن أعود أدراجي وأصعد إلى

غرفتي وقد انتابني الاشمئزاز، ولبثت أتقلب على فراشي مؤرقاً حتى طلوع الفجر، وحتى وقت طويل بعد ذلك لم أستطع الحصول على شيء أطفئ به ذلك العطش الذي كانت الحمى تزيد من شدته. ولقد جئت إلى غرفتي في الحادية عشرة، وكنت في المشاجرة السابقة قد لاحظت ـ مهما كان الأمر ـ أنني بذلك الخطاب الذي تكرته قد وقفت في طريقك في ليلة زاد فيها الإفراط عن الحد العادي، أما في الصباح رأيتك في حالة طبيعية، فانتظرت بطبيعة الحال أن أسمع ما قد تبديه من أعذار، وأن أرى أي طريق سوف تتخذه لطلب الصفح، بعد أن علمت في قرارة نفسك أنني كنت دائماً في انتظار لطلبك، مهما كان صنيعك، والواقع أن ثقتك التامة بأنني سأصفح دائما عنك، كانت الشيء الذي طالما أحببته فيك، بل ربما كانت أحسن ما يُحَب فيك! ولكن بدلاً من أن تفعل ذلك، أخذت تعيد المشاجرة ذاتها بأسلوب آخر أشد عُنفاً. فلم يسعني إلا أن أطلب منك أن تغادر الغرفة. وتظاهرت بأنك تفعل. غير أنني حينما رفعت رأسي عن الوسادة رأيتك لا تزال واقفاً. وفي ضحك هستيري وطيش بربري إذا بك تتقدم فجأة نحوي. فشعرت بالهلع، إذ لم يكن هناك سبب واضح، وقفزت من فراشي في الحال، ثم أسرعت حافي القدمين، وفي الحالة التي كنت فيها، متخذا طريقي عبر الدرج إلى أسفل حيث وصلت إلى غرفة الجلوس. ولم أقم بمغادرتها إلى أن جاء مالك البيت ـ وقد قرعت في استدعائه ـ فأكد لي أنك قد تركت غرفة نومي، ثم تعهد بأن يكون مستجيباً لندائي إذا تطلب الأمر. وبعد مضي ساعة حضر الطبيب إلى مسكني، ووجدني في حالة أشد من الحمي عما كانت في البدء، ثم عدت صامتاً، لمجرد الحصول على النقود! ثم مضيت تجمع ما وجدته على مائدة الزينة وفوق خزانة الملابس، لتترك

المنزل حاملاً حقائبك. هل يتطلب الأمر أن أخبرك عن تصوري لك أثناء اليومين المشئومين اللذين قضيتهما بعد ذلك وحيدا أعاني من المرض؟ هل من الضروري أن أذكر أنني رأيت وقتها بوضوح أنه سيكون من العار عليَّ أن أستمر على علاقتي بشخص مثلك، حتى لو اقتصر الأمر على مجرد المعرفة، بعد أن أظهرت نفسك على حقيقتها؟ وبعد أن أدركت أن اللحظة المنتظرة قد جاءت وأن في مجيئها فرجاً عظيماً؟ وأنني علمت أن فني وحياتي سيتاح لهما في المستقبل الآتي حرية أكثر وتوجها أفضل وأعظم جمالاً في كل الطرق الممكنة؟ ومع أنني كنت مريضاً إلا أنني شعرت براحة، فقد رأيت أن انفصالنا لا رجعة فيه هذه المرة، وهو ما جعلني أشعر بالاطمئنان. وفي يوم الثلاثاء شفيت من الحمى، وللمرة الأولى استطعت أن أتناول غدائي في الطابق الأسفل. وكان الأربعاء يوم ذكرى ميلادي، ومن بين جميع البرقيات والخطابات التي رأيتها على المائدة يومها، كان هناك خطاب مكتوب بخط يدك، فشققت عنه في إحساس بالغ من الحزن، فقد كنت أعلم أن الوقت قد فات ليكون للجملة اللطيفة أو عبارة المودة أو كلمة الأسى تأثيرها في حملي على استعادة علاقتي بك. غير أنني كنت مخدوعاً تماماً، والواقع أنني كنت مستهينا بك بذلك التقدير. فقد كان الخطاب الذي أرسلته بمناسبة ذكرى ميلادي إعادة متعمدة للمشاجرتين السابقتين، قمت بتفريغها على الورق في مهارة بالغة الخبث. فقد مضيت تسخر مني بنكات سوقية، وكان الشيء الوحيد الذي شفى غليلك كما ذكرت، أنك رجعت إلى فندق جران وأدخلت ثمن غذائك في حسابي قبل أن تعود إلى المدينة. وقد هنأتني على حصافتي بمغادرة فراشي وهروبي إلى الأسفل، وقد قلت «لقد كانت لحظة سيئة بالنسبة إليك... أسوأ بكثير

مما تتصور!» آه! لقد شعرت بذلك فعلاً، ولكن أكثر من أن يكون شعوراً بالخير. ماذا كان يعني الأمر حقيقة؟ أكنت حينها تحمل تلك البندقية التي ابتعتها لتخيف بها والدك، وأطلقتها يوما في أحد المطاعم العامة، وأحسبها كانت تخلو من الرصاص في الأوقات التي كنت تحملها بصحبتي، أو أن يدك كانت تتجه نحو سكين عادي وضع فوق المائدة التي تفصل بيننا، أو أنك قد نسيت في غضبك ما أنت عليه من ضعف بدني، ففكرت بالهجوم أو بالاعتداء عليَّ، بينما كنت أمامك طريح الفراش وخائر القوى بسبب مرضي! لا أستطيع أن أجزم ماذا كان الأمر، ولست أعلم حتى هذه اللحظة. كل ما أعلمه أن شعوراً من الرعب الشديد قد استولى عليّ، وأنك كنت مقبلاً على أمرٍ سيبقى باعثاً للخزي طول الحياة، مالم أُغادر تلك الغرفة يومها، ولم يحدث طوال حياتي أن شعرت بمثل هذا الخوف من إنسان إلا مرة واحدة. وكان ذلك في مكتبتي بشارع تايت، وذلك حينما مضى والدك يلوح بيديه القصيرتين في الهواء في حركة هستيرية بينما وقف بيني وبين عفريته، أو صديقه، مندفعاً بإخراج كل كلمة خطرت بتفكيره القذر، ويصرخ بتلك التهديدات الكريهة التي استطاع بخبثه أن يقوم بتنفيذها فيما بعد، وفي تلك الحالة كان يجب عليه ـ بالطبع ـ أن يترك المكان، وقد دفعته إلى الخارج. أما في حالتك فقد كان أنا من يتوجب عليه الذهاب، ولم تكن تلك المرة الأولى التي اضطررت فيها إلى إنقاذك من نفسك.

ثم ختمت خطابك بقولك: «حينما لا تكون واقفاً على قدميك، لا يكون فيك ما يثيرني، وإذا حدث مرة أخرى أن وقعت مريضاً فإنني سأهجرك في الحال!» ياه! أيّ خشونة في تكوينك يكشف عنها هذا القول، اي فقر في المخيلة! اي تحجر! بل أي انحدار سوقي نزل إليه طبعك في ذلك الوقت!

(حينما لا تكون واقفاً على قدميك، لا يكون فيك ما يثيرني، وإذا حدث مرة أخرى أن وقعت مريضا فإنني سأهجرك في الحال!) كم عاودتني هذه الكلمات في انفرادي البائس في زنزانتي بمختلف السجون التي أُرسِلتُ إليها! لقد مضيت أعيدها على نفسي، ورأيت فيها ـ وهو ما أرجو أن لا يكون صحيحاً ـ شيئاً من سر صمتك الغريب، ومع أن مرضي قد حدث بسبب قيامي بتمريضك، إلا أن قولك هذا، يُعَد من أكثر الأشياء التي تشمئز منها النفوس، لما فيه من قسوة، وعنجهية، ولكنها لو صدرت من إنسان إلى آخر في العالم كله، فإنها تُعد جريمة لا يرتجى غفرانها، إن كان هناك جريمة لا تُغتفر.

الواقع أنني بعد قراءة خطابك شعرت بأنني تدنست، كأنما كانت رفقتي لك بالطبيعة التي كنت عليها قد لطخت بقية حياتي بعارٍ أبدي، وهو ما حدث فعلاً. ولكنني لم أفطن إلى حقيقة الأمر إلا بعد ستة شهور كاملة. ولقد قررت العودة إلى لندن يوم الجمعة، وذلك لمقابلة سير جورج لويس شخصياً، لكي أرجوه أن يكتب إلى والدك بأنني عزمت ـ مهما كانت الظروف ـ على ألا أسمح لك قط بأن تدخل منزلي، أو تجلس على مائدتي، أو تتحدث معي، أو ترافقني، أو تكون في صحبتي بأي مكان أو في أي وقت. ورأيت أن أكتب إليك بعد ذلك لمجرد أن أحيطك علماً بالأمر، تاركاً لك اكتشاف الأسباب. وفي مساء الخميس كنت رتبت كل شيء. فإذا كان صباح الجمعة جلست أتناول إفطاري قبل الرحيل، والتفت إلى الصحيفة الملقاة فوق المائدة، فإذا بي أطالع برقية جاء فيها أن أخاك الأكبر، رب العائلة الحقيقي، ووريث اللقب، وعماد البيت، قد وجِد مقتولاً في خندق، وبجواره بندقية أطلقت حديثا. وقد انتابني الهول لهذه المأساة وإن كانت تعد بحكم الحادثة، إلا أنها لن تلبث أن تتلطخ بتفسيرات شديدة السواد، ومن الشفقة لموت إنسان قد

أحبه كل من عرفه، وموته فجأة هكذا، بل وفي ليلة زواجه، ومن تصوري ما ستكون عليه من حزن، أو ما يجب أن تكون عليه! وإدراكي ما ينتظر والدتك من حزن صعيب لفقد من كانت تتعلق به دائماً التماسا للراحة والبهجة، بل ومن لم يحدث منه قط من أن ولد ما جعلها تذرف دمعة واحدة، كما أخبرتني بنفسها، ومن تيقظي لما ستشعر به من وحدة، ولا سيما أن أخوتك الآخرين كانوا خارج أوروبا، وهو ما يجعل آمال والدتك وشقيقتك تتجه نحوك، لا لمشاطرتهما أحزانهما وحسب، بل أيضا لتحمل ما تتطلبه ظروف الوفاة من مسؤوليات ثقيلة ذات تفاصيل مربكة، ومن مجرد الشعور بتلك الدموع التي صنعت هذا العالم والأحزان التي تملأ قلوب الناس جميعاً ـ كان من كل هذه الأفكار والانفعالات التي تزاحمت في نفسي مما جعلني أشعر بشفقة لا حد لها عليك وعلى أسرتك. وقد نسيت ما كنت أشعر به نحوك من ألم ومرارة. ولم أستطع أن أكون معك في مصابك كما كنت معي في مرضي، فأبرقت إليك في الحال معرباً عن تعاطفي العميق، وطلبت إليك في خطاب آخر أن تسرع إلي بقدر ما يسمح ظرفك. فقد شعرت بأنني إذا هجرتك في تلك اللحظة فإن ذلك سيزيد من وطأ المأساة عليك، فما بالك إذا جاءك نذير الهجر بصورة رسمية، على يد محام!

وعند عودتك من مشهد المأساة جئت إليَّ بأسلوب غاية في اللطف والبساطة. وكنت مرتدياً ثوب الحداد، وكانت آثار الدموع لا تزال واضحة في عينيك. وقد جئت كالطفل، تلتمس المساعدة والعزاء. فلم يسعني إلا أن أفتح لك منزلي، بل وقلبي، وأن أشاطرك أحزانك لأخفف عنك بعضاً منها، ولم يحدث أن أشرت بكلمة إلى سلوكك السابق معي، ولا إلى تلك المشاجرات الثائرة، أو إلى الخطاب الذي أظهرت فيه التمرد، بل أن ألمك

الذي كان حقيقيا، بدا كأنما هو وسيلة لتقريبك مني أكثر مما كنت، ولم تكن الزهور التي أخذتها مني لوضعها على قبر أخيك رمزاً للجمال الذي كان في حياته وحسب، بل كانت ترمز أيضا إلى ما في كل نفس من جمال متوارٍ عن الأنظار، يمكن للنور أن يكشف ما فيه من سحر.

إن أمر الآلهة لغريب، فهي لا تكتفي بأن تصنع من رذائلنا وسائل للتنكيل بنا، بل تدفع بنا إلى الهلاك بفعل ما هو فينا من خير ورقة وإنسانية ومحبة! غير أنني أشعر برحمة ومودة لك ولأهلك، ولذلك لن أبكي الآن في هذا المكان المريع.

إنني على يقين بما كان في مراحل علاقتنا من أثر لا للمتوقع منها وحسب، بل وللمحتوم أيضا، المحتوم الذي يمشي بسرعة دائماً، لأنه يتجه إلى إراقة الدماء! فقد انحدرت عن طريق والدك من سلالة كانت الصلة بها مرعبة إذا حدثت عن طريق الزواج، ومنحوسة إذا حدثت عن طريق الصداقة. وفي كلتي الحالتين كانت تطوق بيدين قاسيتين إما على حياة الشخص نفسه أو على حياة الآخرين. ففي كل ظرف تافه تلاقت في طرق حياتنا، وفي كل نقطة عظيمة أو عديمة الأهمية في ظاهر اتجاهك نحوي متطلعاً إلى المسرات أو المساعدة، وفي كل المناسبات الصغيرة والحوادث البسيطة التي كانت تبدو متصلة بالحياة كذرات الهواء المتراقصة تحت أشعة الشمس، أو تلك الأوراق التي ترفرف فوق الأشجار ـ في كل حالة من الحالات تلك، كان الخراب يلحق حياتي دائما، كذلك الصدى الذي يتردد إثر صيحة منكرة، أو ذلك الظل الذي يلحق وحشاً مفترساً. إن صداقتنا بدأت في الواقع برجاء منك وجه إلي في خطاب عاطفي ساحر لمساعدتك في موقف كان مرعباً

لأي شخص، ومرعباً بصورة أشد وطئاً على طالب في أكسفورد، ومع ذلك فقد أقدمت على مساعدتك. غير أنني، بعد أن استعملت اسمي بوصفي صديقاً لك، لك مع السيد جورج لويس، بدأت أفقد احترام ذلك الرجل وصداقته، وهي صداقة استمرت على مدى خمسة عشر عاماً، وحينما حرمت من نصحه ومساعدته وتقديره أصبحت محروماً من الوسيلة العظيمة لحماية حياتي. وأرسلت إليّ قصيدة بديعة من شعر مدرسة الطلاب الجامعيين، متطلعاً إلى استحساني. فأرد عليك بخطاب من التصورات الأدبية الخيالية [1] لا أتمالك فيه أن أضعك في مرتبة هيلاس أو هياسنث أو جونكيل أو نارسيس أو أي واحدٍ ممن كانوا من المفضلين لدى إله الشعر وشرفهم بحبه. وكان الخطاب كفقرة من إحدى قصائد شكسبير تحولت إلى تركيب أقل تعقيداً. ولم يكن من السهل فهمه إلا على أولئك الذين قرأوا مقالة أفلاطون، أو من استطاعوا أن يدركوا روح قطعة ثقيلة أصبحت جميلة بالنسبة إلينا بعد وضعها في مرمر إغريقي. لقد كان، وأقول لك هذا بصراحة، خطابا من

---

(1) إلى لورد ألفرد دوجلاس (يناير 1893)

غلامي العزيز:

إن قصيدتك جميلة جدا، وإنها لحقا لأعجوبة أن تسخر شفاهك الحمراء كأوراق الورد من أجل موسيقى الأغاني، أكثر من تسخيرها في جنون القبلات! إن روحك الذهبية الرقيقة تخطر بين العاطفة والشعر؛ وإني أعلم أن «هياسينثوس»، ذلك الذي أحبه «أبوللو» بجنون، لم يكن إلا أنت نفسك في زمن الإغريق.

لم أنت وحيد في لندن، ومتى ستذهب إلى «سالزبوري»؟ اذهب إلى هناك لتبرد يداك في الغسق الأشهب من الأشياء القوطية، ثم تعال إلى هنا وقتما تحب. إنه مكان جميل إنما هو ينقصك فقط. ولكن يجب أن تذهب إلى سالزبوري أولا.

المحب لك دائما..

أوسكار وايلد

ذلك النوع الذي قد أكتبه في بعض اللحظات السعيدة التي تنتابني، وفي حال كانت الرغبة حاضرة، وأوجهه إلى أي شاب جامعي قام بإرسال قصيدة من نظمه إلي، مع حرصي على التأكد من مدى مقدرته العقلية والثقافية لإدراك ما فيه من معاني خيالية. انظر إلى تاريخ ذلك الخطاب! لقد انتقل من يدك إلى يد زميل قذر، ومنه إلى عصابة ممن يهددون بالتشهير بقصد ابتزازي، فكان أن أرسلت منه نسخاً في مختلف نواحي لندن، إلى أصدقائي، بل وإلى مدير المسرح الذي كانت تعرض عليه رواياتي، وقد حول فيه الإنشاء إلى كل معنى غير الذي كنت أرمي إليه! ولما كان المجتمع مهووساً بالشائعات السخيفة فقد اضطررت إلى دفع مبلغٍ طائلٍ من المال لأنني كتبت إليك خطاباً شائناً! هذا الخطاب يمثل القاعدة الأساسية التي بنى عليها والدك أسوأ هجوم عليَّ، ولقد قدمت النسخة الأصلية من الخطاب في المحكمة للكشف عن حقيقة الخطاب الذي نسب إليَّ، فأعلن محامي والدك أنها محاولة ثائرة خبيثة لإفساد الطبيعة البريئة. وأخيراً أصبح الخطاب جزءاً من التهمة الجنائية التي وجهت إليَّ، فقد وضعه التاج[1] في اعتباره، كما وضعه القاضي أساساً لتقديره الذي بناه على قدر قليل من المعرفة وكثير من التأويل الأدبي، وهكذا ذهبت في النهاية إلى السجن بسببه. وكانت هذه هي نتيجة كتابة خطاب ساحر إليك!

---

(1) تعد محكمة التاج في إنجلترا وويلز، إلى جانب محكمة العدل العليا ومحكمة الاستئناف، واحدة من الأجزاء المكونة للمحاكم العليا في إنجلترا وويلز. وهي أعلى محكمة ابتدائية في القضايا الجنائية؛ ومع ذلك، تخضع محكمة التاج، لتسلسل هرمي إلى جانب المحكمة العليا ومحاكم الشُعب التابعة لها.

خلال إقامتي في سالزبوري، أرسل إليك رفيق سابق خطاباً تهديدياً، أزعجك كثيراً، ورجوتني أن ألتقي بالكاتب وأساعدك في الأمر. وعندما فعلت ذلك، كانت النتيجة وبالاً عليّ، فقد اضطررت إلى أن أحمل على عاتقي كل شيء قمت بارتكابه، وأن أتكفل بالدفاع عنه.

وعندما أخفقت في الحصول على الدرجة الجامعية، لم يكن أمامك إلا أن تترك أكسفورد، وأرسلت إلي في لندن برقية ترجو فيها أن أذهب إليك. وأن أفعل ذلك في الحال. وعندما جئت إليك طلبت مني أن آخذك إلى جورنج لأنك ـ بحكم الظروف ـ لا تريد العودة إلى أهلك. وفي جورنج راقك أحد المنازل التي رأيتها فاستأجرته لأجلك. فتكون النتيجة دماراً عليّ من كل ناحية.

وعندما قدمت إلي ذات يوم، سألتني أن أقدم إليك معروفاً شخصياً. وهو أن أكتب مقالا مرفقا برسم ليُنشَر في المجلة الطلابية لجامعة أكسفورد، والتي يشرف على إصدارها واحد من أصدقائك، ولم أكن قد سمعت به طوال حياتي ولا علمت عنه شيئاً، ولكن من أجل أن أدخل السرور إلى قلبك ـ وما هو الشيء الذي لم أقم بفعله دائما لكي أسرك؟ ـ أرسلت إليه صفحة من «المتناقضات» كنت أعددتها خصيصا لصحيفة «سانرداي رفيو». وبعد شهور قليلة وجدت نفسي واقفاً في قفص الاتهام بمحكمة (أولد بيلي) بسبب طبيعة تلك المجلة. فقد كان الأمر يشكل جزءاً من التهمة التي وجهها التاج إلي، وقد دعيت لأدافع عن نشر صديقك وعن شعرك، ولم أستطع أن أدافع عن الأول، أما عن الأخر فإنني لم أستطع إلا أن أكون وفياً إلى أبعد حد من أجل أدبك الفني ولحياتك الشابة، فكان يجب أن أدافع عنه بشدة، حتى لا يشتهر عنك أنك أصبحت كاتباً يعالج

موضوعات شائنة. ومع ذلك فقد ذهبت إلى السجن، لا بسبب مجلة صديقك الجامعي وحسب بل أيضا بسبب (الحب الذي لا يجرؤ على النطق باسمه).[1]

وبمناسبة عيد الميلاد، قدمت لك «هدية جميلة جدا» على حد تعبيرك الذي جاء في خطاب الشكر الذي تلقيته منك. وكنت قد علمت أن قلبك كان متعلقا بها. وكان ثمنها لا يزيد عن أربعين أو خمسين جنيها، ومع ذلك فعندما تعرضت حياتي للإفلاس، ووجدت نفسي في خراب، وجاء محضر فاستولى القضاء على مكتبتي ووضعها في المزاد حدث هذا كله بسبب «الهدية الجميلة جداً!» فقد عملت على بيع محتويات مسكني بأكمله لتسديد ثمنها.

في اللحظات الأخيرة المروعة، حينما كنت تحثني على الإسراع في رفع قضية على والدك ليُقبض عليه، كانت تلك القشة الأخيرة التي تعلقت بها في صراعي البائس للخلاص من عجزي عن سداد المستحقات المهولة التي تتطلبها القضية، فقد أخبرت المحامي بوجودك أنني لا أحتفظ بأي مدخرات، وأنني قد لا أستطيع تقديم ما يلزم من نفقات، وأنه لا يوجد أي مالٍ في حوزتي، وكان ما قلته صحيحاً كما تعلم، وفي يوم الجمعة المشئوم ذاك، بدلاً من أن أكون

---

(1) ظهرت قصيدة لورد ألفرد دوغلاس «حبان» في صحيفة «الحرباء» وقد قُرأت واُستشهد بها في المحكمة، وجاء في سطورها الأخيرة:

إنني حبٌ حقيقي، فأنا أملأ
قلب الفتى والفتاة بنارٍ متبادلة
فقال الآخر متنهداً: لك مشيئتك
فأنا الحب الذي لا يجرؤ على النطق باسمه

في مكتب همفريز[1]، استسلمت بضعف لما حصل من جر الخراب عليّ، كان يمكن أن أكون سعيداً، حراً طليقاً في فرنسا، بعيداً كل البعد عنك، وعن والدك، غير آبه لبطاقته القذرة، ولا مهتم بخطاباتك، وذلك لو استطعت أن أغادر فندق أفندال في ذلك الوقت. ولكن إدارة الفندق رفضت بشدة أن تسمح لي بالمغادرة. فقد جئت من قبل فأقمت معي عشرة أيام. بل وجئت برفيق لك فأقام أيضاً على حسابي، وهو أمر لا يسعك ألا أن تسلم بأنه كان مما يثير الحنق. وهكذا بلغ ما عليّ من حساب العشرة أيام ما يقرب من مئة وأربعين جنيها، رفض مدير الفندق السماح بخروج أمتعتي قبل تسديد الحساب كاملاً، وكان هذا ما حملني على البقاء في لندن. ولو لم تكن قائمة الحساب تلك لكنت ذهبت إلى باريس في صباح الخميس. وحينما صارحت المحامي بأنه ليس لديّ المال لمواجهة النفقات الباهضة، تدخلت أنت في الحال، فقلت إن أسرتك يسرها أن تدفع جميع التكاليف اللازمة. فقد كان والدك شيطاناً يختلق الكثير من المتاعب لأفراد عائلته، وهو ما جعلهم يفكرون بوضعه في مصح للأمراض العقلية ليتخلصوا من أذاه، وقلت إنه كان دائماً مصدر إزعاج وتكدير لوالدتك ولغيرها، وهو ما يجعلني أبدو ملاكا في نظر عائلتك، بل ومحسناً إليها، إذا قمت بما يؤدي إلى حجزه وإرساله بعيداً، وإن أقارب والدتك الأثرياء سينظرون إلى الأمر بارتياح فلا يشق عليهم دفع جميع النفقات. وعند سماع ذلك أغلق المحامي باب الحديث في الحال، فلم يبقَ لي عذر للتردد في الذهاب

(1) تشارلز همفريز (Charles Humphreys) كان محامي الدفاع لأوسكار وايلد طوال فترة محاكمته، عمل لدى مكتب (همفريز وولده، وكيرشاو)

إلى المحكمة، والواقع أنني أجبرت على ذلك، وبالطبع لم تدفع عائلتك شيئاً من النفقات. وحينما أعلنت إفلاسي كان ذلك بتدبير من والدك، وبسبب تلك النفقات نفسها، أو الجزء الذي كان متبقياً منها، حيث بلغ حوالي سبعمئة جنيه.

لقد شعرت زوجتي بالنفور مني بسبب الخلاف على مسألة مهمة، وهي ما إذا كان يجب أن أحصل منها على ثلاثة جنيهات في الأسبوع، أو ثلاث مع عشرة شلنات، لأعيش عليها، وهي الآن تعد قضية للطلاق. ولا بد لهذه القضية من بينة جديدة، ومحاكمة جديدة بالطبع، وقد تتخذ فيها إجراءات أشد عنفاً. ولست أعلم بطبيعة الحال، ما هي التفاصيل. وكل ما أعلمه هو اسم الشاهد الذي يعتمد عليه دفاع زوجتي للإدلاء بالبينة؛ فهو نفسه خادمك في أكسفورد، ذلك الذي ألحقته بخدمتي بناء على طلبك حينما ذهبنا للاستجمام في جورنج.

غير أنني في الواقع لست بحاجة إلى عرض أمثلة أكثر من المحتوم العجيب الذي يظهر أنك قد جلبته عليّ بجميع الأمور، كبيرها وصغيرها. فالأمر يجعلني أشعر أحيانا كما لو كنتَ دمية تحركها يدٌ غير منظورة؛ لتقوم بحوادث مريعة ينتج عنها دائما نتائج مدمرة! غير أن الدمى نفسها لها رغباتها؛ فهي تأتي بمكيدة جديدة فيما تحدثه، ثم تزيف النتيجة المفروضة عليها عن طريق التغيرات التي تتبعها لتقوم بإرضاء هوى لها أو تشبع رغبة. وأن يكون الإنسان حراً تماماً ويكون في الوقت ذاته محكوما تماما بالقانون، فهذا هو التناقض الأزلي في الحياة الإنسانية الذي نختبره في كل لحظة، وهذا هو التفسير الوحيد الممكن لطبيعتك، كما فكرت دائماً، إذا كان يمكن أن يكون هناك أي تفسير حقيقي لما

تنطوي عليه الروح البشرية من أسرار عميقة ومخيفة، فلن يكون إلا ذلك الذي يجعل من السر أشد غرابة!

من المؤكد أنه قد كانت لك تصورات خاصة بك، وقد عشت في ظلها بلا شك، ورأيت من خلال ضبابها جميع الأشياء وهي تتغير أمامك. ولقد اعتقدت، وهو ما أذكره جيدا، أنك بتكريس نفسك لي إلى حد تجاهل أسرتك واقصاء حياتها تماماً قد أقمت الحجة على تقديرك وحبك لي إلى أبعد حد، وإنما فاتك أن تذكر أنك قد وجدت معي الترف، والحياة الراقية، والملذات التي لا حد لها، والمال الذي يوهب بغير حساب. لقد كانت معيشة أسرتك مملة بالنسبة لك، وكان نبيذ «سالزبوري البارد الرخيص» على حد تعبيرك، مما تعافه نفسك، أما فيما يخصني، فقد كنت تجد المن والسلوى وألوان الجاذبية، وعندما كنت تفتقدني لم يكن في صحبتك رفاق متملقين ممن استعضت بهم عني. ولقد اعتقدت للمرة الثانية أنك بإرسال خطاب إلى والدك عن طريق محام تعلن فيه أنك بدلاً من قطع صلتك الخالدة بي تفضل التنازل عن المنحة التي خصصها لك ـ وكانت مئتين وخمسين جنيها كل عام، بعد حسم ديونك في أكسفورد على حد علمي ـ اعتقدت أنك بذلك الإجراء قد قمت بأروع ضروب الفروسية في الصداقة وعزفت على أرقى نغمات إنكار الذات. غير أن تنازلك عن تلك المنحة الصغيرة لم يكن يعني استعدادك للتنازل عن أمر لا يستغنى عنه من الضروريات بل ولا حتى من الكماليات. بل على العكس، لم تكن شهيتك إلى حياة الترف أشد مما كانت يوم أن اتخذت ذلك القرار. لقد بلغت نفقاتي في ثمانية أيام في باريس، التي أنفقتها على نفسي وعليك وعلى خادمك الإيطالي، حوالي مئة وخمسين جنيها، وإن أردت أن تعيش على نمط الحياة التي رغبت فيها، فلم يكن

إيرادك السنوي كاملاً ليكفيك أكثر من ثلاث أسابيع. حتى لو قصرت الأمر على تناول الطعام وحده، واكتفيت بألوان من اللهو الرخيص. إن تنازلك عن تلك المنحة كيفما كانت، (وهو في الواقع ضرب من الشجاعة الشكلية هيأ لك بالنهاية سبباً شبه معقول أو هكذا رأيته، للمطالبة بأن تعيش على حسابي. وقد استفدت جدياً من وراء ذلك إلى أبعد حد، بل وعبرت عن حقك فيه بكل وضوح. ولم يكن ذلك الاستنزاف المستمر، واقعاً عليَّ لوحدي بل قد وقع على والدتك أيضاً. غير أن وقعه عليّ كان محزناً أكثر، لأنني قد تحملت أكثره، ولم يكن قط مصحوباً بأقل كلمة شكر، ولا بأضعف إحساس بالقناعة. ولقد اعتقدت مرة أخرى، أنك بمهاجمة والدك بخطابات مرعبة، وبرقيات بذيئة وبطاقات جارحة، كنت تقوم بمعارك حقيقية لصالح والدتك، وتتقدم كبطلها المدافع، للثأر عما قد حدث من أخطاء مريعة وآلام جارحة أرقت حياتها الزوجية. لقد كنت واهما في ذلك، بل كان بالتأكيد من أسوأ أوهامك. فالطريق للثأر من أبيك عما ارتكبه مع والدتك من أخطاء، سيكون في أن تجعل من نفسك ابناً صالحاً لها، فلا تجعلها تهاب الحديث معك في الأمور الجدية، ولا تجبرها على تسديد حساب الفواتير التي وقعت عليها برعونة، ولا تقس عليها في المعاملة، ولا تجلب الأحزان إلى حياتها بأي سبب، لقد عوضها أخوك فرنسيس عما قاسته في حياتها، بمعاملته الرقيقة الطيبة لها خلال السنوات القليلة من حياته التي كانت بعمر الزهور، وكان حرياً بك أن تتخذ منه مثالاً، ولكنك كنت مخطئاً في تصورك أنك سوف تدخل السرور الكبير إلى قلب والدتك إذا استطعت أن تقود والدك إلى السجن بواسطتي، كنت مخطئاً في ذلك بلا شك، فإذا أردت أن تعلم ماذا يكون عليه شعور المرأة إذا رأت زوجها ووالد ابنائها مرتدياً ملابس السجناء، وأصبح يعيش

في زنزانة مظلمة، فما عليك إلا أن تكتب إلى زوجتي في ذلك، فبإمكانها أن تخبرك بالحقيقة.

وقد كانت لي أيضا تصوراتي الخاصة. فقد اعتقدت أن الحياة صائرة إلى ملهاة مشرقة، وأنك واحد من كثير من الأشخاص ستكون فيها أخلاقهم امثلة غاية في اللطف، فإذا بي أراها مأساة متمردة منفرة، وأراك مناسبة مشؤومة لنكبة عظيمة منتظرة. وقد كانت مشؤومة بتركز هدفها وتأصله بقوة الإرادة المحدودة؛ وذلك بعد تجردك من قناع البشر والسرور الذي لم يكن انخداعك به أقل من انخداعي، وهو ما ذهب بنا بعيداً عن الواقع.

إنك تستطيع الآن أن تدرك ولو قليلاً مما أتألم به. أم تراك لا تستطيع. لقد نشرت إحدى الصحف ـ وأحسبها صحيفة «بال مال غازيت» ـ مقالاً عن التجربة الأخيرة لواحدة من مسرحياتي، فكان مما ذكرته أنك كنت متابعاً لي، كما لو كنت ظلاً. وأقول إن ذكرى صداقتنا هي الظل الذي يتابعني هنا، والذي يبدو أنه لن يتركني أبداً. فهو يوقظني في الليل ليخبرني القصة نفسها، ثم يعيدها علي ويعيدها حتى يهجرني النوم بفعل تكرارها الممل، ويتسمر بي هذا الحال حتى مطلع الفجر. وبعد انقضاء الفجر يعود ثانية. وهو يتبعني إلى فناء السجن ويجعلني أكلم نفسي بينما أدور حول المكان نفسه، وكل التفاصيل الدقيقة التي حدثت في المواقف المخيفة التي مررت بها، أجد نفسي مُجبراً على استرجاعها، ولم يكن هناك شيء مما حدث في تلك السنوات المشؤومة لم أكن قادراً على إعادته للحياة في ذلك الجزء المخصص للحزن والبؤس في عقلي. إن كل نبرة متوترة من صوتك، وكل حركة عصبية من يديك، وكل كلمة حانقة، وكل جملة

مسمومة، كل ذلك كان يُعاد باستمرار عليَّ. إنني أذكر الطريق الذي مشيناه والنهر الذي سرنا بجانبة، والحائط الذي جمعنا، كما أذكر الأرقام التي وقفت عليها عقارب الساعة، والاتجاه الذي انطلقت فيه الرياح، وماذا كان الطور الذي اتخذه القمر، وما لونه بدقة. يوجد هناك جواب واحد عن كذلك، كما أعلم، وهو أنك أحببتني. وأنك طوال الثلاثين شهراً التي مضت الاقدار تنسج خلالها من خيوط حياتنا المنقسمتين نموذجاً دموياً، كنت خلالها تحبني بصدق. بل إنني على يقين بذلك، فبغض النظر عما كان عليه سلوكك معي، شعرت دائما بأنك في أعماق قلبك كنت تحبني حقاً، ومع أنني كنت أعرف بوضوح مركزي في عالم الفن، وما كانت تثيره شخصيتي دائما من اهتمام، وما كان في يديَّ من مال، وما كنت أعيش فيه من ترف، وغير ذلك من أسباب جعلت حياتي تبدو ساحرة في عينيك وغير متوقعة بصورة عجيبة، ومع أنني كنت أعلم أن كل هذا أو بعض منه كان من عوامل افتتانك وتعلقك بي، إلا أنه قد كان هناك شيء آخر أكثر أهمية. شيء من الجاذبية الغريبة بالنسبة إليك. فقد أحببتني أكثر من أي شخص آخر؛ ولعل السبب في ذلك أنك كنت قد عشت مأساة مريعة في حياتك، كما حدث معي، وإن كانت مأساتك ذات طبيعة مضادة تماما لمأساتي. فهل تريد أن تعلم ماذا كانت؟ لقد كان البغض دائما في نفسك أقوى من الحب. وكان بغضك لأبيك عظيما بحيث تجاوز حبك لي وقهره وطغى عليه. ولم يكن بينهما كفاح، أو ربما كان بينهما القليل منه، بتلك الأبعاد كان البغض يتغذى في قلبك، وفي ذلك التوحش نما، ولم تدرك حقيقة أنه لا يوجد مكان يجمع عاطفتين متناقضتين معا في روح واحدة؛ فهما لا يستطيعان أن يعيشا جنباً إلى جنب في ذلك المأوى الذي قسم بعدالة.

إن الحب يغذيه الخيال، فالخيال يجعلنا نصبح أعقل مما نعلم، وأحسن مما نشعر، وأنبل مما كنا، وبه نستطيع أن نرى الحياة كاملة، وبه وحده نستطيع أن نفهم الآخرين في صِلاتهم الحقيقية وندركهم في علاقاتهم المثالية. والحب لا يغذيه إلا ما هو جميل، أو ما أمكن إدراكه في جمال، أما البغض فيغذيه كل شيء. وهكذا لم يكن هناك قدح من أجود أنواع النبيذ قد احتسيته، ولا طبق من أطيب أصناف الطعام قد تلذذت فيه، إلا وقد زاد فيك روح البغض وجعله أكثر تطلباً، ولكي تشبعه في نفسك، مضيت تقامر بحياتي، كما كنت تقامر بنقودي، وتفعل ذلك بغير اكتراث، بغير تروٍ، وبغير تقدير للعواقب، فإذا كانت النتيجة خسارة، توقعت أنها لن تقع عليك، وإن جاءت ربحاً، رأيت أنك الأحق بنشوى الانتصار وما يتوج به المنتصرين من أكاليل الغار!

إن البغض يعمي البصائر، وهذا ما لم تكن تعلمه، أما الحب فيستطيع أن يقرأ ما خلف النجوم من كلمات. لقد أعماك البغض فلم تستطع سوى أن ترى أكثر من مرتع رغباتك السافلة، بما فيه من ضيق وشهوات ذابلة. وكانت قدرتك المحدودة على التخيل، هي في الواقع سبب النقص المشؤوم في شخصيتك، والذي كان نتيجة محتمة لما تغذا في روحك من بغض، فقد مضى البغض ينهش في طبيعتك بخبث وسكون وخفاء، كما تنهش طفيليات البحر في النبات الأصفر، حتى غدوت غير قادرٍ على أن ترى من بواعث الاهتمام إلا أسخفها، ولا من الأهداف إلا أحقرها. فقد استطاع البغض أن يسمم فيك تلك الملكة التي كان الحب قادرا على أن يغذيها، وأن يُعلي من شأنها.

عندما هاجمني والدك في البداية، كان ذلك باعتبار أنني صديق لك،

وقد أرسل إليك خطاباً كنت قد اطلعت على ما جاء فيه من تهديدات واعتداءات قاسية، ورأيت في الحال أن خطراً مريعاً يوشك أن ينسج خيوطه على أفق أيامي التعسة. فأخبرتك أنني لن أكون شريكاً في نزاع كل منكما مع الآخر، وأنني لن أكون صيداً سهلاً له، وأنه لديَّ ما يشغلني في حياتي أفضل من الدخول في مشاجرات مع رجل سكير، منحرف الحال، شبه معتوه. ولم يكن من السهل أن أجعلك ترى ذلك؛ فقد أعمى الكره بصيرتك، فأصررت على أن النزاع لا يعنيني في الحقيقة، وأنك لن تسمح لوالدك أن يملي عليَّ ما يتوجب عليك فعله بصداقاتك الشخصية، وأنني سأكون ظالماً إن تدخلت في الأمر، وقبل أن تحدثني في ذلك، كنت قد أرسلت إلى والدك برقية حمقاء سافلة، وقد أودى بك ذلك إلى إتباع نهج ممتلئ بالحماقة والسخف البالغ.

إن الأخطاء المشؤومة في الحياة، لا ترجع إلى طيش الشخص، فقرب لحظة الطيش توجد أكثر اللحظات إبداعا، بل ترجع إلى منطق الشخص، وهناك فرقٌ شاسع بينهما، فقد تحكمت تلك البرقية فيما أعقب ذلك من علاقاتك مع والدك، ثم تحكمت في حياتي بأكملها نتيجة لذلك، والشيء المخيف الذي يخص تلك البرقية، أنها كانت مما يخجل منه أحقر الرعاع! وهكذا، من برقيات وقحة، إلى خطابات ملأها الغرور وأرسلت من مكتب المحامي، كان الأمر يتقدم بشكل طبيعي، وكان لتلك الخطابات التي أرسلت من مكتب المحامي أثرها في حث والدك على المضي أبعد مما كان، فالواقع أنك لم تترك له فرصة للاختيار، بل فرضت عليه الأمر كمسألة شرف، أو بالأحرى مسألة عدم شرف، وذلك لكي يكون لإثارتك وقع أشد. وقد حصل ذلك فعلا، وحينما مضى والدك ليقود حملة أخرى، لم

يرسل إليك خطاباً خاصاً، ولم يتكلم عني كصديق لك، بل مضى يهاجمني علانية، باعتبار أنني من العامة، وعندما طردته من بيتي، ذهب يبحث عني في كل المطاعم الممكنة، وذلك ليجرح سمعتي أمام الناس جميعاً، ويفعل ذلك بطريقة تلحق بي الخراب إن قابلته بمثلها، ولو تجاوزت عنها للحق بي الخراب أيضا.

ألم يأت الوقت المناسب حينها لأن تتقدم وتعلن أنك لا تريد أن تعرضني بسببك لمثل تلك الحملات الشنيعة والاضطهاد المهين بل وتتنازل برضا وتسليم، عن كل ادعاء لك في صداقتي، أعتقد أنك تشعر الآن بأن ذلك ما كان يقتضيه الحال، غير أن هذه الفكرة لم تخطر ببالك، فقد أعماك البغض فكان كل ما فكرت فيه (بجانب تلك الخطابات والبرقيات الجارحة التي كنت تمطره بها) هو أن تبتاع سكيناً مضحكاً، وتنطلق به في مطعم بركلي في ظروف كانت كافية لخلق فضيحة أسوأ مما قد فكرت فيه، والحقيقة أن تلك الفكرة، وهي أنك محور الموضوع المسبب لخصام فظيع بين والدك وبين رجل بمثل مركزي، قد بدت فكرة مثيرة بالنسبة لك، فهي كما افترض منطقياً، قد أرضت غرورك وأشعرتك بأهمية ذاتك. وقد كان من الحلول المؤلمة للمسألة في تقديرك هي أن يستأثر والدك بجسدك الذي لا يهمني، ويترك لي روحك التي لا تهمه! فكان أن شعرت بفرصة لنشر فضيحة علنية، فسعيت في سبيل ذلك، وكان منظرك في معركة تكون فيها في أمن من بواعث سرورك، بالغ البهجة والحماسة، ولم أذكر إنني قد رأيتك مبتهجا قط كما كنت في ذلك الوقت. وإنما كانت خيبة أملك الوحيدة في أن شيئاً لم يحدث عملياً، وأنه لم يعد هناك اجتماعات ولا مشاجرات بيننا، فلم يكن أمامك إلا أن تعزي نفسك بإرسال برقيات إليه كانت طبيعته كافية لحمل الرجل التعيس

في النهاية على أن يكتب إليك قائلاً بأنه قد أصدر أمراً إلى الخادم بعدم تقديم أي برقية إليه تحت أي ادعاء مهما كان، غير أن هذا لم يثبط من عزيمتك، فقد وجدت الفرصة سانحة في بطاقات البريد المفتوحة، واغتنمتها كاملة فمضيت تثيره ليندفع بشراسة في مطاردة أبعد مما كانت. واعتقد انه لم يكن قادراً على التراجع، فقد كانت غرائز الأسرة قوية فيه، وكان بغضه لك لا يقل ثباتاً عن بغضك له، وكنت أنا حصان المطاردة لكما انتما الاثنين، وسهم الهجوم، ودرع الحماية. ولم تقتصر شهوته للتشهير على ما كان يختلج في نفسه، بل كانت خطاباتك وبطاقاتك تثيره من جديد فيعود الى جموحه السابق. فكان من الطبيعي أن يمضي قدماً، وهكذا، فبعد أن هاجمني خفية كرجل ذي مكانة، عاد فهاجمني علناً كرجل من العامة. ثم صمم أخيراً على أن يوجه إلي ضربته القاضية كفنان، وفي المكان نفسه الذي يعرض فيه فني، فحجز مقعداً في أول ليلة لتمثيل واحدة من مسرحياتي، ورسم خطة خبيثة لمقاطعة التمثيل وإلقاء كلمة قذرة من على المسرح، وإهانة الممثلين، ثم قذفي بأكثر الألفاظ بذائة حينما أُدعى في ختام العرض للوقوف أمام الستار. لقد خطط لكل ذلك بعناية فائقة؛ حتى يتسنى له القضاء عليّ بطريقة خبيثة في مجالي العملي! وإنما حدث بمحض الصدفة، في واحدة من لحظات الإخلاص العرضية لرجل بحالة أشد من حالة الرجل الثمل، أن مضى يتباهي بعد ذلك بخطته أمام الناس، فوصل نبأه إلى الشرطة، وحجزته بعيداً عن المسرح، وكانت الفرصة مواتية لك في ذلك الحين، فقد جاءتك المناسبة في وقتها الصحيح، ألم تدرك الآن أنه كان يجب عليك أن تتحين الفرصة، وتتقدم لتقول بأنك لا تود أن يُقضى على فني بسببك مهما كانت الأحوال؟ لقد علمت ماذا كان يعني الفن بالنسبة إليّ. لقد كان العلامة الكبرى التي

استطعت من خلالها أن أكشف عن روحي، من أجلي أولاً ثم من أجل العالم بعد ذلك. لقد كان الفن هو التعبير الوحيد لانفعالات حياتي الحقيقي. وكان الحب الذي لم يكن يعتد بأي حب آخر، تماما مثلما تكون مياه المستنقع بالنسبة إلى النبيذ الأحمر، أو يراعة المستنقع بالنسبة إلى مرآة القمر السحرية. ألم تدرك الآن أن افتقارك إلى المخيلة كان هو السبب الحقيقي لكل ما اعترى خلقك من نقص مشئوم؟ لقد كان الشيء الذي وجب أن تفعله في منتهى البساطة، بل وفي منتهى الوضوح. غير أن البغض كان قد أعمى بصيرتك، فلم تستطع أن ترى أي شيء آخر! لم يكن في مقدرتي أن أعتذر لوالدك عن إمعانه في تجريحي واضطهادي بأقذر الأساليب لمدة تقرب من تسعة أشهر، كذلك لم يكن في استطاعتي أن أقذف بك خارج حياتي، فقد حاولت ذلك مرة بعد أخرى، وذهبت في محاولاتي إلى حد ترك إنجلترا والذهاب إلى الخارج لكي أتخلص منك، ولكن من دون جدوى، ولهذا كنت أنت الشخص الوحيد الذي باستطاعته أن يفعل شيئاً. فقد كان في يدك زمام الأمور كلها، وقد واتتك أعظم الفرص لتقوم بشيء بسيط كرد على بعض مما أبديته نحوك من محبة ومودة وشفقة وتسامح. ولو كنت قد قدرتني ولو عشر قيمتي الفعلية كفنان لكنت قد فعلت ذلك. غير أن البغض أعماك. وكانت مقدرتك العقلية في عداد الموتى، تلك المقدرة التي بها، وبها وحدها نستطيع أن نفهم الآخرين في علاقاتهم الحقيقية والمثالية. فقد مضيت تفكر ببساطة كيف يمكنك أن تضع والدك في السجن، كيف سيبدو منظره عندما يصبح أسير «القفص» كما كنت تقوم دائماً. كان ذلك هو هاجسك الوحيد، وقد أصبحت تلك العبارة مكررة في كل أحاديثك اليومية، وكنت أسمعها منك أثناء كل وجبة طعام تناولناها معا. حسنا لقد حصل ما كنت تريد، وأشبعت رغبتك

في الانتقام. فقد أتاح لك البغض كل شيء رغبت فيه. وكان سيداً لك، كما هو في الواقع مع كل من خضع له، فقد جلست طوال يومين كاملين في مقعد عال بجوار رجال الإدارة، ومضيت تمتع ناظرك بمرأى والدك واقفا في قفص المحكمة الجنائية المركزية، وفي اليوم الثالث رأيتني أحل محله! فما الذي حدث؟ لقد حدث أنكما خلال لعبة البغض المخيفة التي تبارزتم فيها، كنتما قد ألقيتما بالنرد مقامرين على حياتي، فحدث أن كنت أنا الخاسر، وكان هذا كل شيء.

إنك ترى أن عليَّ أن أكتب لك حياتك، وأن عليك أن تدركها من خلالي، لقد عرف كل منا الآخر لمدة تزيد عن أربع سنوات. وكنا معا في نصف ذلك الوقت، أما النصف الآخر فقد كان عليَّ أن أقضيه في السجن، كنتيجة لصداقتنا، أنني أسأل أين ستكون عندما تستلم هذا الخطاب، إذا قدر له قط أن يصلك، هذا ما لا أعرفه. قد تكون في روما، أو نابولي، أو باريس أو فينسيا، أو بعض المدن الجميلة المطلة على البحر أو على النهر، أو أي مما يجتذبك من الأماكن، وإن كنت لا تحيط نفسك الآن بشيء من وسائل الترف التي لا طائل يُرجى منها، كتلك التي أتيحت لك معي، فلا شك أنك لست محروماً مما يسر نظرك وسمعك وذائقتك على الأقل، فلطالما كنت محباً للحياة، ولكنني أنصحك إن كنت عاقلاً، وإذا رغبت في أن تجد في الحياة ما هو أحب بكثير مما قد عرفته، وأن تتذوقه بأسلوب آخر، فيجب أن توقن بأهمية قراءة هذا الخطاب، وإن بدا لك مريعاً، كأزمة ونقطة تحول في حياتك، كما قد فعلت كتابته معي. إن وجهك الشاحب كان يتورد بسهولة كلما احتسيت النبيذ أو غمرك السرور، فإذا شعرت عند قراءتك لما كتب هنا بأنه يلتهب خجلا من حين

إلى آخر، فسيكون في هذا كل الخير لك، تذكر أن السطحية هي أعظم الرذائل، وكل ما تدركه فهو صحيح مهما كان.

***

لقد أوصلني الحديث إلى المرحلة التي قد أدخلت فيها إلى السجن، فبعد قضاء ليلة في زنزانة الشرطة أرسلت إلى هناك في عربة، وكنت في غاية اللطف والاهتمام معي، فكل مساء تقريباً، كنت تجشم نفسك مشقة السفر إلى «هولواي»[1] لكي تراني، وبقيت على ذلك حتى ذهبت إلى الخارج، كما أرسلت خطابات مليئة بالرقة والمودة، ولكن لم يبدر في ذهنك، أن تكون أنت أو والدك من قد وضعني في السجن وأن تكون أن المسئول عن كل ما حدث من البداية وحتى النهاية، وأن أكون هناك عن طريقك أنت، وبواسطتك أنت، ومن أجلك أنت، وحتى منظري من وراء قضبان ذلك القفص الخشبي لم يستطع أن يحرك تلك الطبيعة الميتة فيك لفقرها من الخيال، لقد كنت تبدي العطف وتظهر الشفقة كمن يشاهد رواية محزنة، غير أنك لم تفكر يوماً بأنك من ألف هذه المأساة المخيفة! وهذا يعني أنك لم تستطع أن تدرك شيئاً مما فعلته، ولم أرد أن أخبرك بما كان لزاماً على قلبك أن يخبرك به، بل وما كان سيخبرك به لو لم يكن بغضك قد حجره وجعله عديم الشعور. كل شيء يجب أن يأتي إلى المرء من طبيعته نفسها، وليس هناك فائدة من إخباره بما لا يشعر به وما لا يستطيع إدراكه، فإذا كنت

(1) في السادس من أبريل عام 1895 اتهم وايلد في محكمة الشرطة في (بوستريت) بجرائم تقع تحت البند الحادي عشر من لائحة تعديل القانون الجنائي لعام 1885، وقد رفض القاضي الإفراج عنه بكفالة، فسجن في (هولواي) إلى حين بدء محاكمته الأولى في (أولد بيلي) في 26 أبريل عام 1895.

أكتب إليك الآن، فقد كان ذلك لأن صمتك وسلوكك أثناء سجني الطويل قد جعل من الأمر ضرورياً، فضلا عن ذلك، فقد اتضح أن الضربة قد أصابتني لوحدي، وكان ذلك من بواعث سروري، فقد كان هناك أسباب عديدة جعلتني أرضى بالعذاب، وإنما لاحظت شيئاً في تجاهلك المتعمد قد جعلني أكن لك المزيد من الاحتقار. إنني أذكر كيف جئت مختالاً وفي يدك خطاب قد نشرته عني في واحدة من الصحف الرخيصة. وكان حقاً خطاباً رزناً من النوع العادي، فقد مضيت تتوسل «الوعي الإنجليزي المنصف» من أجل أن يلتفت إلى رجل (كان يهوي إلى الحضيض) أو شيئاً قريباً من هذا المعنى الكئيب، فمثل هذا الخطاب يكتب في حال قد وجهت تهمة قاسية إلى رجل من ذوي المكانة لم تكن لك به أي صلة؛ ولكنك اعتقدت أنه كان خطاباً مدهشاً، ومضيت تنظر إليك كدليل على فروسية تتواضع حيالها، كفروسية «دون كيوختي»[1]. ولا شك أنك قد أرسلت خطابات أُخرى إلى عددٍ من الصحف ولم يجيزوا نشرها، ولم يكن ذلك إلا لأنك كتبتها ببساطة لتعلن على الملأ بأنك تبغض والدك، فهذا ليس بالأمر الذي يهتم به أحد، فعلته أو لم تفعله. إنك لا تزال في

(1) «دون كيخوتي دي لا مانتشا» بالإسبانية: Don Quijote de la Mancha رواية للأديب الإسباني ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا، نشرها بجزأين بين أعوام 1605 و1615. اشتهرت الرواية بين العرب بالعديد من الأسماء مثل دون كيشوت ودون كيخوته وضون كيخوتي ودون كيخوط ودون كيخوطي كما تلفظ بالإسبانية، وتعد واحدة من بين أفضل الأعمال الروائية المكتوبة قبل أي وقت مضى، وعدها الكثير من النقاد بمثابة أول رواية أوروبية حديثة، وواحدة من أعظم الأعمال في الأدب العالمي، تُرجمت إلى العديد من اللغات الأجنبي،ة يحمل الجزء الأول اسم العبقري النبيل دون كيخوتي دي لا مانتشا، وظهر عام 1605، بينما ظهر الجزء الثاني عام 1615 تحت عنوان العبقري الفارس دون كيخوتي دي لا مانتشا.

حاجة إلا أن تعلم أن البغض باعتبار المنطق، هو السوداوية الأزلية، أما باعتبار العاطفة، فهو شكل من الضمور يدمر كل شيء إلا نفسه. إن من يكتب إلى الصحف ليقول إنه يكره فلاناً من الناس لا يختلف عمن يكتب إليها معلنا أنه يعاني من مرض سري مخجل. أما أن يكون الشخص الذي تبغضه والدك، وأن يكون هذا الشعور متبادل بصورة تامة، فإن هذا لا يجعل من بغضك شيئاً جميلاً أو مشرفاً بأي حال من الأحوال. وإن كان يدل على شيء فهو لا يدل على أكثر من أنه مرض وراثي.

إنني أذكر جيداً ذلك اليوم الذي أُقِرَ فيه الإجراء التنفيذي على بيتي، وحُجِزَ فيه على كتبي وأثاث منزلي، وأعلنوا بيعها، إذ كنت واقعاً تحت طائلة الإفلاس، وكان من البديهي أن أكتب إليك بهذا كله؛ ومع ذلك فلم أذكر لك أن دخول المحصلين إلى منزلي، لم يكن إلا لتسديد ائتمان بعض الهدايا التي قدمتها إليك! فقد اعتقدت، مصيباً أو مخطئاً، أن مثل ذلك القول قد يسبب لك بعض الألم. فاكتفيت بذكر الحقائق المجردة، إذ كان من المناسب أن تكون على علم بها. لقد قلت بأن والدك كان «يعبد القرش»، وأنه كان مضطراً لأن ينفق 1500 جنيه كمصاريف للقضة، وأن وصولي إلى حالة الإفلاس يُعد «كسباً بديعاً» منه؛ إذ إنه لن يستطيع في هذه الحالة أن يحصل مني على شيء من تلك المصاريف! فهل تدرك الآن ماذا يفعل البغض عندما يعمي الإنسان؟ هل تميز الآن أنني حينما قلت إنه كالضمور يدمر كل شيء إلا نفسه، كنت بذلك أصف علمياً واحدة من الحقائق النفسية الصحيحة؟ لقد كان بيع جميع الأشياء العزيزة التي كانت لديّ، من مجموعة صور «بيرن ـ جونز» ومجموعة «هويسلر»، ومجموعة «مونتنشللي»، ومجموعة «سيمون سولومونز»، ومجموعتي الخاصة من

الخزفيات، ومكتبتي بكل ما حوته من مجلدات أهديت إلى من كل شعراء عصري تقريباً، من هوجو إلى هوايتمان، ومن سوينبورن إلى مالارمي، ومن موريس إلى فرلين، وفيها طبعات ذات تجليد فاخر من مؤلفات والدي ووالدتي، وطبعات «د ـ لوكس» وغيرها، وجميع الجوائز الفخرية التي حصلت عليها من المدارس والكليات ـ كان بيع كل ذلك ليس شيئاً ذا قيمة في نظرك، فقد قلت أن جميع هذه الأشياء كانت عبئاً ثقيلاً، وكان هذا كل شيء؛ أما الشي الوحيد الذي استطعت أن تراه فقد كان ذلك الاحتمال، وهو أن والدك ربما سوف يخسر في النهاية بضع مئات من الجنيهات. وكان ذلك التقدير التافه كافياً لجعلك تشعر بسرور لا مثيل له! ومع ذلك فربما قد أهمك أن والدك قد قال علانية في «نادي أورليان» إنه إذا حدث أن كلفته القضية عشرين ألف جنيها، فإن هذا المبلغ سيكون قد أنفق على النحو الصحيح، إذ سيكون قد حصل ما يطلبه من انتصار وسعادة، وقد استطاع أن يحصل على أكثر من ذلك، وهو ما لم يكن في حسبانه، فهو لم يضعني في السجن لمدة عامين وحسب، بل أخذني أيضاً إلى الخارج بعد ظهر أحد الأيام ليعلن إفلاسي على الملأ! وكان في هذا أقصى درجات اذلاي، وكان فيه أقصى درجات انتصاره.

إنني أعلم جيداً أنه لو لم يفكر والدك في الحصول على شيء مني مقابل تلك النفقات لكنت أبديت كثيراً من الأسف على ضياع مكتبتي كاملة. وهي خسارة لا تعوض بالنسبة إلى رجل شغوف بالأدب، والواقع أنها من بين جميع خسائري المادية، كانت الوحيدة التي آلمتني بحق، وكان الواجب يقتضي منك أن تشتري لصالحي ولو جزءاً من كتبي. فأفضل ما فيها قد بيع مقابل ثمن بخسٍ لا يتعدى مئة وخمسين جنيها، وهو ما يقل

عما كنت أنفقه عليك خلال أسبوع واحد في العادة. وحتى لو لقيت في ذلك بعض المشقة، فقد كان يجدر بك أن تذكر تلك المبالغ التي أنفقتها عليك بإسراف، وكيف عشت سنوات على حسابي. غير أن السرور الحقير الذي استولى عليك حينما حسبت أن والدك سوف يخسر بضعة قروش من جيبه جعلك غير قادر على التفكير في القيام بمحاولة لترد إلي بعض الصنيع الذي قد أسديته إليك، وكان ما وجب عليك فعله شيئاً بسيطاً لا يكلف الكثير، وكنت ستلقى مني أعظم ترحيب إذا قمت به. فهل تراني قد أخطأت عندما قلت لك بأن البغض يعمي النفوس؟ ألا ترى ذلك الآن؟ فإذا لم تكن قد رأيته فحاول أن تراه.

كيف كنت أرى كل ذلك بوضوح في ذلك الوقت، كما أراه الآن! لست بحاجة إلى أن أخبرك. غير أنني قلت لنفسي: (مهما كان سيكلف الأمر، يجب أن أحتفظ بالحب في قلبي، وإلا ماذا سيكون عليه مصير روحي إذا دخلت السجن من دون الحب؟) وكانت الخطابات التي كتبتها إليك في ذلك الوقت من «هولواي» تعبر عما كنت أبذله من مجهود للاحتفاظ بالحب كدليل مسيطر على طبيعتي الحقيقية، وكان بمقدوري، لو أردت، أن أقطعك إرباً بكل أساليب التعنيف المرير الممكنة، وكان لعناتي ستمزقك، وكان باستطاعتي أن أرفع أمامك مرآة فتنعكس على صورتك حتى لا تدرك أنها لك إلا بعد أن ترى ما فيها من انعكاس لتعابير الرعب التي استولت عليك، وقتها ستعلم من تكون، وستبغضها وتبغض نفسك إلى الأبد. من المؤكد أنني كنت أستطيع أكثر فعل أكثر من ذلك، فقد كانت هناك مجموعة خطايا لرجل آخر موضوعة تحت تصرفي ومتضمنة في رصيدي، إذا أردت ذلك. وكان في استطاعتي في كل من المحاكمتين أن

أنقض نفسي على حساب صاحب تلك الأخطاء، لا من السجن وحسب، بل من الفضيحة أيضاً. فلو كنت قبلت أن أعلن أن شهود التاج ـ أقصد الثلاثة المهمين منهم ـ قد دُرِبوا بشكلٍ جيد بواسطة والدك ومحاميه، لا على إخفاء الحقائق وحسب، بل على التوكيد أيضا، فنسبوا إليَّ أفعال شخص آخر وتصرفاته، وفعلوا ذلك عن قصد وعن تخطيط وتلقين محكم، كان كل ذلك كافياً لحمل القاضي على طردهم من المحكمة في الحال، كما فعل مع شاهد الزور «ايتكنز»[1] المسكين، كنت سأخرج من المحكمة بكامل قوتي ويداي في معطفي كرجل يتمتع بكامل حريته. والواقع أنه قد وقع عليّ ضغط شديد لأقوم بذلك، ووجّه لي النصح والرجاء الحار من قبل أشخاص يريدون الخير من أجلي ومن أجل بيتي، غير أنني لم أرد أن أسلك ذلك المسار، ولم أشعر بالأسف على اتخاذ هذا القرار حتى في أشد ساعات سجني ظلاماً؛ فلم يكن ذلك التصرف من شيمي، بل كان دون مستواي، ولا عجب، فخطايا الجسد ليست بشيء، فهي في الواقع أمراض قد يتولاها الطبيب بالعلاح، إن كان من الضروري أن تُعالج. أما خطايا الروح فهي التي تجلب العار، ولو كنت سلكت تلك الطريقة لأنجو من السجن، لبقي الأمر مصدرا لعذابي طوال ما تبقى من حياتي. ولكن، هل تظن أنك كنت حقا جديرا بالحب الذي كنت أشعر به نحوك وقتها؟ أو أنني رأيتك جديرا به لحظة واحدة؟ إن الحب ليس مما يباع ويشترى في

(1) كان فردريك اتكينز شاهد زور في المحاكمة الأولى لوايلد، حيث مضى يزور الحقائق بصور فاضحة، وهو ما جعل القاضي يصف في تقريره بأنه «متهور كبير لا يعول عليه، ومستهتر، وكاذب كشاهد»، وقد أمكن تبرئة وايلد من التهم التي وجهت إليه على أساس شهادته، وذلك على الرغم من اعتراف وايلد نفسه بأنه رفيقٌ سيّئ خلال إحدى رحلاته إلى باريس.

الأسواق العامة، وهو ليس مما يوضع في إيدي الباعة المتجولين. فالسعادة التي يجلبها، كما هي السعادة في كل الأمور العقلية، في أن يشعر المرء بأنه حي؛ والهدف منه هو الحب نفسه، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

لقد كنت عدوي، وكنت عدوا لم يشهده قط إنسان غيري. فقد وهبتك حياتي فطرحتها جانباً لكي تشبع في نفسك أحط الغرائز وأحقرها، وهي البغض، والغرور، والجشع. وفي أقل من ثلاث سنوات كنت قد قضيت عليَّ بشكلٍ تام، ومن جميع النواحي، أما من جانبي فإنه لم يكن لي غرض سوى أن أحبك. فقد كنت ولا أزال أضرب في صحراء الوجود القاحلة؛ وقد علمت أنني لو سمحت لنفسي بأن أشعر نحوك بالبغض لوجدت كل صخرة في هذه الصحراء قد فقدت ظلها الذي تستند عليه، وكل النخيل قد جفت، وكل بئر قد أثبتت أن قاعها مسموم. فهل بدأت تفهم الآن قليلاً مما أرمي إليه؟ هل تشعر بأن مخيلتك قد بدأت بالاستيقاظ بعد ذلك السبات الطويل الذي كانت فيه؟ لقد كنت تعلم جيداً ما هو البغض. فهل بدأت تعلم الآن ما هو الحب، وما هي طبيعته؟ إن الوقت لم يفت لتعلم شيئاً عنه؛ وإن كان ثمن تعليمك الحب هو أن أدخل الزنزانة كمجرم!

بعد صدور حكم القضاء المريع، وعندما وجدت نفسي مرتدياً ثياب السجن، ورأيت أبوابه توصد عليَّ، لم يكن أمامي سوى أن أجلس على حطام حياتي، تعتصرني المعاناة، ويربكني الفزع، ويطيح بي الألم. غير أنني لم أشعر حيالك بالبغض. فقد كنت أقول لنفسي كل صباح: يجب أن أحتفظ بالحب في قلبي هذا اليوم؛ وإلا ما هو الشيء الذي سأحيا به طوال اليوم؟ وكنت أعلل نفسي بأنك لم تكن تقصد الشر، بالنسبة إلي على الأقل. فقد عودت نفسي على رؤية ما قد فعلته على أنه لا يزيد

عن استعمال قوس بتهور في أحد المعارك فيصيب السهم الطائش أحد الملوك المنزوين عن ساحة القتال ويصرعه أرضا. وقد شعرت بأنني لو وزنتك بأقل أحزاني وأتفه خسائري لما كنت منصفاً بذلك، فعزمت على أن أعتبرك شخصاً يتألم كذلك. لقد أجبرت نفسي على الاعتقاد بأن الغشاوة قد أزيلت عن عينيك اللتين قد أصابهما العمى لوقت طويل، ومضيت أتخيل بألم ما سيكون عليه حالك من الفزع وقت أن تتأمل في حقيقة عملك المريع! كانت تمر عليّ أوقاتٌ حتى في تلك الأيام المظلمة التي كانت أشد أيام حياتي سواداً، كنت أشعر فيها برغبة متشوقة إلى تعزيتك؛ فقد كنت أعتقد أنك أدركت أخيراً ما جنيت. لم يخطر ببالي وقتها أنك قد وقعت في أعظم الرذائل، وهي السطحية. والواقع إنني شعرت بحزن بالغ حينما رأيت نفسي مجبراً على إخبارك بأنني احتفظت بأول فرصة للمراسلة لتكون مخصصة لشؤوني العائلية. وذلك لأن صهري كان قد كتب إليَّ قائلا إنني لو كتبت إلى زوجتي، ولو مرة واحدة، فإنها ستعدل عن رفع قضية لطلب الطلاق إكراما لي ولأولادنا. فشعرت بأن الواجب يقتضي مني ذلك. وحتى لو طرحت جانباً أسباباً أُخرى، فلم أكن لأتحمل فكرة انفصالي عن «سيريل»، طفلي الجميل، المحب المحبوب، أصدق أصدقائي جميعاً ورفيق بعد كل الرفاق، ذلك الذي كانت الشعرة الواحدة من رأسه الذهبي الصغير أعظم قيمة في نظري، لا أقول فقط منك بأكملك، من رأسك حتى قدميك، بل من جميع مرجان العالم كله، وإن كنت لم أدرك ذلك إلا في وقت متأخر.

***

بعد مضي أسبوعين على طلبك تلقيت بعض الأنباء عنك. فقد جاء «روبرت شيرارد»[1] أشجع الرجال اللامعين وأنبلهم، جاء لمقابلتي، وكان من بين ما أخبرني به أنك في سبيل نشر مقال عني، مع نماذج من خطاباتي، في صحيفة «مركيز دي فرانس» تلك الصحيفة المثيرة للسخرية، التي زعمت ببلاهة أنها المركز الحقيقي للفساد الأدبي! ثم سألني إذا كنت حقاً أرغب في ذلك، فعبرت عن انزعاجي ودهشتي، وأمرت بإيقاف ذلك فوراً. لقد كنت أعلم أنك قد تركت خطاباتي مطروحة بكل مكان، لينتشلها رفاق لك من المشهرين، ويختلسها خدم الفنادق، وتبيعها الخادمات. ورأيت أن هذا يرجع ببساطة إلى قصور حاستك في تذوق ما كنت أكتبه. أما أن تعمد بجدية إلى نشر مختارات من خطاباتي الخاصة إليك فإن هذا كان مما صعب علي تصديقه. ثم أي واحدة من خطاباتي كانت تلك التي أخترتها؟ لم أستطع معرفة ذلك. كان هذا أول ما وصلني عنك من أنباء، وقد كدر مزاجي بالطبع. ثم جاءت الدفعة الثانية من الأنباء بعد ذلك بوقت قصير. فقد جاء محامي والدك إلى السجن، وقدم إليَّ إعلانا بالإفلاس عن مبلغ سبعمئة جنيه كان إجمالي إتعابه المستحقة. وقد صدر الحكم بإعلان إفلاسي، وأمر القاضي بإحضاري إلى المحكمة. فرأيت كما كنت أرى دائماً، أن هذه الأتعاب كان يجب أن تدفع من قبل عائلتك. فقد أخذت

---

(1) روبرت هاربورو شيرارد (1861 ـ 1943) كاتب وصحفي، كان والده من رجال الدين، غير أنه أسقط الاسم العائلي في شبابه فعرف دائما باسم شيرارد. وهو حفيد «وردسويرث» وقد أمضى الشطر الأكبر من حياته في فرنسا. وكان أول لقاء له مع وايلد في باريس. وقد كتب عنه أربعة كتب: «أوسكار وايلد: قصة صداقة تعيسة»، 1902 «حياة أوسكار وايلد» 1906، «أوسكار وايلد الحقيقي» 1915 «برنارد شو، فرانك هاريس، أوسكار وايلد» 1937.

على نفسك مسؤولية ذلك حينما ذكرت بأن عائلتك ستقوم بذلك. وكان هذا ما جعل المحامي يقبل القيام برفع الدعوى بالطريقة التي اتبعها. إنك المسؤول عن كل ذلك، وبغض النظر عن التعهد الذي قمت به لصالح عائلتك، فقد كان يجب أن تشعر بأقل ما يجب عليك بعد أن كنت المتسبب في إلحاق كل هذا الخراب إلى حياتي، وأن تكفيني عناء فضيحة أخرى جاءت بإعلان إفلاسي بسبب مبلغ حقير للغاية، فقد كان أقل من نصف ما أنفقته عليك في ثلاثة شهور قصيرة من الصيف في (جورنج)، وعلى كل حال فإني لن أزيد بأكثر مما أسهبت عن هذا عن الموضوع. إنني أسلم بأنني تلقيت رسالة جاءت منك عن طريق المحامي بصدد الموضوع، أو أنها كانت تتصل بالمناسبة على كل حال، ففي اليوم الذي جاء فيه المحامي ليتلقى إقراري وأقوالي مال انحنى نحو المائدة ـ وكان السجان حاضراً ـ وبعد أن راجع ورقة أخرجها من جيبه قال لي بصوت منخفض: «إن الأمير فلير دي ليس[1] يبلغك تحياته» فأمعنت النظر فيه لأجده يكرر الرسالة ذاتها، ولم أدرك ما كان يرمي إليه. فأضاف بغموض: «إن السيد في الخارج حاليا». فاتضح لي كل شيء. وأذكر أنني قد ضحكت وقتها للمرة الأولى، بل والأخيرة في حياتي في السجن، وكانت ذلك الضحك

(1) فلير دي ليس وجونكيل كانا اسمي تدليل أطلقهما وايلد على ألفرد دوجلاس، وكان دوجلاس قد كتب قصيدة بعنوان «جونكيل وفلير ديليس» حول ابن ملك وصبي من الرعاة تبادلا ثيابهما وقد نشرت هذه القصيدة في أشعاره (1896).

تعبيرا عن سخريتي من العالم بأجمعه. الأمير دي ليس! لقد أظهرت لي كل الحوادث المتعاقبة انني كنت محقا فيما رأيت، رأيت أن كل ما حدث لم يساعدك على معرفة الحقيقة! فقد كنت لا تزال ترى نفسك أميرا خفيف الروح في ملهاة، لا شخصية مظلمة في مأساة. فكل ذلك الذي حدث لم يكن سوى ريشة فوق قبعة تزين رأساً صغير، أو زهرة وضعت في جيب المعطف الأمامي مخفية قلباً لا يصِل إليه أي دفء سوى تلك الحرارة التي يبعثها البغض، فالحب لم يكن يزيده إلا برودا! الأمير فليز دي ليس! لا شك أنك كنت على صواب عندما راسلتني تحت اسم مزور؛ فالحقيقة أنني لم يكن لديَّ أي اسم في ذلك الوقت. ففي ذلك السجن الكبير، حيث كنت معتقلاً، لم أكن سوى رقم أو حرف مدون على زنزانة صغيرة في الممر الطويل، واحد من ألف رقم عديم الحياة، كواحدة من ألف روح فقدت حياتها، غير أنها قد كانت هناك، بالتأكيد، أسماء حقيقية كثيرة مرت بالتاريخ الحقيقي، كانت أكثر ملائمة لك، ولم يكن من الصعب عليَّ أن أميز أيا منها في الحال. فلم أكن قد قد فكرت بالبحث عنك خلف إشعاع الحبيبات اللامعة التي رصعت ثوباً تهريجياً لا يُرتدى إلا في الحفلات التنكرية! كم هو مؤسف حالك، فلو كانت روحك قد جرحت من الألم، وانحنت من الندم، وتواضعت من الأسى، لو كانت روحك قد فعلت ذلك، لما اختارت مثل ذلك الأسلوب التنكري باحثة تحت ظله عن مدخل إلى بيت الآلام! إن الأشياء العظيمة في الحياة يصعب تفسيرها، أما الأشياء الحقيرة فهي عبارة عن رموز. ونحن نتلقى من خلالها أشد الدروس إيلاما، ونتقبلها بكل سهولة. وقد كان اختيارك العرضي لاسم مصطنع، شيئاً رمزياً، وسيبقى كذلك، فهو يكشف عن حقيقتك الفعلية.

وبعد ستة أسابيع جاءت الدفعة الثالثة من الأنباء، فقد دعيت من أحد عنابر المستشفى حيث كنت طريح المرض أعاني منه بتعاسة، دعيت لأتلقى رسالة خاصة منك من خلال مأمور السجن. وقرأ عليَّ من خطاب وجهته إليه بخصوص نشر مقال «عن قضية مستر أوسكار وايلد» في صحيفة مركيز دي فرانس، وأنك مهتم للحصول على موافقتي على نشر مختصرات ومختارات من خطاباتي. أي خطابات؟ أهي تلك التي كتبتها إليك من سجن «هولو واي»! أم هي تلك الخطابات التي كانت في اعتبارك من الأمور المقدسة والبالغة السرية المرتفعة فوق كل شيء في العالم بأجمعه! تلك التي كانت في الحقيقة الخطابات نفسها التي قررت نشرها لأراذل المستهترين ليستمتعوا بها، ولحثالة الصحفيين ليكتبوا عنها، وللسباع الصغيرة في الحي اللاتيني ليفتحوا أفواههم مندهشين! لو لم يكن في أعماق قلبك ما يحملك على أن تصرخ معترضاً على مثل هذه الفضيحة السوقية لكان يجدر بك على الأقل ان تذكر قصيدة ذلك الرجل الذي شاهد في حزن واحتقار كيف بيعت خطابات «جون كيتس» في مزاد علني بلندن، وأن تفهم أخيراً ما هو المعنى الحقيقي في أبياتي التي أقول فيها:

أعتقد أنهم لا يحبون الفن

أولئك الذين كسروا بلورة قلب الشاعر

لتتمكن عيونهم المريضة

من التحديق والافتراس

وإلا فأي شيء قصدت أن تكشف عنه في مقالك؟ أهو حبي لك الذي بلغ أقصى درجاته؟ لقد علم أبناء باريس بهذه الحقيقة، فجميعهم يقرأون

الصحف، وكثير منهم يكتب إليها، أم كنت ستكتب عن عبقريتي؟ فقد أدرك الفرنسيون ذلك أيضا، بل وعلموا ما هي الصفة المميزة لعبقريتي، علموها أفضل بكثير مما علمتها أنت. أو أحسن مما كنت منتظرا منك أن تعلمه عنها. أو لتقول إن هناك شذوذاً عجيباً من الشهوة والشبق يلازم العباقرة في أغلب الأحيان؟ مدهش! غير أن هذا الموضوع لم يكن يعنيك بقدر ما كان يعني «لمبروزو»[1]، فضلًا عن ذلك، فهذه الظاهرة قد وجدت أيضا في الذين لم يكونوا من العباقرة. أو لتقول بأنني كنت دائماً درعاً وسهماً لك ولوالدك في حرب البغض التي دارت بينكما؟ كلا، بل أكثر من ذلك. ففي تلك المطاردة المخيفة لحياتي من قبل والدك بعد أن توقفت تلك الحرب بينكما، لم باستطاعة والدك أن يصل إليَّ لو لم تكن شراككَ قد نُصِبَت من قبل حول قدميَّ، غير أن «هنري بوير»[2] قد قام بذلك من قبل بطريقة مشفية للصدور، كما علمت، فإذا كنت رأيت أن تعزز رأيه فلم يكن هذا ليستوجب أن تنشر خطاباتي، أو تلك التي كتبتها في سجن «هولو واي» على الأقل. فهل ستجيب على أسئلتي بأنني قد طلبت منك في واحد من الخطابات التي كتبتها في هولو واي بأن تنصفني بعض الشيء ولو أمام جزء بسيط من العالم؟ لقد فعلت ذلك بالتأكيد. وإنما يجب أن تذكر كيف كنت ولم أنا هنا في هذه اللحظة! فهل تعتقد أنني هنا بسبب علاقاتي مع شهود قضيتي؟

---

(1) (سيزار لومبروزو (بالإنجليزية وبالإيطالية Cesare Lombroso)) طبيب إيطالي شهير وعالم جريمة ولد في 6 نوفمبر 1835 وتوفي في 19 أكتوبر 1909.

(2) نشر الأديب والكاتب المسرحي «هنري بوير» مقالًا قوياً في صحيفة «صدى باري» تحامل فيه على الحكم البربري الذي وقع ضد وايلد والغباوة في شرع عقوبة على ممارسة اللواط، وندد بنفاق الإنجليز. وقد وصف «كويربري» بأنه «نوع من الحيوانات المؤذية، وزوج سيء ووالد شرير»، وقال إنه انعكاس لانجلترا بما لها من شهرة من تصنع الحياء.

إن علاقاتي مع أشخاص من هذا النوع، حقيقية كانت أو مفترضة، لم تكن ذات أهمية، لا في اعتبار الحكومة ولا في تقدير المجتمع. فهم لم يعرفوا عنها شيئاً، وليست من اهتماماتهم أن يعرفوا. وإنما أنا هنا لأنني حاولت أن أضع والدك في السجن، وقد أخفقت جهودي في ذلك بالطبع. فقد ألقى دفاعي أوراقه جانباً، فاستطاع والدك أن يقلب الطاولة عليَّ بصورة كاملة، وأن يضعني في السجن حيث لا أزال. هذا هو السبب في أن الناس يشعرون حيالي بالاحتقار والاشمئزاز. هذا هو السبب في أني صرتُ مُجبراً على أن أقضي كل يوم، وكل دقيقة، في هذا السجن المرعب. وهذا هو ذات السبب في أن جميع التماساتي قد رُفِضَت.

لقد كنت الشخص الوحيد الذي كان بمقدوره أن يضفي لوناً مغايراً لهذه المسألة. وأن يجعل الأمر يسير على نحو مختلف، وأن يوضح ما كان عليه الوضع إلى درجة كبيرة، كان بمقدورك أن تفعل ذلك من دون أن تعرض نفسك للخطر أو اللوم أو السخرية من أي ناحية. لم أكن أنتظر منك بالطبع، بل ولم أكن أريد أن تذكر كيف ولأي غرض جئت تلتمس مني المساعدة في مشاكلك في أكسفورد، وكيف لم تتركني طوال السنوات الثلاث الماضية. كذلك لم أكن بحاجة إلى أن تُكلف نفسك عناء تأريخ المحاولات المستمرة التي قمت بها لإنهاء صداقة كانت مفسدة لحياتي بوصفي فنانَ، ورجلاً له مكانته، أو حتى بوصفي عضواً في المجتمع، حتى إنني لم أكن أريد منك أن تصف تلك المُشاجرات التي تعودت على افتعالها بتكرار رتيب، ولا أن تطبع تلك السلسة العجيبة من البرقيات التي كنت ترسل بها إليَّ وقد احتوت على خلط معيب بين الحادثة والمال، ولا أن تقتبس من خطاباتك أعنف ما جاء فيها من عبارات، وأشدها تمرداً،

كما اضطررت أن أفعل هنا. لم أكن أريد أي شيء من هذا كله، ولم أفكر فيه. بل رأيت أنه ربما كان من الأفضل لي ولك لو استطعت أن توجه شيئاً من الاحتجاج على رواية والدك عن صداقتنا، إذ إن القبح الذي فيها لم يكن يقارن بكمية البغض الذي انطوت عليه، ولم يكن سخفها بالنسبة لك يُقارن بكمية العار الذي جلبته بالنسبة إليّ. لقد دخلت هذه القصة فعليا في أوسع أبواب التاريخ، فنقلها الناقلون، وصدقها المصدقون، وأرخها المؤرخون، وأصبح الواعظ يجد فيها إضافة لكلامه الفارغ، والأخلاقي يجد فيها مادة خصبة لموضوعه العقيم. وهكذا كان عليَّ، أنا الذي استشهد بكل العصور، أن أقبل بالحكم الذي أصدره علي أحد القردة والمهرجين! لقد قلت، وهو ما أسلم به هنا بمرارة، إن من سخرية القدر أن يعيش والدك ليكون بين أبطال المدارس الكنسية يوم الأحد، وأنت ترتفع أنت إلى مرتبة الطفل صامويل، وأن تنحدر مكانتي لأجد نفسي قد صرت بين «جبل دي ريه» و«الماركيز دي ساد!» ومع كل ذلك، فربما كان هذا أفضل، فالحقيقة أنني لا أشعر بالرغبة في الشكوى.

لقد استطعت أن ترسل إلى محافظ سجن «واند مورث» لتحصل على تصريح مني بنشر خطاباتي، فلماذا لم تكتب بالمقابل إلى محافظ سجن ريدنج للحصور على موافقة مني بإهداء أشعارك إليّ، مهما اخترته من وصفٍ خيالي؟ هل كان الأمر بأنك قد اعتقدت أن بمقدورك أن تستمتع بعنادك في فرض رأيك بغير علم مني إلى أن يفوت وقت تدخلي؟ إن مجرد النظر إلى حالتي، بوصفي رجلاً لحق به الوبال وحل به الخراب وأُدخِل إلى السجن، كانت كافية لحملك على التقدم إليَّ ملتمساً السماح لك بإهداء أشعارك إليَّ كمعروف مني وكشرف وامتياز لك. فهذا هو الطريق الذي

يتخذه المرء ليقترب من أولئك الذين يشعرون بالألم ويقبعون في العار.

غير أن الصواب أن أذكر أنني لم أكن لأقبل بهذا الإهداء مهما كانت الأحوال، ولو أنه قد كان سيسرني في ظروف أخرى أن يكون قد طلب مني ذلك. وليس رفضي إلا لصالحك، فبغض النظر عن مشاعري الشخصية، فإن أول كتاب يخرجه شاب إلى العالم وهو في ربيع حياته يجب أن يأتي كزهرة تفتحت مع حلول الربيع، كتلك الزهرة البيضاء في «مجدالن» أو «زهرة الحقل» في وادي «كمبور». فلا يخرج الكتاب وقد احتمل عبء مأساة مريعة وثائرة، بل فضيحة شنيعة مدمرة. ولو كنت قد سمحت في أن يوضع اسمي كالمبشر لكتابك لكان في ذلك خطأ فني جسيم، وكان كافياً لخلق جوٍ سيء حول الموضوع كله. وهذا الجو يُحسَب من أجله ألف حساب في عالم الفن الحديث.

إن كتابك الصغير كان يجب أن يأتي محملا بروائح من صقلية وأركاديا لا أن يدنس من قفص مجرم، أو بأنفاس من زنزانة متهم، ولم يكن ذلك الإهداء الذي فكرت فيه خطأ من ناحية الذوق الفني وحسب، بل كان غير ملائم من جميع وجهات النظر. فقد كان فيه دليل على التزامك بما كنت عليه من سلوك قبل القبض عليّ وبعده، وكان فيه ما يحمل على الاعتقاد بأن الأمر ليس إلا محاولة لإظهار بطولة مزيفة، مثالاً من تلك الشجاعة الشكلية التي تُباع وتُشترى بثمن زهيد في طرقات العار. وبقدر ما يعني الأمر صداقتنا، يبدو أن آلهة النقمة «نمسيس» قد حطمتنا معاً، كما يحطم الذباب! والواقع أن إهداء أشعار إليَّ بينما أنا قابع في السجن ليس سوى سعي أخرق في وقت يتطلب به الأمر تصرفاً جاداً. وهو من نوع تلك الإنجازات التي كنت تتفاخر بها علانية وتجد سروراً في التشدق بها في

الأيام التي كنت فيها عاكفا على كتابة خطاباتك المرعبة، تلك الأيام التي أرجو لك بإخلاص أن لا تعود مجدداً، ومثل ذلك السعي لم يكن ليأتي بالنتيجة الجدية الحسنة التي أعتقد أنك كنت تصبو إليها. ولو كنت أخذت مشورتي لكنت نصحتك بأن تؤخر نشر أشعارك بعض الوقت. أو تنشرها من دون إهداء في البدء، إذ لم يكن ذلك مُرضياً. فإذا ما رأيت أنك قد اكتسبت معجبين، أقصد من يستحقون أن تحصل عليهم، سيكون بإمكانك وقتها أن تلتفت حولك وتهتف أمام العالم قائلاً: «إن هذه الزهور التي أعجبتهم بها مما قد زرعته، وإن أهديها إلى من اعتبرتموه منبوذاً ومطروداً. برهانا على ما أحبه فيه وأقدره وأعجب به». غير أنك قد اخترت الطريقة السيئة والتوقيت السيء، فهناك حاسة في الحب وحاسة في الأدب، لم يكن لديك أيُ منهما. لقد أطلت الحديث في هذه النقطة، ولعلك تستطيع أن تدرك كل ما حوته من معاني، فتدرك لم كنت قد كتبت إلى روبي معبراً عما شعرت به نحوك من احتقار واشمئزاز ومعترضاً بصورة تامة على ذلك الإهداء، وهو ما حملني على تكليفه نسخ كتابي بعناية وإرسال نسخة إليك. فقد شعرت بأن الوقت قد حان أخيرا لجعلك تبصر، وتميز، وتدرك، ولو قليلاً مما فعلته. إن الغباوة قد تحمل بعيدا حتى تصبح شيئاً يدعو إلى السخرية، والطبيعة القاصرة في التصور، قد تتحجر فتصبح بلادة محضة إذا لم يكن هناك باعث يوقظها. وفي هذه الحالة، بينما يمضي الجسد على نهجه، فيأكل، ويشرب، ويحصل على ما يبتغي من مسرات، تكون الروح التي اتخذت من الجسد بيتاً، ميتة تماماً، كما كانت روح «برانكا دي أوريا» حسب تصوير دانتي لها. ولكن يبدو أن خطابي لم يكن مسعفاً لك، وبقدر ما استطعت أن أحكم، كان وقعه عليك مثل وقع الصاعقة. فقد قلت في

ردك على روبي إنك «قد فقدت كل قدرة على التفكير والتعبير» يبدو هذا واضحاً، فالواقع أنك لا تحسن التفكير في شيء أكثر من الكتابة إلى أمك شاكياً. أما هي فقد كانت بالطبع تغض النظر عن مصلحتك الحقيقية، وهو الأمر الذي جلب لها سوء الحظ، مثلما جلبه لك، إنني أعتقد أن والدتك كانت تتفانى في تهيئة مناخ مليء بكل وسائل الترضية من أجلك ثم تقوم بعد ذلك بمواساتك، ثم تعود إلى وضعك الطبيعي بما فيه من تعاسة وانعدام القيمة. فإذا ما فُتِح بابٌ لتبادل أطراف الحديث عني، كانت والدتك تخبر أصدقائي بأنها «منزعجة جدا» بسبب قسوتي فيما أظهره من ملاحظات عليك. ولا تكتفي بإخبار أصدقائي عما ينتابها من شعور بالانزعاج بل تفعل ذلك مع من ليسوا بأصدقائي، وهم أكثر عدداً كما تعلم. وقد عرفت الآن عن طريق أشخاص مقربين منك ومن عائلتك، أن الدعم الجماهيري الذي اكتسبته بفعل ما تميزت به من عبقرية وما تحملته من آلام، أوشك على أن أفقده تدريجياً بسبب تصرفات والدتك، فسيقول الناس: «آه، لقد حاول في البداية أن يضع الأب العطوف في السجن، ولما فشل في ذلك صوب أنظاره إلى الابن البريء ليضع عليه اللوم بسبب فشله! كم كنا محقين في احتقاره، يا له من إنسان جدير بالاحتقار!»، ألم يكن من اللائق أن تلتزم والدتك الصمت حينما يذكر اسمي، طالما كانت لا تستطيع أن تبدي كلمة حزن أو أسف ـ حتى لو كانت تافهة ـ بعد أن شاهدت بأم عينيها الخراب الذي صارت إليه حياتي؟ أما عنك، أفلا تعتقد أنه كان يجدر بك أن تكتب إليَّ مباشرة في كل الأحوال بدلاً من أن تهرع إليها شاكياً، أو أن تقول لي بشجاعة ما كان لديك، أو ما تصورت أنه لديك؟ لقد مضى ما يقرب من عام كامل منذ كتابتي لذلك الخطاب. فلا يعقل أن تكون

قد بقيت طوال تلك الفترة «مجرداً من كل قوة للتفكير والتعبير!» فلماذا لم تكتب إليَّ؟ لقد أظهر لك خطابي مدى عمق الجرح الذي أصابني، ومدى العار الذي حل بي من وراء جميع تصرفاتك، وقد أظهر لك خطابي أكثر من ذلك، فقد رأيت صورة كاملة لصداقتنا، بعد أن وضعت أمامك في شكلها الحقيقي. لقد أخبرتك في الأيام الأولى لصداقتنا أنك تدمر حياتي، فكنت تضحك في كل مرة تسمع ذلك. وعندما رأى «أدوين ليفي» في بدء صداقتنا، أسلوبك في دفعي إلى تحمل مشاكلك ونفقاتك التي نجمت عن كارثتك المشئومة في أكسفورد والتي لجأنا إليه بسببها طالبين منه النصح والمساعدة، فحذرني طوال ساعة كاملة من عاقبة معرفتك، وعدت إلى «براكنل» لأنقل لك ما سمعته، وما علق في تصوري، مضيت تضحك ساخراً، وعندما أخبرتك كيف أن ذلك الشاب التعيس الذي وقف بالنهاية بجواري في قفص الاتهام، قد حذرني مراراً وتكراراً من أن تكون من أكثر الأشخاص الذين يدفعهم الشؤم إلى جلب الدمار الكامل على حياتي، أكثر من أولئك الفتيان السوقيين الذين تعرفت عليهم في غفلة مني، مضيت تضحك، وإن لم يكن هناك معنى مناسب لضحكك في ذلك الوقت، وعندما مضى أكثر أصدقائي تعلقا بي يحذرونني، ومضى غيرهم ممن كانوا أقل تعلقا يتجاهلونني، بسبب صداقتي معك، كنت تضحك في ازدراء. وعندما كتب والدك إليك أول خطاب بذيء عني، أخبرتك بأنني سأصبح مجرد وسيلة في نزاعكما المريع، وسأتعرض للأذى بينكما، مضيت تضحك بشدة مبالغ بها. ومع ذلك فقد حدث كل شيء بالدقة التي أخبرتك أنه سيحدث بها، وبقدر ما توقعت من نتائج. ولم يكن لك عذر في عدم رؤية ما آلت عليه الأمور. فلماذا لم تكتب لي؟ أكان ذلك عن

جبن؟ أم عن قسوة؟ أم عن شيء آخر، لقد حدث أنني فُضِحت معك، ثم عبرت عن شعوري الناتج عن هذه الفضيحة، وكان في ذلك أقوى دافع لأن تكتب إليّ، فلو كان في خطابي إنصاف فقد لزم أن ترد عليه، وإن كان فيه ذرة من الظلم فقد لزم أن ترد عليه أيضاً. لقد مكثت أنتظر خطابك طويلاً، فلو كان العشق القديم، والحب البالغ الدلالة، وآلاف الأفعال من الشفقة التي قوبلت بأسوأ جزاء، وألف دين من الجميل الذي لم يوفَ به، لو كان هذا كله ليس شيئاً في اعتبارك، فإن الواجب وحده، بأشد صوره جفاء بين رجل وآخر، هذا الواجب كان عليه أن يدفعك إلى أن تكتب إليَّ، وليس من حقك أن تقول بأنني رفضت استلام أي رسائل سوى تلك التي تتعلق بشؤوني العملية مما كان يرسل به أفراد عائلتي وقد كنت تعلم أن روبي كان يكتب إليَّ كل ثلاثة شهور مجملاً صغيراً بآخر الأنباء الأدبية. ولم يكن هناك ما هو أشد سحراً من خطاباته بكل ما تضمنته من طرائف، ونقد دقيق وبارع، ولمسات رقيقة، لقد كانت خطابات حقيقة، وكأنها شخص يتحدث إلى آخر. بل إن فيها طابعا من الأُسلوب الفرنسي في المخاطبة الودية، وكان بأساليبه الرقيقة التي ترمز إلى ما يكنه إلى من احترام، إذ كان يرجع بحديثه أحيانا إلى رأيي أو إلى ذائقتي وحسي الجمالي، أو إلى ثقافتي، ويذكرني بمختلف الأساليب بأنني كنت في يوم من الأيام حكما في أساليب الفن بين العديد ممن في عصري، والحكم الأعلى بين بعض منهم، كان يظهر بكل هذا بمقدار الحب والأدب الذي كانت تتمتع به حواسه، وكانت خطاباته وسيطاً صغيراً بيني وبين ذلك العالم الخيالي الجميل للفن، حيث كنتُ يوماً متربعاً على عرشه، وكان من الممكن أن أبقى كذلك، لو لم أترك الإغراء يقودني إلى عالم ناقص، قوامه الرغبات

المستعرة، والشهوات التي لا حد لها، والجشع الذي لا شكل له، ومع ذلك، وبعد كل ما قلته، من المؤكد أنك قد استطعت أن تفهم أنه حتى وإن لم يكن هناك غير الأسباب العادية من الفضول النفسي فقد كان يهمني أن أسمع منك أخبارك، أكثر من أن أعلم أن «الفرد أوستن» كان يحاول إخراج ديوان من الشعر أو أن «ستريت» كان يكتب فصولاً من النقد المسرحي لصحيفة «ذا دايلي كورنيكل» أو أن شخصاً لا يستطيع أن يُلقي كلمة من دون أن يتلعثم، قد وقف ليعلن أن «مسز مينل» هي «سيبيل الجديدة» في الأسلوب.

لقد أصبحت في السجن لإيماني بمن لم يكن جديرا به، أو لانحداري إلى قاع الشهوات، أو لمنحي الثقة في غير موضعها، أو منحي الحب لغير مستحقيه، أو كل ذلك، أو لا شيء منه، فهل تعتقد أنني كنت سأتركك تصارع قلبك وحيداً في الظلمات من دون أن أحاول بأي طريقة مهما كانت يسيرة أن أساعدك على تحمل العبء المرير من عارك. هل كنت تعتقد أنني كنت لأتركك بغير أن تعلم أنني أتألم لألمك، وأبكي لبكائك، إن كنت قد طرحت في بيت الاستعباد ولقيت من الناس الاحتقار فإنني قد بنيت لنفسي بيتاً من أعماق أحزاني لأقيم فيه حتى تخرج، وأعددت لك كنزاً مما أنكره عليك جميع الناس، لتجد فيه الشفاء من كل ما ألم بك، وتراه يزيد باستمرار دائما؟ ولو منعتني الضرورة المرة، وهي لا تزال مرة معي، أو الحيطة، من أن أكون قريباً منك، وسلبتني ما أشعر به من سرورٍ بقربك، كنت سأكتب إليك في المناسبات، وفي غير المناسبات، برجاءٍ أن تصل إليك ولو مجرد عبارة، أو حتى كلمة واحدة أو صدى منقطع الصوت من حبي لك. فإذا ما رفضت أن تستلم مني خطاباً، فلن يقلل

ذلك من همتي في مواصلة الكتابة، وذلك لتعلم أنه مهما كان الأمر فسوف تكون هناك دائما خطابات في انتظارك. لقد فعل كثيرون معي ذلك، فكل ثلاثة شهور، كنت أتلقى خطابات من الآخرين، أو ممن يبدون رغبتهم في الكتابة. وقد احتفظت بخطاباتهم ومكاتباتهم، لتسلم إليَّ حال خروجي من السجن، إنني أعلم أنها هناك، بل وأعلم أسماء من كتبوها، كما أعلم أنها ممتلئة بالعطف ومشاعر المودة والشفقة، ولقد اكتفيت بذلك فلست أريد أن أعلم شيئاً أكثر عنها. أما سكوتك أنت فقد كان مريعاً، فهو لم يكن سكوتاً لأسابيع أو لشهور، بل كان لسنوات، لسنوات حتى في اعتبار من هم مثلك ممن يختطفون الحياة بسعادة، ولا يكادون يشعرون بمرور الأيام إذ تتوالي أمامهم، بينما تنقطع أنفاسهم في السعي خلف طلب المسرات! إنه سكوت من دون مبررات، وبغير تلطف، لقد علمت أن لك قدمين من طين، ومن هو أعلم بذلك مني؟ فعندما كتبت بين خلاصات مبادئي «أن الأقدام الطينية هي التي جعلت من الصورة الذهبية شيئاً ثميناً» كنت أفكر فيك بالذات. غير أنها لم تكن صورة ذهبية بقدمين من طين تلك التي صنعتها من نفسك، فلقد صغت صورتك الكاملة من تراب الطريق العام الذي يتحول بفعل حوافر الحيوانات ذوات القرون إلى وحل محض لكي أنظر إليه! ولأجل كل ذلك، لم تكن رغبتي الخفية لتمنعني من الشعور نحوك سوى بالازدراء والاحتقار، وبتجاهل جميع الأسباب الأخرى، فإن عدم اهتمامك، أو افتقارك إلى الحكمة، أو جمودك، أو حذرك، أو كل ما جاز لك أن تتصوره، كان أكثر مرارة لي بفعل الظروف العجيبة التي رافقت سقوطي وأعقبته.

إن غيري من التعساء حينما يطرحون في ظلمات السجون، يكونون

في أمن من أشد الرميات، وأعنف السهام إذا ما حرموا من جمال الدنيا، فهم يستطيعون التخفي في ظلمات سجونهم، وأن يصنعوا من أعماق عارهم حالة تكون بمثابة المأوى لهم. ولما كان العالم قد أتم إرادته فيهم فإنه يذهب في سبيله ويتركهم ليعانوا من عذابهم بغير إزعاج، ولم تكن تلك حالتي، فقد تعاقبت الأحزان واحدة بعد الأخرى، ومضت تقرع باب السجن باحثة عني، ففتحت لها أوسع أبوابه، وسمحت لها بالدخول. ولقد حدث نادراً، أن تحمل أصدقائي عناء رؤيتي، أما أعدائي فقد تمكنوا دائما من الوصول إليّ، فقد حدث ذلك مرتين في ظهوري علانية أمام محكمة الإفلاس، وعند نقلي من سجن إلى آخر أمام الملأ، تعرضت حينها لنظرة الناس وسخريتهم في ظروف بالغة الإهانة، وجاءني ملاك الموت بأنبائه ثم مضى في طريقه، فكان عليّ أن أتحمل عبئاً لا يُطاق من التعاسة والندامة، جاءت به ذكرى والدتي، ولا يزال جاثماً على صدري، وقد فعلت ذلك في وحدة تامة، وعزلة عن كل ما يجلب العزاء ويوحي بالسلوى. ولم يكد ذلك الجرح أن يجف «ولا أقول أن يطيب» بمرور الزمن حتى جاءتني من زوجتي خطابات قاسية وحانقة بعث بها محاميها، فوجدت فيها نفسي مهدداً ومنكلاً بالفقر. وكل هذا مما قد استطعت تحمله، بعد أن وطنت نفسي على احتمال ما هو أسوا منه. ولكن أن يسلب مني أطفالي بإجراء قانوني، فقد كان هذا، وسيكون دائماً، مصدر هم وألم لا نهاية له، ومبعث أحزان لا حد لها، فإن كان للقانون حق اتخاذ قرار في أهليتي بأن أكون مع أبنائي، فإن هذا سيكون من أكثر الأشياء المريعة التي حصلت لي، ولا يُقارن بفضيحة السجن التي لحقت بي، والحقيقة أنني أغبط الرجال الآخرين ممن معي في السجن، فلست في

شك من أن لهم أطفال ينتظرونهم، وأنهم يتطلعون إلى مجيئهم، وأنهم سيكونون مصدر سعادة لهم عند خروجهم.

***

إن من بين الكثير من الأشياء التي يتعلمها المرء في السجن، أن الأشياء تبقى على ما هي عليه، وتصير إلى مصيرها المحتوم. كما ليس لديّ ريبٌ في أن «أبرص القرون الوسطى» ومؤلف «جستين» سيثبتان أنهما أفضل صحبة من «ساندفورد ومرتون»[1] غير أنني بينما كنت أكتب إليك كنت أشعر بأنه سيكون من اللائق ومن الصواب عدم قبول الرواية التي وضعها والدك سلفاً معتمداً على مستشاريه في سبيل تعزيز عالم مادي. وكان هذا ما حملني على أن أطلب منك أن توظف فكرك وتكتب شيئاً أقرب إلى الحقيقة. فقد كان هذا أفضل لك، على الأقل، من العمل على كتابات ركيكة وإرسالها إلى الصحف الفرنسية، كاشفاً عن حياة والديك العائلية! ماذا كان سيهم الفرنسيون إذا عرفوا أن والديك قد عاشا حياة سعيدة أو بائسة؟ إن المرء لا يستطيع أن يتصور أن هناك موضوعاً أقل أهمية بالنسبة إليهم. وإنما ما يثير اهتمامهم حقا أن فنانا مثلي ومن طبقتي الاجتماعية، هو من أثر على اتجاه الفكر الفرنسي بدرجة ملحوظة بواسطة المدرسة والحركة التي كان هو نفسه تجسيداً لها، قد استطاع باتباع تلك الحياة أن يأتي بما أتى. لو كنت قد ضمنت مقالك بتلك الخطابات الفائقة الحصر التي حدثتك فيها عن الخراب الذي كنت تجره إلى حياتي،

(1) تاريخ «سانفورد ومرتون» كتاب تهذيبي للأطفال، معروف بصورة واسعة في القرنين الماضيين، كتبه (توماس داي) ونشره في عام 1783.

وعن نوبات الغضب الجنوني التي كنت تسمح لها بأن تسيطر عليك لتؤذيك بالدرجة نفسها التي كنت تؤذيني فيها، وعن رغبتي التي بلغت حد التصميم في إنهاء صداقة كانت شؤماً عليَّ من كل النواحي، لكنت رأيت في ذلك معنى لائقاً. ومع ذلك فإنني لم أكن لأسمح لك مطلقاً بأن تنشر مثل تلك الخطابات. لقد أراد محامي والدك أن يجرني إلى موقف متناقض، فقدم فجأة إلى المحكمة خطاباً أرسلته إليك في مارس 1893، ذكرت فيه أنني بدلاً عن التعرض لتلك المشاجرات المريعة التي كنت تعاود افتعالها بدافع من السرور الفظيع، فإنني أفضل «تقديم الرشوة إلى كل مشهر في لندن»[1] فشعرت وقتها بحزن عميق، بعد أن رأيت هذا الجانب من صداقتنا يُكشَف للعامة بصورة مباشرة. غير أنني لم أتصور أن تكون بهذا القدر من قلة الفهم، وقصور الإحساس، وغباوة الإدراك، فلا تعرف قيمة الشيء النادر والجميل،

---

(1) إلى لورد ألفرد دوجلاس (1893)

فندق سافوي، لندن

أي أعز أولادي جميعاً

كان خطاباك ساراً، فقد كان بالنسبة إلي بمثابة النبيذين الأحمر والأصفر، غير أنني حزين ومكدر المزاج، بوسي، يجب ألا تدخل بمشاجرات معي، فهذه الامور تفتك بك، إنها تدمر جمال الحياة. إنني لا أستطيع أن أراك مزيجاً من الجمال والقبح، وقد شوهك الانفعال بهذا الشكل، إنني لا أستطيع ان أستمع إلى شفتيك وقد تقوستا لتقول لي أشياء قبيحة. بل إنني أفضل أن «أدفع رشوة لكل مشهر في لندن» على أن أتعرض لبغضك الحائر المرير. يجب أن أراك حالاً فأنت الشيء المقدس الذي أصبو إليه، الشيء الذي يجمع بين الحسن والجمال، غير أنني لا اعرف كيف بمكن لي ذلك. فهل بإمكاني ان آتي إلى سالزبوري؟ إن قائمة حسابي هنا 49 جنيها عن الأسبوع. غير إنني حصلت أيضاً على غرفة جلوس جديدة تطل على نهر التايمز، فلم لا تكون هنا معي يا عزيزي، يا أعجب ولد لي؟ أخشى أن أضطر إلى المغادرة، فليس هناك نقود، ولا رصيد، وإنما هو قلب من رصاص. المخلص لك أوسكار.

بل وتفكر في نشر الخطابات التي كنت أحاول فيها أن أحتفظ بروح الحب حية في داخلي لعلها تستوطن جسدي خلال السنوات الطويلة التي تعرض فيها هذا الجسد إلى الإذلال. والواقع أن هذا كان ولا يزال من أشد أسباب ألمي، وأسوأ أنواع الخيبة. فلم فعلت ذلك. أخشى أن أقول إنني أعلم، بل وأعلم جيداً. فإذا كان البغض يعمي البصائر، فإن الغرور يخيط الجفون بأسلاك من حديد! ولا عجب، فقد كانت «القدرة العقلية التي نستطيع بها وحدها أن نفهم الآخرين في علاقاتهم الواقعية والمثالية» آلة حادة فيك، اكتسبت حديتها من أنانيتك الضيقة وجعلها طول عدم الاستعمال عديمة الجدوى. لقد كانت مخيلتي خصبة طوال الفترة التي قضيتها في السجن، أما أنت فقد أوصد غرورك كل النوافذ ووقف عليها حارس يدعى البغض.

***

إن المعاناة لحظة ممتدة، لا يمكننا تجزئتها حسب الفصول، وإنما نستطيع فقط أن نسجل نوباتها، ونؤرخ تكرارها. فبالنسبة لنا، الوقت بحد ذاته لا يتقدم، بل يدور، كأقرب ما يكون من دائرة تلتف حول مركز واحد من الألم. إن الجمود المشل لحياة قهرتنا ظروفها على نحو لا يقبل التغيير، نأكل فيها ونشرب، ونمشي ونضطجع، ونصلي، أو نركع كأقل ما يفعل المصلون، نفعل كل هذا تحت قوانين صلدة بقاعدة من حديد. هذه الحالة من الجمود جعلت من كل يوم نسخة مكررة عن سابقه في أدق تفاصيله المريعة، وغدونا نستجدي القوى الخارجية التي يتغير جوهرها باستمرار، كأن يحين موعد زرع البذور أو جني الثمار، وينحني المزارعون لاقتلاع الذرة أو قطف العنب الذي يتأرجح بين الكروم، ومنظر العشب في البساتين التي تبدو بيضاء مع

جميع الزهور المتكسرة، أو تلك التي تناثرت مع الفاكهة التي سقطت من الأشجار بعد اكتمال نضجها. لكل هذا الذي لا نعلم عنه شيئاً، ولا نستطيع أن نعلم، فليس لمثلنا سوى موسم واحد، وهو موسم الأسى.

تبدو الشمس والقمر كأنهما قد سلبتا منا. في الخارج، ربما يكون الصباح مشرقاً أو تكون السماء زرقاء، غير أن الضوء الذي يتسلل من خلال زجاج مكتوم لنافذة مغطاة بقضبان حديدية، يأتي رمادياً ومعتماً. فيكون الوقت دائما هو الغسق في الزنزانة. وهو الظلام الدامس في القلوب.

وليس الحال في دائرة الفكر بأقل حالاً من دائرة الزمن، فالأمور التي كنت قد نسيتها شخصياً منذ زمن بعيد، أو التي تناسيتها بسهولة، تعود الى ذاكرتي الآن بإلحاح، وستعود إلي غدا مرة أخرى، تذكر هذا جيداً، حتى تدرك ولو قليلا لماذا أكتب إليك، ولماذا أكتب بهذه الطريقة.

بعد مضي أسبوع أُنقَل إلى هذا المكان، وبعدها بثلاث شهور، تموت أمي، التي لا يعلم أحد كم أعظمت من قدرها وأحببتها بعمق، ولكنني على الرغم من ذلك، تجرعت حزني وعاري، ولم أقو على التعبير عن حزني برحيلها وشعوري بالعار من نفسي من خلال الكلمات.

لقد أورثتني أمي ووالدي اسماً مشرفاً ونبيلاً، لا يتعلق بالأدب والفن والعلوم فحسب، بل في التاريخ العام لوطني بأكمله، وفي تطوره كشعب، فكان أن لطخت شرف ذلك الاسم إلى الأبد، لقد جعلت منه مثلاً سافلاً بين أناس من السفلة، ومرغته في قاع الوحل، وسقته للوحوش ليسبغوا عليه من صفاتهم وإلى الحمقى ليجعلوا منه مرادفا للحماقة.

جميع ما عانيته لاحقا، وما زلت أعانيه، لا يمكن للقلم أن يخطه، أو

للورق أن يحتفظ به.

لطالما كانت زوجتي عطوفة وفي غاية الاحترام معي، فبدلا من أن تدعني أتلقى الخبر من شفاه الغرباء الجافة، أثقلت على نفسها عناء السفر وهي مريضة، طوال الطريق من «جينوى» إلى إنجلترا، لتدلي إلي بنفسها، خبر تلك الخسارة التي لا تُسترد ولا تعوض.

لقد وصلتني الكثير من الرسائل من الأشخاص الذين لا يزالون يكنون المودة لي، وحتى من الأشخاص الذين لم يعرفوني شخصياً، وسمعوا بالمآسي التي ألمت بي مؤخراً، فأرسلوا يعبرون عن حزنهم وتعاطفهم. ثم تمضي ثلاث شهور أخرى، فأدرك بأن الوقت هو مايو، يخبرني بذلك التقويم المعلق على باب زنزانتي من الخارج، والمدون عليه اسمي وتاريخ اعتقالي ومدة حكمي ويشير إلى سلوكي وما أعمله.

إن الرخاء والمتعة والنجاح، قد تكون مثل الحبوب جميعها خشنة ومشتركة في أساسها، بينما يتصدر الحزن أكثر الأشياء حساسية على وجه الخليقة.ولا يوجد شيء يهز عالم الفكر سوى ما يصله من ذبذبات الحزن وخفقانه المريع، إن ورقة من ذهب، في أدق وأهش صورها، لهي خشنة مقارنة بالحزن، إنه جرح ينزف عندما تمسكه الأيدي، سوى يد الحب، الذي تدميه من غير ألم.

أينما يوجد الحزن، توجد أرض مقدسة. سيدرك الناس تلك الحقيقة في يوم من الأيام، وسيكون كل ما عرفوه قبلها محض هراء.

***

عندما قادني جنديان من زنزانتي الى محكمة الإفلاس، وجدته ينتظرني

في الممر المعتم الطويل، أمام جمهور من الناس المنشغلين بأعمالهم، واللائذين خلاله بالصمت، وقد رفع قبعته إليّ بحزن، بينما كنت أمر أمامه مكبل الأيدي ومنحني الرأس.

لقد ذهب رجالٌ إلى الجنة لأمور أصغر من هذه. بمثل هذه الروح، وهذه الطريقة في المحبة، ركع القديسون ليغسلوا أقدام الفقراء، وانحنوا مقبلين الأبرص على خده.

لم أقدم على الحديث معه مطلقاً حول ما فعله، ولست أعلم حتى هذه اللحظة ما إذا كان قد أدرك أنني كنت على علم بصنيعه. لم أستطع ان أرد امتناني من خلال عبارات الشكر الرسمية والكلام المنمق، ولكن كنزته في صميم قلبي، واحتفظت به كدين خفي، تسرني فكرة أنني عاجزٌ عن سداده أبداً، بعد أن انهمرت العطور العذبة المنسكبة من دموعي، وعندما أصبحت الحكمة عديمة الجدوى، وضروب الفلسفة عقيمة المعنى، وغدت تعازي المشفقين كالغبار في فمي، تعود لي ذكرى هذا العمل الصامت الجميل، الذي ألغى كل ينابيع الاسترحام والشفقة، وغدت صحرائي زهرية كالورود وأخرجني من مرارة منفاي الوحيد إلى وئام مع الجرحى المكسورين، الذين هم قلب العالم النابض.

عندما يكون الناس قادرين على فهمِ، ليس فقط كم كان الأمر جميلاً، ولكن لماذا يعني ذلك الكثير بالنسبة لي، وسيعني دائماً الكثير، لعلهم وقتها يدركون كيف وبأي روح يجب أن يقتربوا مني

الفقراء أبلغ حكمة، وأكثر خيراً، ولطفاً، وأشد حساسية مما نحن عليه. فالسجن في نظرهم ليس سوى مأساة في حياة الإنسان، مجرد سوء

طالع، أو محنة صعبة، شيء خطير يحرك شعور التعاطف لدى الآخرين. إنهم يتحدثون عن الشخص الذي يذهب الى السجن كشخص «عالق في ورطة». وهي العبارة التي يستخدمونها دائماً، ببالغ من الحكمة وبتعاطف مثالي، لا يوجد له نظير فيمن هم من طبقتنا.

فالسجن في نظرنا يجعل من المرء منبوذاً، ولمن هم بمثل حالي، يكاد ألا يكون لنا أي حق في الهواء والشمس، ووجودنا يكدر صفو ملذات الآخرين. وعندما نعاود الظهور نصبح غير مرحب بنا، نتوق إلى التأمل في القمر كل مساء. ويأخذون منا أطفالنا بعيدا، وبذلك تغدو جميع الروابط الإنسانية العزيزة مقطوعة، نحن محكومون بأن نبقى انفراديين، بينما أبناؤنا ما زالوا يعيشون. لقد حُرِمنا من الشيء الوحيد الذي قد يُشفينا ويمنحنا البقاء، الشيء الوحيد الذي يروي ظمأ القلب، ويدخل الطمأنينة للروح التي تتألم.

يجب أن أعترف بأنني الذي دمرت نفسي، وأنه لا يمكن لأحد أن يدمر شخصاً كبيراً كان أم صغيراً، إلا إذا فعل ذلك بنفسه. أنا على استعداد تام لقول ذلك. وأن أعلنه أمام الجميع، على الرغم من أنهم لا يكترثون بي في الوقت الحالي، ولكنني أحمل هذا الاتهام الشنيع دون أن أشعر بالشفقة على نفسي، كان ما فعله العالم بي سيئاً، ولكن ما فعلته بنفسي كان أشد فظاعة.

كنت رجلاً قد أبحر في علاقات رمزية مبنية على الثقافة والفن المرتبط بجيلي. لقد وصلت إلى ما صرت عليه في عنفوان شبابي، وأجبرت نفسي بذلك العمر على إدراك ذلك الكم من المعارف والفنون، بينما كان عدد قليل من الرجال يتمسكون بمثل هذا المركز في

حياتهم، ويحملون غيرهم على الاعتراف به. فمثل هذا الأمر، إن حدث التفات إليه، لا يلتفت له إلا المؤرخين أو النقاد، بعد فترة طويلة من وفاة الرجل وانقضاء عمره. ولكن بالنسبة لي كان الأمر مختلفا. لقد آمنت بنفسي، وجعلت الآخرين يؤمنون بي. كان بيرون شخصية رمزية، ولكنه ارتبط بشغف بعلاقات من جيله وتأثر بسخطهم العاطفي. أما أنا، كانت علاقاتي أكثر نبلاً ودواماً، وأوسع انتشارا.

لقد منحتني الآلهة كل شيء تقريبًا. ولكنني غررت بنفسي وتساهلت بقضاء فترات طويلة من حياتي بلا معنى أسعى من أجله، وبلا إحساس أتعلق به، غدوت عبثياً، مختالاً من الطراز الأول، ومواكباً لآخر صيحات الأزياء. ثم أحطت نفسي بأحقر الطبائع وأردى العقليات، كنت المدمر الوحيد لعبقريتي الخاصة، ولكن الغريب أن ضياعي وإهداري لشبابي كان يهبني شعوراً خاصاً من البهجة. السأم من البقاء على القمة دائماً، جعلني أخطو بخطى واثقة نحو القاع السحيق، باحثاً هناك عن إثارة جديدة، وأصبح انحرافي العاطفي متزامنا مع مثيله الفكري. تعاظمت الرغبة حتى غدت سقماً، أو جنوناً، أو كلاهما معاً. وبت غير مبال بحياة الآخرين، ناهلاً من غمار الملذات أينما وجدت فيها مسرتي، تناسيت أن بمقدور كل عمل صغير أرتكبه يوميا أن يكسبني أو أن يفقدني أخلاقي وسمعتي، لذا إن ما يرتكبه المرء سراً في غرفته سيبكي عليه نائحاً على سطح منزله، لقد توقفت على أن أكون سيداً لنفسي ولم أعد مسيطراً على عاطفتي، لقد جهلتها تماماً، وانصعت أمام رغباتي المجردة. فانتهيت إلى عارٍ مريع. ولم أعد أملك سوى أمر واحد فقط، وهو الخضوع المطلق.

لقد وقعت في السجن منذ قرابة العامين. طبيعتي جلبت لي اليأس

القاتل. والاستسلام للحزن المثير للرثاء؛ الغضب العنيف، المرارة والاحتقار. المعاناة التي تبكينا بصوت عالٍ؛ البؤس الذي يصرعنا بلا صوت، إحساسي بالتعاسة على نحو غبي. لقد مررت بكل مزاج ممكن من المعاناة. وأدركت ما عناه «وردزورث» أكثر مما أدركه هو نفسه عندما قال:

«المعاناة دائمة وغامضة ومظلمة

ولديها طبيعة الأبدية.»

لقد مررت بأوقات كنت فرحاً بها بفكرة أن معاناتي بلا نهاية، ولكنني لم أستطع تحمل أن تكون آلامي دون معنى. أما الآن فإنني أحس شيئاً مختفياً في أغوار طبيعتي، يخبرني أن لا شيء في هذا العالم بلا معنى، وأن الألم ليس بأدنى الأشياء في ذلك. وهذا الشيء الذي يختفي في أغوار طبيعتي،، كما يختفي الكنز في حقل، هو التواضع.

إنه آخر الأشياء التي بقيت لي، وهو أحسنها. كان الاكتشاف النهائي الذي توصلت إليه، ونقطة البدء لتطور جديد. لقد جاءني مباشرة من نفسي؛ وعلمت أنه قد جاء في الوقت المناسب. فلم يكن من الممكن أن يأتي متقدماً أو متأخراً، ولو حدث أن أحداً أخبرني به في وقت سابق لكنت نبذته؛ ولو حدث أن جيء به إليّ لكنت رفضته تماماً، ولكنني اكتشفته بنفسي، وهذا ما يجعلني متمسكاً به بحتمية كاملة، إنه الشيء الوحيد الذي اجتمعت به عناصر الحياة (حياة من طراز جديد). ومن بين جميع الأشياء المحتملة يكون هو أشدهم غرابة، فالمرء لا يستطيع أن يطرحه جانباً، وليس في مقدور أحد أن يمنحه للآخر، ولا يستطيع أحد أن يحصل عليه مالم يكن قد تخلى عن كل شيء سابق، كما أن المرء لا يدرك أنه قد حصل عليه إلا عندما يفقد كل شيء آخر!

أدركت الآن أنه في داخلي، أرى بوضوح تام ما يجب علي فعله. في الواقع، يتحتم علي ذلك، وعندما أستخدم عبارة كهذه، فلا تظن أنني ألمح إلى أي عقوبات أو أوامر خارجية. أنا أعترف ولا شيء آخر، أقر بأنني سجين غارق في توحده، أكثر من أي وقت مضى. وفي نظري، لا شيء يبدو ذا قيمة إلا ما يحصل عليه المرء من نفسه، تبحث طبيعتي عن طريقة جديدة لتحقيق الذات، وهذا كل ما يهمني. وأول خطوة في ذلك، أن أحرر نفسي من جميع مشاعر الحنق الممكنة تجاه العالم.

أنا مفلس تماماً، وأيضاً بلا مأوى. ومع ذلك، هناك ما هو أسوأ في العالم من ذلك. أنا صريح عندما أقول إنه بدلاً من الخروج من هذا السجن مواجهاً العالم بالحنق الذي في قلبي، أود بكل سرور أن أتوسل الخبز من الباب إلى الباب. فإذا لم أحصل على شيء من بيت الأثرياء فسأجد ما يكفيني في بيوت الفقراء، فمن لديه الكثير يكون أنانيا في أغلب الأحيان؛ أما من لديه القليل فيكون معطاء دائماً.

لم أكن لأُمانع للحظة واحدة بأن أنام مستلقياً على العشب البارد في الصيف، فإذا حل الشتاء آويت إلى سقيفة من القش أو احتميت في إسطبل الحقل، شريطة أن يكون قلبي عامراً بالحب.تبدو لي جميع أمور الحياة ثانوية بعد ذلك. يمكنك أن ترى مدى شدة النزعة الفردية التي وصلت إليها ـ أو التي أقترب من بلوغها، لأن الرحلة طويلة، و«حيثما أسير هناك أشواك».

إنني أعلم بالطبع أن استجداء الصدقة في الطرقات لا يعود علي بالنفع، وأنني إذا استلقيت على العشب البارد في الليل، فمن أجل أن

أكتب السوناتات إلى القمر. عندما أخرج من السجن، سوف يكون «ر»[1] بانتظاري على الجانب الآخر من البوابة الكبيرة المرصوفة بالحديد، إنه رمز حي، ليس ممثلاً لعاطفته الخاصة فحسب، بل لجميع عواطف الآخرين التي تقف بجانبه. أعتقد أن لديّ ما يكفي للعيش لمدة ثمانية عشر شهراً بأي حال، وإذا لم يتسنَ لي كتابة كتب جميلة، فإنني ـ على الأقل ـ سوف أقرأ كتباً جميلة، وأي سرور أعظم من ذلك! وأرجو بعدها، أن يكون بمقدوري استعادة ملكاتي الإبداعية من جديد

ولكن إذا جاءت الأمور على نحو مختلف، فلن أجد صديقاً ينتظرني في هذا العالم. ولن يكون هناك بيت واحد يفتح أبوابه لي، حتى ولو بدافع الشفقة وأن أرتدي أخشن الثياب من الفقر المدقع وأنني، طالما كنت متحرراً من جميع مشاعر الاستياء والصلافة والازدراء، فسوف أكون قادراً على مواجهة الحياة بهدوء وثقة أكبر بكثير مما كنت سأكونه وأنا أرتدي ثياب الكتان الأرجوانية الرقيقة، بينما روحي في الداخل مريضة بالكراهية. لن أواجه عقبة في طريقي.

عندما تريد أن تحصل على الحب بصدق، سوف تجده بانتظارك.

لا أحتاج لأن أقول بأن مهمتي لا تتوقف عند هذا الحد، ولو كان الأمر كذلك لكان أكثر سهولة. يوجد أمامي الكثير. تلال أكثر انحدارا لأتسلقها، ووديان أكثر قتامة لأخترقها. وأنا وحدي من سأفعل ذلك بنفسي. فليس بإمكان الدين أو الأخلاق أو المنطق بأن يساعدوني على الإطلاق.

الأخلاق لا تساعدني. فقد ولدت متناقض المبادئ. فلقد كنتُ واحداً

(1) إشارة إلى «روبرت روس» صديق أوسكار وايلد المقرب.

من أولئك الأشخاص الذين خلقوا من أجل الاستثناءات، لا من أجل القوانين. فلست أعبأ بما يرتكبه المرء من خطايا، ولكن بما سيصير إليه من السوء بعدما يرتكبها. جديرٌ بك أن تعلم ذلك.

الدين لا يساعدني. الإيمان الذي يعطيه الآخرون لما هو غير مرئي، أعطيه لما يستطيع المرء أن يلمسه وينظر إليه. آلهتي تسكن في المعابد المصنوعة بالأيدي، وضمن دائرة التجربة الفعلية، أصبحت عقيدتي مثالية وكاملة، بل فائقة الكمال، ومثل العديد من أولئك الذين أقاموا فردوسهم الخاص في هذه الأرض. لم أجني جمال النعيم فحسب، بل ورعب الجحيم أيضاً.

كلما فكرت في الدين، شعرت برغبة في تأسيس مذهب خاص لأولئك الذين فقدوا القدرة على الإيمان، يمكن لأحدهم أن يطلق عليه اسماً مثل: أخوية الكافرين، حيث تُقَام مراسمها بواسطة كاهن لا يعرف السلام طريق إلى قلبه، يحتفلون بالخبز المحروم من البركة، وكأس فارغة من النبيذ.

يجب أن يكون هناك دين لكل ما هو صحيح، وأن تُقام شعائر للاأدريين لا تقل شأناً عن شعائر المؤمنين. فكما زرعوا شهداءً على مدى العصور، يجب أن يحصدوا قديسين بالمقابل، وأن يمجد اللّه يومياً لاختفائه عن الناس. لكن سواء كان ذلك إيمانا أو إلحادا، فيجب أن لا يكون قد فُرض علينا من الخارج. بل أن نكون نحن من صنعنا رموزه بأنفسنا. فتأخذ روحانياتنا شكلها الخاص لكلٍ منا. فإذا لم تكن قد وجدت سرها في نفسك، فلن تجده أبداً، ولن تأتي إليك بمفردها، مالم تكن قد ظفرت بها مسبقاً.

المنطق لا يساعدني. ويخبرني أن القوانين التي أُدِنتُ بموجبها هي قوانين خاطئة وغير عادلة، والنظام الذي عانيت بسببه هو نظام آثم وجائر. ولكن بطريقة ما، كان عليَّ أن أعيد تصور هذه القوانين والأنظمة لتبدو صحيحة وعادلة. تماما مثلما هو الحال مع الفنان، يشغله معنى أشياءٍ خاصة خلال أوقات محددة وتصوره الخاص تجاهها، وكما يكون التطور الأخلاقي لشخصية المرء خلال حياته. عليَّ أن أعيد تصور ما حصل لي بطريقة عكسية. السرير القاسي، الطعام المنفر، والحبال القاسية التي كنا نمزقها بأيدينا إلى أن نفقد أحساس الألم في أصابعنا، والخدمات الحقيرة التي كنا نؤديها منذ إشراقة الصباح الباكر إلى نهاية المساء، والأوامر القاسية التي غدت إلزامية بفعل الروتين، واللباس المروع الذي يضفي علينا طابعاً حزيناً ومنفراً عندما تتأملنا الأعين، الصمت، العزلة، العار ـ جميع هذه الأمور يتحتم عليَّ أن أتصورها كتجربة روحية. ولم أمنع نفسي من تجربة كل إهانة مر بها جسدي وتحويل الناتج من ألمها إلى متنفس روحي.

أريد أن أصل إلى الحد الذي أكون فيه قادراً على القول بكل بساطة، وبلا تكلف: إن نقطتي التحول الكبيرتين في حياتي كانتا حينما أرسلني والدي إلى أوكسفورد، وعندما أرسلني المجتمع إلى السجن. لن أقول بأن السجن هو أفضل شيء يمكن أن يحصل لي: لأن عبارة كهذه ستذيقني مرارة بالغة الأسى تجاه نفسي. كنت أقول منذ عهد قريب، أو أسمع من يتحادث عني، بأنني كنت طفلاً نموذجياً بالنسبة لعمري، ومن أجل طبيعتي المنحرفة، التي تسوقها غايتي في الفساد، استطعت أن أحول الأشياء الحسنة في حياتي إلى سيئة، والأشياء السيئة إلى حسنة.

ما يُقال، سواء مني أو من الآخرين، لا يهم. الشيء الوحيد الذي يهمني

الآن وما يكمن أمام ناظري، ويتحتم عليّ فعله، حتى لا أمضي البقية القصيرة من حياتي بصورة مشوهة أو ناقصة، هو أن أتشرب جميع ما حصل لي، وأجعله جزءاً من طبيعتي، فأتمكن من تقبله من دون شكوى أو خوف أو تردد. إن السطحية هي أعظم الرذائل، والحقيقة هي ما قد قمت بإدراكه بعمق.

في اللحظة الأولى من دخولي الى السجن نصحني بعض الأشخاص بأن أنسى من أكون، كان هذا ليدمرني، فقد كان إدراكي لذاتي هو الشي الوحيد الذي يبعث الطمأنينة لنفسي، أما الآن فينصحني آخرون بأنه في حال خروجي من السجن فإن علي أن أنسى بأنني كنت مسجوناً في يوم من الأيام، لم تكن هذه النصيحة بأقل فتكاً من سابقتها، يعني ذلك بأن شعوراً غير محتمل من العار سيترصدني أينما حللت، وأن جميع الأمور التي تستهويني مثل أي شخص آخر ـ جمال الشمس والقمر، وتتابع الفصول، وموسيقى الفجر الحالمة وصمت الليل المهيب، والمطر المتساقط من بين الأوراق، أو الندى الزاحف على العشب، مضيفا له بريق الفضة ـ ستكون جميع هذه المشاهد ملوثة في ناظري، وستفقد قدرتها على الشفاء، وسحرها في توصيل السرور. إن من ينبذ تجاربه الخاصة، فإنه يوقف تقدمه. ومن ينكرها فإنه يختم على شفاهه كذبة أبدية، وليس هذا بأقل سوءاً من إنكار الذات.

فكما أن الجسم يتشرب أشياء عادية وغير نقية، بجانب تلك التي يطهرها الكاهن ويجلوها بما يتلوه من صلوات، ليُعاد تحويلها جميعا إلى طاقة وقوة ظاهرة تتبدى في حركة العضلات المتناسقة وتقسيمات رشيقة للجسد، وإلى تموجات وألوان للشعر، وإلى شفاه ناطقة، وعيون ناظرة؛

كذلك تفعل الروح بدورها، إذ إن لها هي الأخرى طرائقها في استمداد القوة وتسخيرها، فبمقدورها أن تتحول إلى مزاج فكري نبيل ومشاعر بالغة في الأهمية، بعد أن تشكلت من أُسس قاسية ومنحطة؛ وربما قد تميل إلى هذه الأنماط وتجدها أكثر مهابة ورسوخاً، وتكشف نفسها بمثالية كاملة للغاية عوضاً عما كان يهدف إلى تدنيسها وتحطيمها.

يجب عليّ بصراحة أن أتقبل حقيقة أنني كنتُ واحداً من نزلاء السجن العام، وقد يأخذك العجب عندما تعرف أن واحداً من الأمور التي كنت ألقنها لنفسي وهي أنني يجب أن لا أخجل من هذه الحقيقة، وأن أتقبلها كنوع من العقاب، وإذا خجل المرء من حقيقة عقابه، فكان حرياً به أن لا يعرض نفسه للعقاب من الأساس. بالطبع كانت هناك الكثير من الأمور التي أُدِنت بها من دون أن أكون قد ارتكبتها، ولكنني بالمقابل أُدِنت بغيرها من التهم التي كنت قد ارتكبتها فعلاً، وما زال هناك عدد أكبر من الجرائم التي ارتكبتها ولم توجه لي تهم بشأنها. وبما أن الآلهة تتصرف على نحو غريب، فتعاقبنا على تصرفاتنا الخيرة والإنسانية بقدر ما تعاقبنا على شرورنا وانحرافنا، فيجب أن أقبل حقيقة أن يُعاقب المرء من أجل الخير الذي يصنعه ويُعاقب كذلك على الشر الذي يرتكبه. ليس لديّ أي شك في أن هذا وضع صحيح بالنسبة إلى كل الناس. فهو يساعد المرء أو ربما سيساعده مستقبلاً على إدراك الأمرين، فلا يذهب بعيداً في انخداعه بأي منهما. وإذا تسنى لي أن لا أخجل من عقابي، كما آمل أن أكون، فسأكون وقتها قادراً على التفكير، والسير، والعيش بحرية.

إن العديد من الناس يحملون سجنهم معهم داخل أنفسهم بعد أن يُطلَق سراحهم، ويخفونه باستمرار كالعار في قلوبهم، مثل أشياء مسمومة

وحقيرة، يزحفون إلى بعض الثغور ثم يموتون فيها. إن من البائس أن عليهم أن يوجبوا أنفسهم على فعل ذلك، ومن الخطأ، بل من أشنع أنواعه، أن يجبرهم المجتمع على فعل ذلك. يأخذ المجتمع على عاتقه الحق في إلحاق العقاب المروع على الفرد، بينما تكمن في صلبه أرذل الخطايا، وهي السطحية. فهو يقف عاجزاً عن إدراك مغبة فعله. وعندما ينقضي عقاب الإنسان، يتركه المجتمع لنفسه. أي أنه يتخلى عنه في اللحظة التي يجب عليها فيها أن يبدأ بأهم واجباته نحوه. إنه يديم شعور العار لدى المعاقبين، ويتجنب مواجهتهم، كما يتجنب الناس الدائن عندما لا يستطيعون الوفاء بديونهم تجاهه، أو كما يتجنبون من ألحقوا بهم أذى لا يقبل العلاج أو الإصلاح. إنني أقف مطالباً بدوري في أنني إذا كنت قد أدركت ما عانيت، فعلى المجتمع بالمقابل أن يدرك ما أوقعه عليّ. دون أن يحمل أي طرف مرارة في قلبه على الآخر بالطبع، أعلم أن رؤية الأمور من وجهة نظر واحدة، ستكون مختلفة بالنسبة لي عمن سواي، وبطبيعة الحال فإن اللصوص والمنبوذين الذين يسجنون معي هنا هم في كثير من الأحيان أوفر حظاً مني. الطريق الضيق الذي كان شاهداً على خطيئتهم في المدينة الضبابية أو الحقل المعشب كان صغيراً؛ فهم لا يحتاجون إلى الذهاب أبعد مما يقطعه طير في التحليق بين وقت الشفق وحتى طلوع الفجر ليُقبَض عليهم وهم لا يعلمون سبب إدانتهم، ولكن بالنسبة لي فإن العالم قد انكمش إلى قبضة يد، وأينما أدرت وجهي وجدت اسمي منقوشاً بالرصاص على الصخور. فأنا لم أكن مجهولاً، ولم يكن عار جريمتي مؤقتاً، بل أبدياً، من ضرب الشهرة الأبدية إلى ضرب أبدي من العار، ويبدو لي أحياناً أنني أظهرت ما كان يستحق الإظهار فعلاً، وهو أن الفرق

بين ذائع الصيت وسيء السمعة، لا يعدو خطوة واحدة، وبقدر واحد من المساواة ومع ذلك، فمن هذه الحقيقة نفسها، وهي أن الناس سيميزونني أينما ذهبت، وسيعرفون كل شيء عن حياتي، بقدر ما فيها من حماقات، وبالنسبة لي فلم يزل بمقدوري التعرف على شيء مميز يخصني، وهذا سيفرض علي ضرورة العودة إلى إثبات وجودي بوصفي فنان مرة أخرى، وبأسرع ما أستطيع فعله، فإذا كان بمقدوري أن أخرج ولو بعمل جميل من أعمال الفن، فسأتمكن وقتها من نزع سموم الضغينة، وسخرية الجبناء، وأقتطع لسان الاحتقار من أصله.

وإذا كانت الحياة قد سببت مشكلة بالنسبة لي، وهي كذلك بالتأكيد، فقد سببت بدوري مشكلة لها. كان على الناس أن يتخذوا حيالي موقفاً ما، ثم يصدرون أحكامهم عليَّ وعلى أنفسهم. لست بحاجة إلى القول بأنني لا أتحدث هنا عن أناس معينين. وحدهم الفنانون والمعذبون من كنت سأهتم بشأنهم، أولئك الذين يعرفون ما هو الجمال، وأولئك الذين يعرفون ما هو الحزن: ليس سواهم من يهمني. إنني لا أقدم أي مطالب تجاه الحياة، ففي كل ما ذكرته لا أجد اهتمامي ينحصر سوى بموقفي الذهني تجاه الحياة ككل؛ وأشعر أن عدم الإحساس بالخضوع للعقاب هو أحد النقاط المهمة التي يجب عليَّ تحقيقها، من أجل تحقيق كمالي الخاص، لأنني لا أزال بعيداً عنه.

ثم يجب أن أتعلم كيف أغدوا سعيداً. كما كنت أعرف ذلك سابقاً، أو اعتقدت أنني عرفته من خلال غريزتي، كان الربيع هو موسم قلبي الدائم. ومزاجي محتفلاً بالأفراح، لقد ملأت حياتي بأقصى أنواع المتعة والسرور، حيث كان للمرء أن يملأ فنجان النبيذ إلى حافته. أما الآن

فأنا أقترب من فهم الحياة من وجهة نظر جديدة تماماً، وحتى تصوري للسعادة بات صعباً جداً.

أذكر حينما كنت في المرحلة الأولى من دراستي في أكسفورد، أنني قرأت لـ والتر بايتر كتاب «النهضة THE RENAISSANCE» ذلك الكتاب الذي كان له تأثيرٌ عجيب على حياتي ـ كيف أن «دانتي Dante» وضع في أعماق جحيمه المتصور أولئك الذين يتعمدون العيش بحزن. ثم ذهبت يومها إلى مكتبة الكلية، ورجعت إلى كتاب «الكوميديا الإلهية DIVINE COMEDY» حيث وقع ناظري على الفقرة التي جاء فيها أن المستنقع الكئيب للجحيم يحتوي على أولئك الذين كانوا «عابسين بوجه الهواء الجميل»، قائلين في تنهداتهم إلى أبد الآبدين:

«حَزَانَى كنا في الهواء اللطيف

الممتزج بأشعة الشمس».

عرفت الكنيسة أدانت «أكسيدا ACCIDIA»، ولكن الفكرة برمتها تبدو لي مبهرة، مجرد نوع آخر من الخطايا، أعتقد ان من اخترعه هو مجرد كاهن لا يعلم شيئاً عن طبيعة الحياة. كذلك لم أفهم كيف استطاع دانتي، الذي يقول: «إن الحزن يزوجنا ثانية من اللّه»، أن يكون شديد القسوة تجاه أولئك المفتونين بالكآبة، فإن وجدت مثل هذه الحقيقة في يوم من الأيام. فستصبح أحد أكبر الإغراءات حياتي.

بينما كنت في سجن «واندزورث» كان توقي إلى الموت هو رغبتي الوحيدة. وبعد قضاء شهرين في المستوصف نُقِلتُ إلى هنا، ووجدت نفسي آخذاً في النمو بشكل تدريجي متعافياً بصحتي الجسدية، كنت ممتلئا

بالغضب، لأنني كنت مصمماً على الانتحار في اليوم نفسه الذي غادرت فيه السجن. ثم بعدها بفترة وجيزة تلاشت أفكاري الانتحارية، وحسمت أمري للعيش، ولكن لارتداء الكآبة كما يرتدي الملك ثيابه الأرجوانية، فقد عزمت على أن لا أبتسم أبدا مرة أخرى، وأن أحول أي بيت أدخله إلى دار عزاء، وأن أجعل أصدقائي يسيرون معي خاشعين في الحزن، حتى يعلموا أن الكآبة هي سر الحياة الحقيقي: فأمسخ طبيعتهم بحزن لم يألفوه، وأفسدهم بآلامي الخاصة. أما الآن فإنني أشعر بتمام الاختلاف، ولن يكون ناضجاً ولطيفاً أن أظهر وجهي العابس لفترة طويلة كلما جاء أصدقائي لزيارتي، لأنهم سيتكلفون إظهار الامتعاض على وجوههم متعاطفين مع حزني. أو إذا كنت أرغب في الترفيه عنهم، أن أدعوهم للجلوس بصمت إلى مائدة من الأعشاب المرة واللحوم الجنائزية. يجب أن أتعلم كيف أكون منشرحاً وسعيداً.

في آخر زيارتين لي بالسجن من قبل أصدقائي، حاولت أن أكون مبتهجاً قدر المستطاع، وأن أظهر سعادتي لهم، لكي أجعلهم يحصلون على عائد بسيط لعنائهم في الخروج من المدينة لمقابلتي. إنني أعلم أن هذا شيء قليل، كرد لجميلهم، ولكنني واثق بأنه سيشعرهم بالرضا. قابلت «ر» لمدة ساعة في سبت الأسبوع، وحاولت إظهار أقصى تعبير ممكن عن البهجة التي شعرت بها خلال اجتماعنا. أما ما يثبت وجهة نظري لما أقوم بتكوينه هنا من أفكار ومعتقدات فقد أظهرته هذه الحقيقة، وهي أنني للمرة الأولى منذ دخولي إلى السجن، أشعر برغبة صادقة في الحياة.

يوجد أمامي الكثير لأفعله، لأني سأعتبرها مأساة مروعة إن رحلت من الحياة قبل أن يُسمح لي بإكمال أي شيء من أحلامي. إنني أرى تطورات جديدة في الفن والحياة، كل منها يشكل حالة جديدة من

الكمال. أرغب بالعيش طويلاً حتى أتمكن من استكشاف ما لا يقل عن عالم جديد بالنسبة لي. هل تريد أن تعرف ما هو هذا العالم الجديد؟ أعتقد أنه يمكنك تخمين ما يكونه. إن العالم الذي أعيش فيه هو الحزن، وكل ما يلقنني إياه، هو عالمي الجديد.

اعتدت أن أكرس جميع حياتي من أجل المتعة. متجنباً المعاناة والأحزان من جميع أنواعها. لقد كرهتها كلها. وعقدت العزم على تجاهلها قدر الإمكان، وعلى معالجتها، كحالة من النقص. لم تكن أحزاني جزءاً من تكوين حياتي. لم يكن لديها موضع في فلسفتي. كانت أمي قد فهمت مغزى الحياة جيداً، وكانت في كثير من الأحيان تقتبس لي أحد سطور «غوته» GOETHE التي كتبها لها كارليل في كتاب أهداه إليها منذ عدة سنوات، وأحسب أنه ترجمه لها أيضا:

إن من لم يأكل قط خبزه بحزن

ومن لم يقضِ ساعات منتصف الليل

يبكي وينتظر الغد

لا يعرفك قط أيتها القدرة الإلهية

تلك كانت السطور التي استحضرتها ملكة بروسيا النبيلة في ذل الأسر الذي وقعت به، بعد أن أمعن نابليون في إذلالها ونفيها. وهي السطور ذاتها التي استحضرتها أمي في متاعب حياتها الأخيرة. أما أنا فقد رفضت أن أتقبل الحقيقة الهائلة التي ينطوي عليها معناها. لم أستطع أن أفهمها، وإني أذكر جيداً كيف مضيت أخبرها بأنني لا أريد أن آكل خبزي بأسى، ولست بحاجة إلى قضاء الليل في البكاء منتظراً الفجر المرير.

لم يكن لدي أدنى فكرة في أنها كانت واحدة من الأشياء الخاصة

التي كان يخبئها القدر من أجلي، وأنني لمدة عام كامل من حياتي لم يكن لدي إلا القليل لأعمله بجانب ذلك؛ وكان هذا هو الحال بالنسبة لي. وخلال الأشهر القليلة الماضية، تمكنت، بعد كفاح وصعوبات فادحة، من فهم بعض الدروس المخفية في قلب الألم. في بعض الأحيان يتحدث رجال الدين وأصحاب العبارات الجوفاء عن المعاناة كما لو كانت لغزاً غامضاً. ولكنها ليست كذلك في الحقيقة، بل هي كشف. يرى به الإنسان ما لم يره من قبل. ويدخل أعماق التاريخ من رؤية مختلفة عما سبق. وما كان يستشفه بإحساس الغريزة حول الفن، يصبح بإمكانه أن يميزه عقليا وانفعاليا في وضوح تام من الرؤيا وشدة متناهية من الإدراك.

إنني أؤمن أن الحزن يجسد العاطفة العليا لدى الإنسان، وهو رمز واختبار للفن العظيم. فما يبحث عنه الفنان دائماً هو تلك الحالة من الوجود التي تكون فيها النفس والجسد كتلة واحدة غير قابلة للتجزئة، تلك الحالة التي يكون فيها الظاهر مُعبراً عن الباطن، تلك التي تتيح للصورة بأن تكشف عن نفسها. يوجد الكثير من أنماط الوجود، قد يجسدها الشباب بما احتل الفن من تفكيره، وفي أوقات أخرى ربما نفضل أن نتأمل في أعمال الفن الحديث للمناظر الطبيعية، على أنها على قدر من الدهاء والتأثير على الإحساس المرهف، والإيحاء للروح التي تستوطن الأشياء الخارجية وتصنع كساءها من الأرض والهواء كما تصنعه من المدينة والضباب على حد سواء، وفي تعاطفه السوداوي بما تشمله أمزجته، ونغماته، وألوانه، إن فن المناظر الطبيعية الحديثة يحقق لنا بشكل تصويري ما

حُقِقَ من الكمال بواسطة البلاستيك من قبل اليونانيين. وللموسيقى القدرة على استيعاب جميع مكونات مواضيعها في التعبير من دون أن يُفصَل أي منها على الآخر، وهي تقدم مثالاً معقداً لما أعنيه، أما الطفل أو الزهرة فأمثلة بسيطة في التركيب، غير أن الحزن هو النمط النهائي في كل من الحياة والفن.

وراء الفرح والضحك يكمن مزاج قاس وصعب. أما الحزن فليس وراءه سوى الحزن. والألم لا يرتدي أي قناع، على عكس المتعة. إن الحقيقة في الفن لا تحوي أي تطابق بين الوجود العارض والفكرة الجوهرية. فليس هناك تشابه بين الشكل والظل، أو بين الصورة المنعكسة في المرآة والأصل، وهي ليست صدى صوت قادم من تل أجوف، وما كان أعظم من ذلك فهو لا يعدو أن يكون بئر للماء الفضي في الوادي، حيث يرى القمر ذاته ويرى «نركسوس»[1] انعكاس صورته بنرجسية.

وأكثر من ذلك، هناك حقيقة قاسية وغريبة تتعلق بالحزن، فقد قلت عن نفسي بأنني كنت واحدا ممن قاموا بإشادة صلات رمزية مع الفن والثقافة في عصري. وأقول إنه لا يوجد رجل بائس واحد بجواري في هذا المكان البائس لم يقم بإشادة صلات رمزية مع سر الحياة في صميمه، وذلك لأن سر الحياة هو الألم. وهو السر الذي يختفي وراء كل شيء. في بداية حياتنا

(1) نرجس أو نركسوس أو نرسيس باليونانية: (νάρκισσος) في المثيولوجيا والأساطير اليونانية نركسوس كان صياداً من ثيسبيا، بيوتيا اشتهر بجماله، كان ابن الإله كيفيسيا والحورية ليريوبي، كان مغروراً وفخوراً بنفسه لدرجة تجاهله وإعراضه عن كل من يحبه؛ لاحظت الإلهة نمسيس تصرفه ذاك وأخذته إلى بحيرة حيث رأى انعكاس صورته فيها ووقع في حبها دون أن يدرك بأنها مجرد صورة، أعجب بصورته لدرجة عجز فيها عن تركها ولم يعد يرغب بالعيش وبقي يحدق بصورته إلى أن مات.

يكون الشيء الحلو حلوا، والمر مرا، فلا يسعنا إلا أن نوجه جميع رغباتنا نحو السرور، وأن لا يقتصر بحثنا لمجرد (شهر أو شهرين لنعيش على قرص العسل)[1] بينما في بقية الأيام لا نتناول سوى غيره من الأطعمة، متجاهلين كل اللحظات اللي قضيناها في إجاعة أرواحنا.

وأذكر أنني تحدثت سابقاً في هذا الموضوع مع واحدة من أجمل الشخصيات التي عرفتها في حياتي: امرأة كانت قد أظهرت عطفاً نبيلاً تجاهي، قبل مأساة سجني وخلالها، عطفاً يفوق المقدرة والوصف، لقد ساعدتني حقاً من دون أن تعلم، على أن أحمل عبء مشاكلي أكثر من أي شخص آخر في العالم، وقد جاءتني هذه المساعدة من مجرد وجودها بجانبي، من خلال كونها مثالية من جانب، وقوية التأثير من جانب آخر، مصدر وحي بما قد يصير إليه المرء، وقوة مساعدة نحو ما هو صائر إليه؛ الروح التي تجعل الهواء المشترك لطيفاً، وتجعل الشيء الروحي يبدو ببساطة ضوء الشمس وطبيعة البحر. امرأة يسير جمالها وحزنها باتحاد جنباً إلى جنب، حاملين ذات الرسالة. في المناسبة التي قابلت فيها هذه المرأة أتذكر بوضوح كيف قلت لها إن معاناة واحدة في ممر ضيق في لندن كافية لإظهار أن اللّه لم يحب الناس، وإنه حيث وجد الحزن ولو اقتصر على بكاء طفل في حديقة صغيرة بسبب غلطة حدثت منه أو لم تحدث، فإن هذا يشوه وجه الخليقة بشكل كامل. قالت لي بأنني كنت مخطئاً تماماً، لكنني لم أصدقها. لم أكن في الوضع الذي يسمح بتسريب مثل هذا الاعتقاد. الآن يبدو لي أن هناك نوع من الحب هو التفسير الوحيد لما يحدث من معاناة في العالم. لا أستطيع تصور أي تفسير آخر. بل أنني مقتنع بأنه لا

(1) مقتبس من قصيدة للشاعر الإنجليزي ألجيرنون تشارلز بعنوان «قبل الفراق».

يوجد تفسير آخر، وأن العالم إذا كان قد بُني من الحزن كما قلت، فيجب أن يكون قد بُني بأيدٍ من حُب، وذلك لأن النفس البشرية التي صنع من أجلها العالم، لا تستطيع عن طريق آخر أن تصل إلى الحالة التامة لكمالها. السرور للأجساد الجميلة، أما الأرواح الجميلة فليس لها سوى الألم.

عندما أقول إنني على قناعة بهذه الأمور، فإنني أقول ذلك بالكثير من الفخر. فبعيدا عن هذا المكان، يمكن للمرء أن يرى مدينة اللّه كلؤلؤة مثالية، من الرائع أن تبدو وكأن الطفل يستطيع الوصول إليها حتى في أيام الصيف، والطفل بمقدوره أن يفعل ذلك ببساطة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لي ولأمثالي. يمكن للمرء أن يدرك شيئاً في لحظة واحدة، ولكنه يضيع من يديه في الساعات التي تتعاقب ببطء قاتل. من الصعب للغاية البقاء على «المرتفعات التي تصل إليها الروح». إننا نفكر في الأبدية، لكننا نتحرك ببطء عبر الزمن؛ لا أحتاج لأن أخبرك مرة أخرى كيف يمضي الوقت بطيئاً بينما أقبع في السجن، ولا عن كمية الضيق واليأس التي تتسلل مراراً إلى ذات الزنزانة، وإلى أعماق قلب السجين متملكة إصراراً غريباً، كما لو كان البيت يتزين في انتظار ضيفٍ غير مرحب به، أو عدوٍ لدود، أو عبد لا يملك أي مناص من الرضوخ لاستعباده.

وعلى الرغم من أن أصدقائي في الوقت الحالي قد يجدون صعوبة في تصديق ذلك، إلا أنه صحيح، ولأنهم يعيشون في كم من الحرية والراحة الوفيرة، فيصبح من السهل عليهم تعلم دروس التواضع أكثر مما أنا عليه، أبدأ يومي راكعاً على ركبتي ومنكباً على غسل أرضية الزنزانة. إن حياة السجن بما تحتويه من محرمات وقيود لانهائية، تجعل من المرء متمرداً، وأفظع ما يمكنها أن تفعله، أنها بدلاً من أن تكسر القلب ـ فالقلوب خُلقَت

لتنكسر ـ حولته إلى حجارة، أصبحت أؤمن بأن المرء لا يمكنه تجاوز الحياة هنا إلا إذا أوتي جبهة نحاسية وشفتان مهانتان. ثمة عبارة أغرمت الكنيسة بالاستشهاد بها وهي أنه من كان في حالة من التمرد لا يمكنه أن يحوز على بركة السماء، وأحسبها على حق في ذلك، ففي الحياة كما في الفن يغلق مزاج التمرد قنوات الروح، ويمنع عنها أنفاس السماء. ومع ذلك، يجب أن أتعلم هذه الدروس هنا، إذا كان علي أن أتعلمها في أي مكان، ويجب أن امتلئ بالسرور إذا كانت قدماي على الطريق الصحيح، ووجهت وجهي تلقاء «البوابة التي يطلق عليها الجمال»، وإن كان من المحتمل أن أسقط عدة مرات في الوحل وأضل في الضباب.

هذه الحياة الجديدة، كما يدفعني حبي لـ«دانتي» أن أسميها، هي بالطبع ليست حياة جديدة على الإطلاق، بل هي استمرار لكل مراحل التطور التي خضتها في حياتي إلى أن ترقت إلى شكلها الحالي. أذكر أنني وقت كنت في أكسفورد كنت أتمشى ذات يوم مع واحد من أصدقائي في الممرات الضيقة التي تعشش فيها الطيور حول «مجدالن» وكان ذلك في يونيو قبل حصولي على درجتي الجامعية، فقلت إنني أشتهي تناول ثمار جميع أشجار الحدائق في العالم، كنت أخرج إلى العالم مع هذا الشغف في روحي. وهكذا قضيت أيامي.كان غلطتي الوحيد هو أنني قمت حصرا بالاهتمام في الشجر باعتباره الجانب المضاء بالشمس من الحديقة، وتجنبت الجانب الآخر بسبب ظله وكآبة. فالخيبة، والعار، والفقر، والحزن، واليأس، والمعاناة، والدموع، والكلمات المتكسرة التي تخرج من الشفتين بألم، الندم الذي يجعل المرء يسير على الشوك، والضمير المعذب، العقاب بجلد الذات، البؤس الذي يحثو بالتراب على الرأس،

الكرب الذي يختار من الثياب الخشنة ملبساً ويصب المر في شرابه، كل هذه الأشياء كانت تخيفني. ولكنني وقد صممت على أن لا أعرف شيئاً منها، فقد أُجبرت على أن أتذوق منها جميعاً، كل على حدة، وأقتات عليها، وأن لا يكون لي طعام آخر غيرها لفترة طويلة.

أنا لست نادماً على لحظة واحدة عشتها من أجل المتعة. لقد فعلت ذلك على أكمل وجه، كما يجدر بالمرء أن يفعل. لم يكن هناك أي متعة لم أختبرها. رميت لؤلؤة روحي في فنجان من النبيذ. وانحدرت في درب زهور الربيع الى صوت الناي. وعشت على قرص العسل. لكن كان من الخطأ الاستمرار في الحياة نفسها، لأنها كانت حياة محدودة. لذلك كان عليَّ أن أعبر إلى الجانب الآخر من الحديقة الذي كان له أسراره الأخرى التي تخصني.

كان كل ما مررت به قد ضمنته وتنبأت به في أعمالي. فقد جاء بعضه في «الأمير السعيد» وبعضها الآخر في «الملك الشاب»، ولا سيما في المقطع الذي يقول فيه الأسقف للصبي الراكع: «أليس هو الذي جعل البائس أكثر حكمة منك؟» ولم أكن أعدها حينها أكثر من جملة مصاغة في كتابي؛ بينما اختفى قدر كبير منها في أنغام القدر الغاشم، الذي ينساب خلال النسيج الذهبي لـ«دوريان جراي» كما ينساب خيط أرجواني، وعرضتها بألوان كثيرة في مقالتي «الناقد كفنان»، وفي «روح الإنسان»، كتبتها ببساطة وبحروف سهلة القراءة،؛ إنها امتزاج من متلازمة متكررة، تحيل «سالومي» إلى قطعة موسيقية فتتوحد مكوناتها لتغدو مثل قصيدة قصصية، كما أنه يبدو متجسداً في قصيدة النثر للرجل الذي حول الصورة البرونزية لـ«المتعة التي تعيش للحظة» إلى صورة «الحزن الذي يبقى إلى الأبد». لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. في كل لحظة من حياة الانسان، لا يقل

قدر المرء فيها مما كان عليه سابقاً. إن الفن رمز، وذلك لأن الإنسان رمز

إنه الإدراك النهائي للحياة الفنية، إذا استطعت تحقيقها بشكل كامل. وذلك لأن الحياة الفنية تطور ذاتي يمضي ببساطة. والتواضع في الفنان هو قبوله الصريح لجميع التجارب، كما أن الحب في الفنان هو ببساطة إحساسه بالجمال الذي يكشف للعالم جسده وروحه.

في «ماريوس الإبيقوري» MARIUS THE EPICUREAN يسعى «باتير» Pter إلى ايجاد توافق بين الحياة الفنية والحياة الدينية، بالمعنى العميق والجمالي والإيماني للكلمة. غير أن ماريوس لا يعدو أكثر من متفرج، متفرج مثالي في الواقع. وإنسان مطالب بـ«أن يتأمل في منظر الحياة بعواطف متناسبة»، وهو ما يعرّفه «ووردز وورث» بأنه الهدف الحقيقي للشاعر. ومع ذلك، فالمتفرج يبقى متفرجاً، وربما كان انشغال تفكيره بما في مقاعد المعبد من جمال، جعله لا يفطن بأن ما ينظر إليه هو معبد من حزن.

إنني أرى علاقة أوثق صلة وحميمية بين حياة المسيح الحقيقية والحياة الحقيقية للفنان. وأستمتع بسعادة بالغة في التأمل الذي جاء عقب فترة طويلة من الحزن الذي احتل أيام حياتي، وربطني بعجاله. كتبت بـ «روح الإنسان» أن من يعيش حياة متشبهة بالمسيح، يجب أن يكون تماما كالمسيح نفسه، وكبطل من أعمالي، ليس مجرد راعٍ فوق التل، أو سجين في زنزانته، بل أيضا الرسام الذي يكون العالم بالنسبة له معرضاً فنياً، والشاعر الذي يكون العالم في نظره أغنية. أذكر أنني قلت مرة لأندريه جيد بينما كنا نجلس معاً في إحدى المقاهي في باريس، أنه بينما لم تحز علوم الميتافيزيقا سوى على اهتمام قليل مني، وعلى اهتمام معدوم فيما يخص علم الأخلاق، لم

يكن هناك أي شيء مما قاله أفلاطون أو المسيح لا يمكن نقله مباشرة الى مجال الفن، وهناك يُجسد على أكمل معانيه المستوحاة.

ولا تقتصر رؤيتنا في المسيح على تلك الوحدة التامة بين الشخصية والكمال، والتي تشكل التمايز الحقيقي بين الحركة الكلاسيكية والرومانتيكية في الحياة، بل إن أساس طبيعة المسيح في صميمه كان هو ذاته أساس طبيعة الفنان ـ مخيلة شاسعة ومتوقدة.لقد أدرك في مجمل العلاقات الإنسانية أن العاطفة الخيالية هي سر الإبداع الوحيد في عالم الفن. لقد فهم جذام الأبرص، وظلام الأعمى، والبؤس القاتل لأولئك الذين يعيشون من أجل المتعة، والفقر العجيب لمن تصوروا أنهم أثرياء. كتب لي أحدهم في مصابي، «عندما لا تكون منتصباً على قدميك فإنك لا تثير اهتمامي.» كم كان بعيدا كاتب هذه الكلمات عما أسماه ماثيو أرنولد بـ«سر يسوع»، أن يعلم أن كل ما يحدث لشخص آخر سيحدث للمرء نفسه، وإذا كنت تريد كتابة نقش تقرأه كلما طلع الفجر أو حل عليك الليل، من أجل المتعة أو الألم، أُكتب على جدران منزلك بأحرف تسطع عليها أشعة الشمس، وتقع عليها أضواء القمر: «مهما يصيب الإنسان سيصيب غيره.»

منزلة المسيح هي في الحقيقة بين الشعراء، فقد نشأ مفهومه الكامل عن الإنسانية من الخيال مباشرة، ولا يمكن تحقيقه إلا من خلاله. لقد كان الإنسان في نظره، كما كان اللّه في نظر المؤمن، وكان هو أول من فكر في الأجناس المنقسمة كوحدة واحدة. قبل زمانه كان هناك آلهة ورجال، يشعرون من خلال تصوفهم وتعاطفهم بأن كل منهم قد تجسد في آلهته، ويطلق على نفسه: ابن اللّه أو ابن إله آخر، حيثما يرتأى مزاجه، كان المسيح أكثر شخص في التاريخ، أيقظ فينا شعور الدهشة الذي تولده الرومانتيكية

دائما. ولا يزال هناك شيء بالنسبة لي لا أقوى على تصديقه فكرة أن فلاح شاب من الجليل يتخيل أن بمقدوره أن يحمل عبء العالم بأسره على أكتافه. كل ما فعله الناس من قبل وما تألموا لأجله، وكل ما هو آت من معاناة وآلام: خطايا نيرون، وقيصر بورجيا، وألكسندر السادس، وخطايا الذي كان إمبراطورا لروما وكاهنا للشمس: آلام أولئك الذين كانت أسماؤهم «ليجون»[1] ويقيمون بين المقابر: القوميات المضطهدة، أطفال المصانع، واللصوص، ونزلاء السجون، والمنبوذين، وأولئك الذين قمعت ألسنتهم تحت الظلم، والذين لا يسمع صمتهم إلا اللّه؛ ولا يكتفي المسيح بمجرد تخيل كل هذا، ولكنه يمضي عملياً في تحقيق نبوءته، حتى صار كل الذين يتعاملون مع شخصيته، على الرغم من أنهم قد لا ينحنوا أمام مذبحه أو يركعوا تجاه كاهنه، يجدون على الرغم من ذلك أن قبح خطاياهم قد أُزيل بطريقة ما من أرواحهم، ليكشف لهم ما في أحزانهم من جمال!

لقد قلت إن مكانة المسيح بين الشعراء، وهذا صحيح. فشعراء مثل شيلي وسوفوكليس يقفون بجواره في الصف ذاته. غير أن حياة المسيح بأكملها هي أروع ما قيل من القصائد. لا يوجد في عصر المأساة اليونانية بأكمله ما يصل إلى «الشفقة والإرهاب». ففيها يرتفع النقاء المطلق للبطل إلى ذروة الفن الرومانتيكي الذي يُستبعَد من خلاله آلام «ثيبس وبيلوبس» بما فيها من رعب، وهي تظهر مدى الخطأ الذي ارتكبه أرسطو عندما قال في أطروحته عن الدراما إنه سيكون من المستحيل على المرء أن يتحمل مشهدا بريئاً في معاناته. لا في «اسخيليوس» ولا في «دانتي»، من هم سادة العبوس الممتزج بالحنان، ولا في شكسبير، أطهر أتباع الإنسانية بين

(1) ويعني الاسم: الفيلق أو الجيش.

جميع الفنانين العظماء، ولا في جميع الخرافات والأساطير «السلتية»، حيث يظهر جمال العالم من خلال غمامة من الدموع، وبدت حياة الإنسان وكأنما هي ليست أكثر من حياة زهرة، هل هناك أي شيء يمكن أن يُقال على قدم المساواة أو حتى الاقتراب من الفصل الأخير لآلام المسيح، من أجل بساطة متناهية للشفقة، متآلفة ومتحدة مع تأثير المأساوي. فالعشاء الصغير الذي كان مع رفاقه، باعه له أحدهم بمقابل، والكرب الذي قاساه في حديقة الزيتون الساكنة تحت ضوء القمر، والصديق الزائف يقترب منه ليخونه بقبلة، ذلك الصديق الذي لم يزل يتوسم فيه الصدق، بل ويرجو أن يعتمد عليه، كما يعتمد المرء على صخرة، في بناء بيت يكون ملاذاً للإنسان، فإذا به ينكره وقت أن صاح الطير معلنا طلوع الفجر. شعوره بالوحدة المطلقة، وتسليمه، ثم قبوله بكل شيء؛ كمشهد كبير كهنة الأرثوذكسية بينما يمزق ثيابه بغضب، ومشهد قاضي المحكمة المدنية الذي يرتجي الماء لتطهير نفسه من بقع الدم البريء الذي يجعل منه رمزاً دموياً على مدى التاريخ، ومشهد حفل تتويج الحزن، واحد من أعظم ما سجلته أحداث التاريخ؛ حينما صلب الإنسان البريء أمام عيون أمه والتلميذ الذي أحبه، والجنود إذ يقترعون برمي النرد للحصول على ملابسه، والموت المرعب الذي أعطى للعالم أكثر رموزه خلوداً، ثم دفنه بالنهاية في مقبرة الرجل الغني، وكان جسده ملتفاً بالكتان المصري ومخضباً بالعطور الثمينة كما لو كان ابناً للملك. عندما يتأمل المرء في كل هذا من وجهة نظر الفن وحده، لا يسعه سوى أن يشعر بالامتنان، سيما عندما يرى أن أسمى وظائف الكنيسة تظهر بتمثيل المأساة من دون إراقة الدماء، بعرضها رمزياً عن طريق الحوار والأزياء والإيماءات، فيما لو كانت آلام الرب نفسه، والواقع أنني أشعر

بشيء من الفزع يخالطه السرور حينما أذكر أن الكورس الإغريقي قد فقد نهائياً في مجال الفن، إلا في رد الخادم على الكاهن أثناء القداس.

ومع ذلك، فإن حياة المسيح في مجملها قصة ملحمية، بحيث يمتزج الحزن والجمال كلياً في معناها ومظهرها، على الرغم من أنها تنتهي بتمزيق قناع المعبد، وشيوع الظلمات على وجه الأرض، ثم تدحرج الحجارة إلى باب القبر. إن المرء يفكر بالمسيح دائماً كما لو كان عريساً بين رفاقه، كما وصف نفسه بالواقع. أو كراعٍ يسعى في وادٍ مع خرافه بحثاً عن مرج أخضرَ أو تيارٍ بارد، أو مغنياً يحاول بموسيقاه أن يقيم جدران مدينة اللّه؛ أو كعاشق كان العالم أضيق من حبه.أما عن معجزاته فأراها رائعة كروعة مجيء الربيع، وبقدر ما هي طبيعية. لا أرى أي صعوبة على الإطلاق في الاعتقاد بأن شخصيته كانت ساحرة لدرجة أن مجرد وجوده يجلب السلام للأرواح المعذبة، وأن أولئك الذين لمسوا ثيابه أو يديه نسوا آلامهم؛ أو أنه عندما مر على طريق الحياة، استطاع ان يجعل الناس الذين لم يروا أي شيء من أسرار الحياة، أن يكتشفوها بوضوح، وغيرهم ممن كانوا يصمون آذانهم عن كل صوت سوى صوت المتعة بأن يسمعوا لأول مرة صوت الحب ويجدونه «كموسيقى قصبة أبوللو»؛ أو أنه بمجرد اقترابه كان يبعد الهواجس الشريرة عن الطريق، والرجال الذين كانت حياتهم البالية غير متخيلة، شكلاً من أشكال الموت، يرتفعون من قبورهم كلما دعاهم؛ أو أنه عندما كان يلقي تعاليمه على جانب التل، نسى الناس جوعهم وعطشهم واهتمامهم لهذا العالم، أو أنه حينما مضى يتحدث إلى أصدقائه، بينما هو جالس بينهم إلى الطعام، جعل الطعام الخشن يبدو شهياً، وجعل الماء يكتسب مذاق النبيذ الجيد،

وجعل البيت كله يمتلئ برائحة العطر الجميل.

يقول «رينان» Renan في كتابه «حياة عيسى» ـ ذلك الإنجيل الخامس الجميل كما يستطيع المرء أن يدعوه ـ يقول في موضع ما أن الإنجاز العظيم للمسيح هو أنه جعل نفسه محبوباً بعد وفاته كما كان أثناء حياته. وهذا مؤكد لما كان من مكانه بين الشعراء، فهو قائد كل العشاق. لقد رأى أن الحب هو السر الأول للعالم الذي كان ينظر إليه الحكماء، ورأى أنه من خلال الحب فقط يمكن للإنسان أن يقترب إما من قلب الأبرص أو من أقدام اللّه.

وفوق كل ذلك، فقد جسد المسيح النموذج الأرقى للفرد. فالتواضع، مثل القبول الفني لكل التجارب، مجرد أسلوب للتعبير. لقد كانت روح الإنسان هي ما يبحث عنه المسيح دائماً وسماها «مملكة اللّه»، واستطاع أن يكتشفها في الجميع. وأن يضرب الأمثلة عليها بصغار الأمور، ببذرة صغيرة، إلى حفنة من الخميرة، إلى لؤلؤة. ذلك لأن المرء لا يستطيع أن يدركها إلا من خلال التخلص من كل المشاعر الدخيلة، وجميع الثقافات المكتسبة، وجميع الممتلكات الخارجية، سواء كانت جيدة أو رديئة.

لقد تحملت كل ما مررت به ببعض من عناد الإرادة وبالكثير من التمرد ضد الطبيعة، حتى وإن لم يتبقَ لي سوى شيء واحد في هذا العالم. لقد فقدت اسمي ومركزي وسعادتي وحريتي وثروتي. وغدوت سجيناً معدماً. لم يتبقَ لي سوى أبنائي. ووجدتهم فجأة قد أُخذوا مني بموجب القانون. كانت ضربة موجعة لي لدرجة أنني فقدت القدرة على التصرف، فلم يسعني إلا أن أركع وأحني رأسي باكياً وأنا أقول: «إن جسد الطفل كجسد الرب، وأنا الآن لم أعد جديراً بأي منهما.» في تلك اللحظة شعرت بأنني نجوت، فقد رأيت بعد ذلك أن الشيء الوحيد الذي يتم به خلاصي هو

قبول كل شيء. ولاشك أنك ستدهش إذا علمت أنني أشعر بسعادة كبيرة منذ ذلك الوقت.

كانت روحي بالطبع قد وصلت إلى جوهرها النهائي. لقد ناصبتها العداء بمختلف الطرق، ولكنني وجدتها تنتظرني كصديق. فعندما يتصل المرء بالروح، يصبح بسيطاً كالطفل، وهذا ما نصح به المسيح من المحزن أن القليل من الناس استطاعوا «أن يملكوا أرواحاً» قبل أن يموتوا. يقول إيمرسون «ليس هناك ما هو أندر في الإنسان من أن يعمل عملاً نابعاً من ذاته»، هذا القول صحيح تماما. فمعظم الناس يستمدون أفكارهم من آراء أشخاص آخرين، حياتهم مقلدة، وعواطفهم مقتبسة. لم يكن المسيح مجرد شخصية عُليا، بل كان الشخصية الأعلى في التاريخ. لقد حاول الناس أن يصنفوه كإنساني من الدرجة العادية، ثم حاولوا أن يضعوه في صفوف الخيرين ممن يفتقرون إلى العلم والشعور. لكنه في الحقيقة لم يكن أي منهم. فقد كان بالطبع يشعر بالشفقة على الفقراء ومن أطبقت عليهم السجون، وعلى البسيطين والذين يعانون من البؤس. ولكن أكثر ما كان لديه من الشفقة، كانت على الأثرياء، والساعين بشدة من أجل تحقيق متعهم، لأولئك الذين يضحون بحريتهم في سبيل أن يصبحوا عبيدا للأشياء، لأولئك الذين يرتدون ثياباً ناعمة ويعيشون في القصور. فقد رأى في الثروة والسرور مآسٍ أعظم مما في الفقر أو الحزن. أما فيما يتعلق بالاختلاف بين الناس، فقد عرف المسيح بأن مصيرنا لا يتحدد بالإرادة بل بالعمل، فليس من الممكن أن تجني الأعناب من الأشواك، ولا أن تجمع ثمرات التين من رأس قنفذ.

لم تكن من عقيدته أن يعيش المرء من أجل الآخرين كفرد محدد من

الوعي الذاتي. فهذا لم يكن أساس عقيدته. وحينما قال «اغفر لأعدائك»، فليس غفران من أجل العدو، بل من أجل المتسامح نفسه، ولأن الحب أجمل من الكراهية. وحينما ناشد الشاب التقي قال له: «بع كل ما لديك وأعطه للفقراء»، لم تكن حالة الفقراء التي يفكر بها بل في روح ذلك الشاب، الروح التي كانت تفسدها الثروة. في نظرته للحياة كان متحداً مع الفنان، الذي يعرف أنه من خلال اتباعه للقوانين لن يكون هناك مفر من بلوغه للكمال الذاتي، فالشاعر يجب عليه أن يغني، وعلى النحات أن يعالج البرونز، وأن يجعل الرسام العالم مرآة لمزاجه، كما هو بالتأكيد وكما يفرض على الأزهار البرية أن تفرض بالربيع، وأن تتحول حبات القمح إلى لونها الذهبي في وقت الحصاد، وعلى القمر أن يتغير القمر في رحلته المفروضة من درع إلى منجل، ومن منجل إلى درع.

ولكن في حين أن المسيح لم يقل للناس: «عيشوا من أجل الآخرين»، إلا أنه أشار إلى أنه لا يوجد فرق على الإطلاق بين حياة الآخرين وحياة المرء نفسه. بهذه الطريقة أعطى للجميع شخصية ممتدة كشخصية المارد. ومنذ مجيئه أصبح كل تاريخ خاص بالفرد، هو تاريخ للعالم أسره. وبالطبع، فقد كثفت الثقافة شخصية الإنسان، وجعل الفن لكل منا فكرًا لا يُعد ولا يُحصى. فأصبح أصحاب المزاج الفني يذهبون إلى المنفى مع دانتي ليروا كيف يكون خبز الآخرين من ملح، وكيف تنحدر مساعيهم؛ إنهم يتشبثون بلحظة من الهدوء والصفاء في غوته، ثم يدركون إلى حدٍ كبير ما قصده بودلير عندما صرخ إلى السماء وقال:

يا رب، أعطني القوة والشجاعة...

لأتأمل جسدي وقلبي دون اشمئزاز».

ولأجل آلامهم المحتملة، استخلصوا من قصائد شكسبير سر محبته وجعلوها خاصة بهم؛ ونظروا الى الحياة الحديثة بعين جديدة، بعدما استمعوا إلى أحد مقطوعات شوبان، أو أنهم تداولوا بعض المواريث اليونانية وقرأوا قصة شغف بعض القتلى بامرأة ميتة كان شعرها مثل خيوط من الذهب الخالص، وفمها كحبات دقيقة من الرمان. لكن تأثير الحس الفني يخلق بالضرورة طريقاً للتعبير عنه. إما بالكلمات أو بالألوان، أو في الموسيقى أو في النحت بالرخام، وخلف الأقنعة المرسومة في مسرحية أسخيلوس، أو من خلال قصبات رعاة صقلية، من هذا كله يجب أن يُكتشَف الإنسان وتُدرَك رسالته.

بالنسبة للفنان، فإن التعبير هو الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها تصور الحياة بمجملها التام. فهو يرى أن كل ما هو صامت فهو ميت. غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمسيح، وعلى نطاق واسع وعجيب من الخيال الذي يملأ الإنسان بالرهبة، تكفل المسيح بعالم العاجزين عن التعبير، عالم الألم الذي لا صوت له، وجعل من نفسه لسانهم الناطق الأبدي. إن أولئك الذين تحدثت إليهم، الذين يفقدهم الظلم القدرة على الكلام، و«الذين لا يسمع صمتهم إلا اللّه»، فقد اختار منهم إخوة له. لقد سعى إلى أن يجعل من نفسه عيناً لجميع المكفوفين، وأذناً للصم، وصوتاً صارخاً يخرج من شفاه أولئك قيدت ألسنتهم. كانت رغبته في أن يكون بوقا لتلك الجموع التي لم يجد ندائها طريقا ليصل إلى السماء، ولقد جعلته طبيعته الفنية أن يدرك تصوره عن الجمال من خلال أنماط المعاناة والحزن، وشعر بأن الفكرة تظل دون قيمة حتى تتجسد وتتمثل في صورة، فجعل من نفسه صورة لرجل الأحزان، وجعل من هذه الصورة

شيئاً يجتذب الفن ويسيطر عليه، وهو ما لم يستطع أي إله إغريقي أن يفعله.

فآلهة الإغريق، على الرغم من اللون الأبيض والأحمر لأطرافها الرشيقة والأنيقة، كانت مختلفة في الواقع لما كانت تبدو عليه. فقد كان «أبوللو» حقاً ذا جبهة تشبه في تقوسها الهلال الذي يتراءى من الشمس فوق تلة وقت الشروق، وكانت قدماه كجناح الصباح، لكنه كان قاسيًا مع «مارسياس»، وجعل «نيوبى» تفقد جميع أطفالها. وكذلك فعلت «بالاس» فلم يكن في عينيها اللتين تبدت فيهما قسوة الحديد ذرة من الشفقة على «أراكنى». فإذا كان قد تبدى في «هيرا» شيء من النبل فإنه لم يزد عن عجبها وخيلائها. أما كبير الآلهة نفسه فقد كان مولعاً جداً ببنات البشر.

والواقع أنه لم يكن في الميثولوجيا اليونانية من الشخصيات الرمزية ذات الإيحاء العميق سوى اثنتين: واحدة تخص الدين وهي «ديمتر» التي لم تكن من آلهة جبل ألومبوس بل كانت آلهة الأرض والنبات، والثانية تخص للفن، وهي شخصية «ديونيسس» الذي كان ابناً لواحدة من نساء البشر، اختطفها الموت لحظة ولادته.

جاءت لنا الحياة بشخصية أروع بكثير من أم «بروزربينا» أو ابن «سيميلي»، من أحط الطبقات الاجتماعية وأكثر بيئاتها تواضعاً، فمن حانوت تجار في قرية الناصرة خرجت شخصية تفوق بعظمتها أي شخصية صنعتها الأساطير، فقد كانت لواحد استطاع، على نحو غريب، بأن يكشف للعالم المعنى الخفي في النبيذ، والجمال الحقيقي الذي يكمن في أزهار الزنبق، وهو مالم يستطع أن يقوم به أحد قط، لا على جبال «كيثايرون» ولا في مدينة «إنا».

إن سفر أشعياء التي تقول: «محتقر ومرفوض من الرجال، رجل الأحزان والمعروف بآلامه، وعندما نواجهه لا يسعنا إلا أن نخفي وجوهنا عنه»، بدت وكأنها تهيئه لنفسه. وكان أن تحققت فيه النبوءة، إن عبارة كهذه يجب أن لا نخاف منها، لأن كل عمل فني قائم بذاته هو تحقيق للنبوءة وتحويل للفكرة المجردة إلى صورة. فعلى كل إنسان أن يكون تحقيقاً لنبوءة، وأن يبلغ المثال الأعلى، إما في ذهن اللّه أو في ذهن الإنسان. وقد وجد المسيح هذا المثال وثبته، فأصبح حلم أي شاعر من أتباع «فيرجيل»، سواء في أورشليم أو في بابل، ومع تقدم طويل على مر العصور ليغدو المثال الذي كان ينتظره العالم.

بالنسبة لي، فإن من أكثر الأمور المؤسفة في سير التاريخ هي النهضة المسيحية الخاصة، تلك التي أنتجت الكاتدرائية في شارتر، وما شاع في عصر «آرثر» من أساطير، وحياة القديس فرنسيس الأسيزي، وفن «جوتو»، وملهاة دانتي المقدسة التي لم يسمح لها بالتطور على طريقتها الخاصة، بل أُفسِدَت وشُوهَت خلال عصر النهضة الكلاسيكية الكئيب الذي جلب لنا أعمال «بترارك» Petrarch، وجدارية «رافائيل» الفنية، وفن «باللادينو» المعماري، والمأساة الفرنسية الرسمية، وكاتدرائية القديس بولص، وشعر «بوب»، وبكل شيء صنع بالخارج ووضع على قواعد جامدة، ولم ينبع من الداخل بواسطة ما ترسله الروح. ولكن حيثما وجدت حركة رومانتيكية في الفن، كان المسيح هناك، أو كانت روحه حاضرة بكيفية ما أو بشكل ما، فهو في «روميو وجولييت»، وفي «حكاية الشتاء»، وفي شعر بروفنسال، وفي «البحار القديم»، وقصيدة الإحسان لـ«شترتون».

نحن مدينون له بكم التنوع الهائل للأشياء والأشخاص في حياتنا،

فالبؤساء لـ«هوجو» وأزهار الشر لـ«بودلير»، ووصمة الرثاء في الروايات الروسية، والزجاج الملون والمنسوجات، وأعمال الأربعمائة لـ«بيرن ـ جونز» و«موريس» وقصائد «فرلين»[1] ـ يعود إليه الفضل في كل هذا بدرجة لا تقل عن أثره في شوامخ «جوتو» و«لانسلو» و«جنيفر» و«تانهويزر»، والرخام الرومانتيكي المضطرب لمايكل أنجلو، وفن المعمار المتفاخر، ثم حب الأطفال والزهور ـ اللذان لم يكن لهما في الواقع سوى موضع صغير في الفن الكلاسيكي، يكاد لا يكفى لنموهم أو لممارسة اللعب، ولكن ما فتئت تظهر بشكل مستمر في الفن منذ القرن الثاني عشر وصولاً إلى يومنا هذا، تحت أساليب متباينة وفي أوقات مختلفة، فقد جاءت في نوبات متتالية وبإصرار، كما هي طبيعة الأطفال والأزهار. فالإنسان يرى الربيع دائما كما لو كانت الزهور قد توارت عن الأنظار ثم ظهرت مع مطلع الشمس، لمجرد أنها كانت تخشى أن يصيب الملل الكبار فيكفوا عن البحث عنها؛ وحياة الطفل تتلخص بيوم واحد من أبريل حيث تتسخر الشمس والأمطار لزهور النرجس.

إنها ملكة الخيال التي اختص بها المسيح وجعلته القطب الدافق للرومانسية. لقد كانت هناك العديد من الشخصيات الغريبة في الدراما والتمثيلية الشعرية تصنع من خيال الآخرين، ولكن يسوع الناصري خلق شخصيته من خياله المحض. فصرخة إشعياء قبيل مجيئه لم تكن في الواقع إلا كتغريدة لعندليب وقت ظهور القمر، لا أكثر من ذلك ولا أقل، لقد كان إنكار وبالوقت ذاته تأكيدا للنبوءة ؛ إذ كان كل شيء متوقع مما

---

(1) Paul Verlaine (30 مارس 1844 ـ 8 يناير 1896) شاعر فرنسي ومن رواد الحركة الرمزية، تم اعتقاله بتهمة إطلاق النار على (رينمبود Rinboud).

حققه مصاحب لشيء آخر مدمراً له. يقول باكون: «في كل ما وجد من الجمال، وجد هناك قدر من الغرابة»، ويقول المسيح عن أولئك الذين أنجبتهم الروح ـ من يتشبهون به بقواهم المحركة ـ أنهم مثل الريح التي «تساق إلى حيث تميل، ولا يمكن لأحد أن يتنبأ من أين تأتي أو إلى أين تذهب». هذا هو السبب في أنه كان ساحراً للفنانين. فقد اجتمعت فيه كل عناصر الألوان: الغموض والغرابة والتعاطف، والإيحاء، والنشوة والمحبة. إنه ينادي بمزيج إعجازي من صنعه، مزيج يمكنه وحده أن يفهمه.

وبالنسبة لي، فإنه من دواعي السرور أن أذكر أنه إذا كان المسيح صاحب مخيلة محكمة تماماً، فإن هذا العالم بأجمعه له الجوهر نفسه. لقد قلت في «دوريان غراي» أن خطايا العالم العظيمة تحدث في الدماغ، ولكن الحقيقة أن في الدماغ يحدث كل شيء إننا نعلم الآن أننا لا نرى بالعين ولا نسمع بالأذن. فما كانت هذه الأعضاء إلا مجرد قنوات لتوصيل انطباعات الإحساس، ففي الدماغ يكون لون الخشخاش أحمر، والتفاحة ذات رائحة، والقبرة تصدح بالغناء.

في الآونة الأخيرة عكفت على دراسة القصائد النثرية الأربع عن المسيح في شيء من النشاط. وحينما حل عيد الميلاد، تمكنت من الحصول على نسخة يونانية من الكتاب المقدس، وفي كل صباح، وبعد أن أقوم بتنظيف زنزانتي وتلميع آنية الصفيح الخاصة بي، أقرأ بعضًا من الأناجيل، اثنى عشر سفراً أو نحوها، أعمد على قراءتها بصورة عشوائية من أي موقع وكيفما اتفق. إنها طريقة ممتعة لافتتاح اليوم. كل واحد، حتى عندما يعاني الإنسان من حياة مضطربة وهائجة، فإن عليه أن يفعل

الشيء نفسه. إن التكرار الممل الذي لا يقف عند حد، في موسمه أو في غير محله، قد أفسد لنا السحر الرومانتيكي البسيط للأناجيل. وأضاع ما فيها من عذوبة وبراءة. إننا نسمعهم يتلونها بشكل مبالغ فيع وبصورة سيء للغاية، وكل ما في التكرار معادٍ للروحانية. ولكن عندما يرجع المرء إلى اللغة اليونانية؛ فهو مثل الخروج من المنازل الضيقة والمظلمة إلى حديقة من الزنابق.

وبالنسبة إلي فإن سروري يتضاعف لاعتقادي أن من المحتمل جداً أننا نقرأ الكلمات الحقيقية التي استعملها للمسيح. لقد كان هناك دائما معتقد بأن المسيح كان يتكلم الآرمية. فحتى «رينان» نفسه كان يعتقد ذلك. غير أننا نعلم الآن أن الفلاحين من قرية الخليل كانوا يتكلمون لغتين كما هو حال الفلاحين الايرلنديين في أيامنا. وكانت الإغريقية لغة التخاطب العامة، ليس فقط في فلسطين، بل في العالم الشرقي بأجمعه. إنني لا أميل أبداً إلى مثل هذه الفكرة، وهي أننا عرفنا كلمات المسيح الخاصة به من خلال ترجمة كلماته عن ترجمة أخرى. بل على العكس فإنني أسعد بالتفكير فيما يتعلق بمحادثته، أنه ربما كان «خارميدس»[1] قد أستمع إليه، وأن سقراط كان يباحثه، وأفلاطون يعي ما يقوله، وحينما قال بصراحة: «أنا هو الراعي الصالح»، وعندما كان يفكر في زنابق الحقل وكيف أنها لا تكدح ولا تدور، عبر عن ذلك بقوله: «انظروا إلى الزنبق في الحقل كيف

---

(1) باليونانية: (Χαρμίδης) هو حوار أفلاطوني، حيث يدخل سقراط في محادثة مع فتى وسيم ومحبوب حول معنى سوفروسيني، وهي كلمة يونانية يمكن ترجمتها عادة إلى «الاعتدال»، «السيطرة على الذات»، أو«ضبط النفس» أما قصيدة وايلد الطويلة التي تحمل نفس الاسم فإنها تقوم على شخصية خيالية.

ينمو من دون أن يشقى ودون أن يدور»، وعندما صاح بكلمته الأخيرة التي كانت: «إن حياتي قد اكتملت، وقد بلغت تمامها، ووصلت إلى الكمال» بالضبط كما يخبرنا القديس يوحنا أنه: «قد انتهى الأمر» ولم يعد هناك شيء آخر.

وبينما أرى في قراءتي للأناجيل ـ وعلى الأخص تلك التي كتبها القديس يوحنا بنفسه، أو أي سفر قديم حمل اسمه ورداءه ـ أرى التأكيد المستمر على الخيال كأساس لكل نواحي الحياة الروحية والمادية، وأرى أيضا أن خيال المسيح كان ببساطة شكل من أشكال الحب، وكان الحب بالنسبة إليه هو الرب، بكل ما تحتمله الكلمة من معنى.

منذ حوالي ستة أسابيع أذن لي الطبيب بتناول الخبز الأبيض بدلاً عن الخبز الأسود أو البني الخشن الإجباري بوجبات السجون بشكل عام. فكان في هذا لذة عظيمة. وقد يدهشك أن يكون الخبز الجاف لذة لأي إنسان. ولكنه كذلك بالنسبة لي، فمن المهم جداً أن آكل أي فتاتٍ متبقٍ على لوح الصفيح في نهاية كل وجبة، أو ما يتساقط من فتات على المنشفة الخشنة التي تغطي المائدة. لم أكن أفعل ذلك بدافع من الجوع ـ فأنا أحصل الآن على قدر واف من الطعام ـ ولكن حتى لا أقوم بهدر ما أُعطي إلي. وبمثل هذا الحرص يتوجب على الإنسان أن ينظر إلى الحب.

إن المسيح، ككل الشخصيات الساحرة، كانت لديه المقدرة بأن يقول الأشياء الجميلة بنفسه، وعلاوة على ذلك، أن يحمل الآخرين على قول مثل هذه الأشياء الجميلة بأنفسهم؛ وأني أحب القصة التي يخبرنا به القديس «مرقس» عن المرأة اليونانية، التي حينما قال لها المسيح ـ وكان ذلك اختباراً لإيمانها ـ أنه لا يستطيع أن يعطيها من خبز بني إسرائيل، ردت

عليه بقولها: إن الكلاب الصغيرة القابعة تحت المائدة تأكل من الفتات الذي يخلفه الأطفال.

يعيش معظم الناس من أجل الحب والإعجاب. ولكن الصحيح أننا يجب أن نعيش بالحب والإعجاب، وإذا عرض علينا أي حب، يجب أن ندرك بأننا لا نستحقه. إذ ليس هناك من هو جدير بالحب. إن حقيقة أن اللّه يحب الإنسان، فهذا يعني أنه في الترتيب الإلهي للأشياء المثالية، يُكتب أن الحب الأبدي يجب أن يُعطى لمن لا يستحقه مطلقاً. إن بدت هذه العبارة مريرة، فدعنا نقول إن كل إنسان يستحق الحب، باستثناء من يتوهم بأنه مستحق له. إن الحب أمر مقدس، يجب أن يتلقاه المرء راكعاً، بينما تعمر قلبه هذه الكلمات، وتضطرب بها شفتاه: «يا إلهي، إنني لست مؤهلا».

إذا قدر لي بأن أكتب مرة أخرى، أعني في مجال الأعمال الفنية، فهناك موضوعان فقط أود أن أقوم بالتعبير عن نفسي من خلالها: واحد هو «المسيح كرائد للحركة الرومانسية في الحياة»: والآخر هو «الحياة الفنية من ناحية ارتباطها بالسلوك ». والأول ساحر للغاية بطبيعة الحال، لأنني أرى في المسيح عدم اقتصاره على أسس المثل الرومانتيكية العليا وحسب، بل وإلمامه أيضا بجميع العوارض غير المتعمدة والمتعمدة للحس الرومانتيكي. كان المسيح أول شخص قال للناس بأن عليهم أن يعيشوا حياة تشبه حياة الأزهار. ورسخ هذه العبارة، فأخذ الأطفال على أنهم المثال الذي يجب أن تكون عليه حياة الناس، ورفعهم كأمثلة لمن هم أكبر منهم. الشيء نفسه الذي كنت أفكره فيه دائما على أنه الاستخدام الأمثل للأطفال. يصف دانتي خروج روح الإنسان من يد اللّه فيقول إنها تخرج «وهي تبكي وتضحك مثل طفل صغير»، ورأى المسيح بأن روح

الإنسان يجب أن تبقى كذلك. لقد شعر بأن الحياة متغيرة، وسلسة، ونشطة. وأن السماح لها بالتحول إلى صور نمطية في أي شكل كان يعتبر هو الموت بذاته. ورأى بأن الناس يجب أن لا يأخذوا الأمور المادية والمصالح المشتركة بشكل جدي، وأنه سيكون عظيماً إن استطاع الإنسان أن يكون غير عملي. كما لا ينبغي للمرء أن يقلق باله كثيراً على شؤون الحياة، فالطيور لا تفعل ذلك، فلماذا يجب على الإنسان أن يفعل؟ وكم يبدو المسيح ساحراً عندما يقول: «لا تفكر في الغد؛ أو ليست الروح أعظم من اللحم؟ وأليس الجسد أعظم من الكساء؟» ربما نطق مفكر إغريقي بالعبارة الأخيرة؛ فهي مفعمة بالشعور اليوناني. غير أن المسيح وحده هو الذي استطاع أن يقول الجملتين معاً، وبذلك لخص لنا مفهوم الحياة بشكلٍ مثالي.

كانت جميع أخلاقه تتمحور في مشاركته الوجدانية، وهو ما يجب أن تكون عليه الأخلاق. وإذا كان الشيء الوحيد الذي قاله قط هو: «إن خطاياها قد اغتفرت لأنها كانت تحبه كثيراً»، فإن جملة كهذه تستحق أن يموت الإنسان في سبيل التصريح بها. أما عدالته فهي شاعرية، تماماً كما ينبغي أن تكون العدالة. إن المتسول يذهب إلى الجنة لأنه كان غير سعيد بحياته، ولا أستطيع تصور سبب أفضل لإرساله إلى هناك. يحصل الأشخاص الذين يعملون في المزرعة لمدة ساعة في المساء البارد على القدر نفسه من المكافأة التي يتلقاها أولئك الذين مكثوا في المكان نفسه طوال اليوم تحت الشمس الحارقة. لماذا ينالون الجزاء نفسه؟ قد لا يكون هناك أحد يستحق أي شيء من هذا. أو ربما كانوا نوعاً مختلفاً من الناس. لم يكن لدى المسيح صبر على النظم الآلية البالية التي تعامل الناس كما

لو كانوا أشياء، وتتحكم في حياة كل شخص منهم على حد سواء. بالنسبة إليه لم تكن هناك قوانين، بل كانت هناك مجرد استثناءات، كما لو كان أي شخص، أو أي شيء آخر في هذا العالم!

كان هذا هو المفتاح الرئيسي للفن الرومانتيكي والأساس السليم للحياة الطبيعية. عندما أحضروا للمسيح امرأة كانوا قد ألقوا القبض عليها بالجرم المشهود، واستشهدوا بتحكيم الشريعة لخطيئتها، وسألوه عما ينبغي فعله بها. خط بإصبعه على الأرض كما لو أنه لم يستمع إليهم، فلما مضوا يلحون عليه مرة بعد أُخرى رفع رأسه ثم قال: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها» فكان أن استحقت الحياة بقوله هذا

كان يحب الجهلاء، مثل جميع من كانت لديهم طبيعة شعرية. فقد كان يعلم أن روح الجاهل منفتحة دائما لتقبل أي فكرة عظيمة. غير أنه لم يطق ذرعاً بالأغبياء، خصوصاً أولئك الذين جعل منهم التعليم أغبياء، أناسا امتلأت عقولهم بأفكار لا يفقهون منها شيئاً، وهو نوع حديث بشكل خاصة، والمسيح اختصر هذا النوع عندما وصفه بأنه قد أوتي مفتاح المعرفة، فلم يستطع أن يستعمله أو أن يدع الآخرين يستعملونه. على الرغم من أنه قد يكون مفتاح لدخول بوابة ملكوت اللّه. كانت معركته الرئيسية ضد الماديين، تلك الحرب التي وجب على كل وليد من النور أن يشنها. لقد كانت المادية هي النغمة السائدة في عصره وبيئته. ففي تصلب عقولهم عن بلوغ الأفكار، واحترامهم الذي كان متبلداً، واستقامتهم المضجرة، وعبادتهم للنجاح المبتذل، وانشغالهم الكامل بالجانب المادي المجمل للحياة، وفي تقديرهم السخيف لأنفسهم وأهميتهم، كان يهود أورشليم في أيام المسيح هم النموذج المماثل للبريطانيين الماديين في هذا العصر.

لقد سخر المسيح من «القبر الأبيض» الذي كان ينصب من باب التمييز والإكبار، ورسخ هذه العبارة إلى الأبد. وقد عالج النجاح الدنيوي كشيء يجب أن يحتقر بصورة تامة. إذ لم يرَ فيه شيئاً على الإطلاق. ونظر إلى الثروة باعتبارها عبئاً على الرجل؛ لم يكن يسمع بالحياة وقد ضحى بها في سبيل نظام فكري أو أخلاقي. وأشار إلى أن الشكليات والاحتفالات إنما وجدت للإنسان ولم يوجد الإنسان لها. وأخذ «السبتية»[1] على أنها شيء لا قيمة له. والأعمال الخيرية الباردة، والمفاخرة بالإحسان، وجميع الشكليات المملة التي تشغل عقلية الطبقة المتوسطة، كانت من الأمور المحتقرة بالنسبة له. إننا نظر الآن إلى ما يسمى بالأرثذوكسية على أنها مجرد إذعان سهل للغباء؛ غير أنها لم تكن كذلك في نظر معاصري المسيح، بل كانت في أيديهم وسيلة للاستبداد المريع والمشل لكل حركة. فما كان إلا أن أزاحها المسيح جانباً، مظهراً بأن الروح وحدها من ترتكز عليها الأهمية. وكان يسره أن يبين لهم بأنهم على رغم من قراءتهم للشريعة وما جاء به أنبياؤهم من أحكام، إلا أنهم لم يكونوا يحملون أي فكرة عن مغزاها الحقيقي. وكان يعارضهم على تجزئتهم لليوم الواحد بمنتهى الدقة ليتسع لأداء فروضهم التعبدية بشكل روتيني ثابت، كما لو كانوا يجزئون عقارًا في وصفة طبية، فما كان له إلا أن سعى يعظهم بأهمية أن يعيش المرء لحظات حياته بأتم صورها.

---

(1) السبتية الأدفنتستية هي طائفة مسيحية تؤمن، من بين ما تؤمن به، بأن خدمات العبادة يجب أن تُقام في «اليوم السابع» (السبت) وليس يوم الأحد. ويبدو أنه توجد «درجات» مختلفة من السبتية الأدفنتستية. فبعضهم تتفق عقائدهم تماماً مع المسيحية الأصيلة إلا في التمسك بيوم السبت. ولكن يوجد آخرين يبحرون كثيراً في العقائد، التي تُعد محرفة بالنسبة للمسيحيين.

أولئك الذين أنجاهم المسيح من خطاياهم، كانوا قد نجوا ببساطة من أجل أن يعيشوا لحظات جميلة من حياتهم. فعندما رأته مريم المجدلية هرعت إلى تحطيم الإناء المرمري الثمين، الذي أهداه إليها واحد من عشاقها السبعة، ثم عمدت إلى صب العطر الندي على قدميه المتعبتين والمعفرتين بالتراب.من أجل تلك اللحظة فقط، قدر لها أن تعيش إلى الأبد مع «روث» و«بياتريس» بين خمائل الورود الناصعة البياض في الفردوس. كل ما يقوله لنا المسيح في أسلوب من الوعظ اللين، أنه يجب علينا أن نجعل كل لحظة في حياتنا جميلة. وأن الروح يجب أن تتأهب دائما لمجيء العريس، وتنتظر على الدوام صوت المحبوب.أما المادية ببساطة فهي ذلك الجانب لم ينره الخيال في طبيعة الإنسان، فهو يرى جميع المؤثرات الجميلة للحياة كشكل من أشكال النور. وأن المخيلة نفسها هي نور العالم. فقد صنع العالم بواسطتها، ومع ذلك فإن العالم لم يتمكن من فهمها؛ ذلك لأن الخيال هو ببساطة مظهر من مظاهر المحبة، والمحبة وما لها من القدرة هي ما تميز الإنسان عمن سواه.

و لكن عندما يأتي الحديث عن التعامل مع المخطئ، فإن المسيح هو أعظم وأصدق مثال للعطف الرومانتيكي، لطالما أحب الناس القديس باعتباره أقرب طريق ممكن إلى كمال اللّه. أما المسيح، وبفضل الغرائز الإلهية التي نالها، فقد أحب المخطئ دائما باعتباره أقرب طريق ممكن إلى كمال الإنسان. لم تكن رغبته الأساسية في إصلاح الناس، أكثر منها في تخفيف معاناتهم. ولم يكن هدفه بأن يحول لص يثير الاهتمام إلى رجل تقي يثير الضجر. وكان سيفكر قليلا بإنشاء نماذج للجمعيات الخيرية التي تهدف إلى مساعدة المساجين كما في عصرنا الحالي.

ولم يكن ينظر إلى هداية واحد من الخمارين ليتحول إلى آخر من «الفريسين» [1] كإنجاز عظيم. غير أنه، في أسلوب لا يزال العالم عاجزاً عن إدراكه، كان يعتبر الخطيئة والمعاناة بحد ذاتها، شيئاً جميلاً ومقدساً، كحالة من حالات الكمال. ومثل هذه الفكرة قد تبدو شديدة الخطورة، وهي كذلك بالفعل، فجميع الأفكار العظيمة كانت خطيرة. وهذا ما سلمت بصحته عقيدة المسيح بلا أدنى ريب، وكذلك بالنسبة إليَّ.

من المؤكد أنه من الواجب على الآثم أن يتوب. ولكن لماذا؟ لأنه ببساطة لن يستطيع من دون ذلك أن يتمكن من فهم ما ارتكبه، فلحظة التوبة هي لحظة البدء. بل وأكثر من ذلك، إنها الوسيلة التي من خلالها يستطيع المرء بأن يغير ماضيه. لقد اعتقد الإغريق أن ذلك من المستحيلات.فقد كانوا غالباً ما يقولون في أمثالهم السائرة إنه: «حتى الآلهة لا تستطيع أن تغير الماضي». أما المسيح فقد أظهر أن أكثر الخاطئين دناءة يمكن أن يفعل ذلك، بل إنه الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفعله. ولو كان قد طلب من المسيح لكان أجابه ومن المؤكد أنه في اللحظة التي يركع فيها الفتى المسرف ويبكي على ما أضاعه من أصله مع بنات الهوى، كمن تناول القشور عندما كان جائعاً، إن لحظة الندم هذه، سيحتفظ بها كلحظة جميلة ومقدسة لباقي أيام حياته. إن من الصعب على معظم الناس إدراك هذه الفكرة، لذلك فإنني أجرؤ على أن أقول بأن المرء يجب أن يذهب إلى السجن إذا أراد أن يدرك هذه الحقيقة، فإذا حدث ذلك فسيصبح الذهاب إلى السجن أمراً مفيداً.

---

(1) الفريسون هم كتبة اليهود وأحبارهم في ذلك العهد.

هناك شيء فريد من نوعه حول ما يتعلق بالمسيح. فكما أن هناك، بطبيعة الحال، فجراً كاذباً قبل مجيء الفجر الحقيقي، وكما تسطع أشعة الشمس بصورة مفاجأة في بعض أيام الشتاء فتخدع الزعفران بأشعتها ليبذر خيوطه الذهبية قبل أن يحين أوان الحصاد، وتجعل أقل الطيور ذكاء يصيح بأنثاه ليبنيا عشهما فوق الأغصان العارية، كذلك كان هناك مسيحيون قبل مجيء المسيح، وهو شيء يجب أن نكون ممتنين عليه. أما الشيء الذي لا يسعنا إلا أن نعده من سوء الطالع فهو أنه لم يعد هناك أحد منهم منذ ذلك الحين. إلا أنني أوجدت استثناءً واحداً، وهو القديس «فرانسيس الأسيزي»، فقد أعطاه اللّه في مولده روح الشاعر، وتوج شبابه بشكل من أشكال الزواج الصوفي، فاتخذ من الفقر عروسة له. وبروح الشاعر التي تعتريه، وجسد المتسول الذي يحمله، استطاع فرانسيس بأن يشق طريقه إلى الكمال، من دون أن يواجه أي صعوبة في ذلك. لقد فهم تعاليم المسيح، فاستطاع بذلك أن يصبح مثيلاً له، ولسنا في حاجة هنا إلى «كتاب المطابقة»[1] Liber Conformitatum لنعلم منه أن حياة القديس فرانسيس كانت محاكاة صادقة لحياة المسيح. فالكتاب الذي يحمل ذلك الاسم إذا قورن بأي قصيدة من الشعر المنثور فلن يكون هناك أي اختلاف بينهما.

والحق أن هذا هو السحر الذي اختص به المسيح، وكل ما يمكن قوله عنه إنه أشبه بعمل فني، إنه في الواقع لا يعلم أحداً شيئاً، ولكن المرء يشعر عند وجوده في حضرته أنه قد أصبح شيئاً ذا قيمة، وجميع الناس قد قدر لهم منذ الأزل بأن يكونوا في حضرة المسيح. وأن يمضوا معه إلى

(1) مجلد كبير يصور المتشابهات بين حياة المسيح وحياة القديس فرانسيس، كتبه (الأخ بارتولوميوس دبيزا) في القرن الرابع عشر، وطبع لأول مرة في عام 1510م.

«عمواس»[1] ولو مرة في حياتهم على الأقل.

فيما يتعلق بالموضوع الآخر الذي أرغب في الكتابة عنه، وهو علاقة الحياة الفنية بالسلوك، والذي سيدهشك بلا شك اختياري له، فالناس يشيرون إلى سجن ريدنج قائلين: «هذا هو المكان الذي تقود به الحياة الفنية الرجال». حسنا، قد يحدث أن تقود الحياة الفنية المرء إلى مواضع أسوأ. فالآليون من الناس، أولئك الذين ينظرون إلى الحياة بتكهن فطن، يعتمد على حساب دقيق للطرق والوسائل، هؤلاء الناس يعرفون دائما إلى أين يذهبون، ويذهبون فعلاً إلى حيث يريدون، تبدأ الرغبة المثالية لواحد منهم بأن يغدوا شماسا في الكنيسة، وحيثما أدارته رحى الحياة فهو ينجح بالنهاية في أن يصبح شماسا في الكنيسة، ولا شيء أكثر. فالشخص الذي يرغب في أن يغدوا شيئاً آخر منفصلاً عن ذاته، كأن يكون عضوا في البرلمان، أو بقالاً ناجحاً، أو محامياً لامعاً، أو حتى قاضياً، أو أي شيء آخر مثير للملل، فهذا الشخص ينجح دائماً في أن يكون ما يريد، وهذا هو عقابه، فأولئك الذي يرغبون باقتناء قناع، يجب عليهم أن يرتدوه. ولكن الأمر يختلف مع قوى الحياة الفاعلة، وأولئك الأشخاص الذين تتجسد فيهم هذه القوى. فالأشخاص الذين تنحصر رغبتهم في تحقيق الذات، لا يعرفون مطلقاً إلى أين يذهبون. وليس بمقدورهم أن يعرفوا تلك الحقيقة. من الضروري، بالطبع، أن يعرف المرء نفسه، كما قال الوحي اليوناني[2]، فمعرفة المرء لنفسه هي الإنجاز الأول للمعرفة. أما الإنجاز النهائي

---

(1) عمواس: هو المكان الذي ظهر فيه المسيح أول مرة لتلاميذه بعد قيامه وكان على مقربة من أورشليم ويدعى «كفر يهوذا».

(2) «اعرف نفسك»، عبارة كانت محفورة على مدخل معبد أبوللو في دلفي.

للحكمة فيكمن بالاعتراف بأن روح الإنسان لا يمكن إدراكها، فروح الإنسان هي ختام الأسرار. فعندما وضع الإنسان الشمس في كفة الميزان، وقاس خطى القمر، ووضع خريطة لنجوم السماوات السبع، بقيت روحه بعيدة عن المنال، فمن يستطيع حساب مدار روحه؟ وعندما خرج الابن ليبحث عن حمير والده، لم يكن يعلم أن رسولاً من اللّه كان في انتظاره ومعه زيت التتويج، وأن روحه كانت بالأصل روحا لملك.

إنني آمل أن أعيش مدة كافية لأستطيع أن أنتج عملاً يجعلني قادراً على أن أقول في نهاية أيام حياتي «نعم! هذا بالضبط ما يجب أن تقود إليه الحياة الفنية الرجال».

لقد صادفت في تجربتي الخاصة اثنين من أكثر الأرواح كمالا وهما: «فيرلين» و«الأمير كروبوتكين»، كلاهما كان قد أمضى عدد من سنين حياته في السجن، أما الأول، فيُعَد رأس الشعراء المسيحين بعد «دانتي»؛ أما الآخر، فقد حمل معه الروح البيضاء والجميلة للمسيح والذي يبدو قادماً من روسيا. وخلال الأشهر السبعة أو الثمانية الأخيرة، وعلى الرغم من سلسلة المتاعب الكبيرة التي جاءتني من قبل العالم الخارجي وبلا انقطاع تقريباً، فإنني قد وجدت نفسي على اتصال مباشر بروح جديدة مضت تعمل في هذا السجن من خلال الرجال والأشياء، وقد ساعدتني بما لا تسعفني الكلمات بأن أعبر عنه؛ فقد كنت في السنة الأولى من سجني عاجزاً عن فعل أي شيء، سوى أن أعتصر يدي بيأس واهن وأقول: «يا لها من نهاية، يا لها من نهاية مروعة! «أما الآن فإنني أحاول أن أقول لنفسي، حينما لا أنشغل في تعذيبها، وأكون في أتم حالاتي صدقاً، «يا لها من بداية، يا لها من بداية رائعة! «قد يكون الأمر كذلك حقاً. بل ربما صار فعلا إلى

ذلك. فإذا حدث، فسوف أكون مديناً بالكثير لهذه الشخصية الجديدة التي استطاعت أن تغير حياة كل إنسان في هذا المكان.

إن الأشياء بحد ذاتها لا قيمة لها، بل أنها في الواقع ـ ولنشكر علوم الميتافيزيقا على ما قد علمتنا إياه ـ ليس لها وجود حقيقي. فالروح وحدها هي التي لها كل الأهمية، ربما وقع العقاب بطريقة تجعل منه علاجاً بدل من أن تحدث منه جرحاً، وكذلك ربما يجيء الإحسان بطريقة يتحول فيها الخبز في يد المحسن إلى حجر، فإذا كان قد وجد هناك أي تغيير، فلن يكون تغييراً في الأسس، فقد رسخت بواسطة سلطة حديدية، بل سيكون تغييراً بالروح التي تجعل من تلك القوة وسيلة للتعبير عن ذاتها، سوف تدرك ذلك عندما أخبرك بأنه لو حدث أن أفرج عني في مايو الماضي، مثلما كنت مخططاً، كنت سأترك هذا المكان مع شعور المقت لكل مسؤول فيه ومع مرارة الكراهية التي تكفي لتسميم حياتي بأكملها. لقد طالت مدة عقوبتي عاماً آخر، غير أن الإنسانية كانت تشملني برعايتها طوال هذه المدة، وحينما أخرج، سوف أذكر دائماً ذلك القدر الكبير من اللطف الذي غمرني به جميع الناس الذين هنا تقريباً، وفي اليوم الذي سوف يطلق به سراحي سأوجه شكري إلى الكثير من الناس، وأطلب منهم بالمقابل أن يحتفظوا بذكراي

إن نظام السجن خاطئ بالكامل. وإنني على أتم الاستعداد بأن أضحي بأي شيء لأستطيع تغييره عندما أخرج. لقد صممت على القيام بهذه المحاولة. غير أنه لا يوجد شيء في هذا العالم، مهما بلغ فيه الخطأ، إن لم تقوَ روح الإنسانية والتي هي روح المحبة وروح المسيح التي لا تسكن في الكنائس، أن تجعله في موضعه الصحيح، فعلى الأقل، سوف تجعله قابل

لاحتمال القلب بدلاً من أن يتحمل الكثير من المرارة.

وإنني على يقين بأن الكثير من الأشياء السارة ستكون في انتظاري خارج السجن، كتلك الأشياء الجميلة التي يناديها القديس فرنسيس الأسيزي[1] بـ«أخي الريح، وأختي المطر»، وصولًا إلى واجهات المحلات التجارية ومغارب الشمس في المدن الكبيرة، إذا قمت بإعداد قائمة بكل الأشياء التي لا تزال في انتظاري فلن أعرف أين أتوقف: ذلك لأن اللّه في الحقيقة، قد جعل لي نصيباً من العالم بقدر ما جعله لغيري، ولعلي أحصل بعد خروجي من هنا على شيء لم يكن لديَّ مسبقاً. ولست بحاجة إلى إخبارك بأن الإصلاحات التي تستهدف الأخلاق، كما هي في اللاهوت، مبتذلة، ولا تعني شيئاً في نظري. وأن سعيك لأن تصبح رجلاً أفضل، سيغدو نموذجاً متصنعا لجهلك. بل أن تصبح رجلاً أعمق، فذلك هو الامتياز الذي اختص به من تجرعوا المعاناة، والذي أعتقد أنني قد أصبحته بالمثل.

لو حدث بعد خروجي أن أقام صديق وليمة ولم يدعني إليها، فإني لن أقيم وزناً لذلك؛ إذ سأستطيع أن أكون سعيداً جداً في وحدتي. وإلا فمن ذا الذي لا يكون سعيداً مع الحرية، والكتب والزهور، والقمر؟ فضلاً عن ذلك فإن حضور الولائم لم يعد يثير اهتمامي، فقد أقمت منها الكثير، فلم أعد أحفل بها. وقد انتهى هذا الجانب من الحياة بالنسبة إليَّ، وهو ما أعده

(1) فرنسيس الأسيزي أو (فرانسيسكو دي أسيس ـ فرانسيسكو بيرناردوني) ينحدر من مدينة أسيزي و لقب كقديس في الكنيسة الكاثوليكية، جاء من عائلة تعمل في التجارة ويعتقد بأن أمه فرنسية الأصل ووالده كان يسمى بيدرو بيرنادوني في أسيس عرف بفرانسيسكو (تصغير لكلمة فرنسي أو الفرنسي الصغير).

من حسن الحظ. ولكن لو حدث بعد خروجي أن كان هناك صديق يعيش بحزن ثم رفض السماح لي بأن أشاطره حزنه، فسأشعر بمنتهى الألم فإذا أغلق دوني باب بيت أحزانه فسأعود طارقاً إياه مرة أخرى، راجياً إياه أن يسمح لي بأن أساهم فيما أصبح من حقي المساهمة فيه، فإذا رآني غير جدير بالبكاء معه فسيكون في ذلك أشد أنواع التحقير لي، بل إنه سيكون أفظع ما يمكن أن يصيبني من عار. غير أن هذا لا يمكن أن يحدث؛ فقد أصبح لي الحق بأن أشارك بالحزن، فذلك الذي يستطيع أن ينظر إلى جمال العالم، وأن يساهم في أحزانه، وأن يدرك ما في الاثنين من خفايا عجيبة. هو في الواقع في اتصال مباشر بالأشياء المقدسة، وقد اقترب من السر الإلهي بقدر ما يستطيع أي واحد أن يقترب.

ربما كان ما يدخل إلى أعمالي الفنية لا يقل عما يدخل إلى حياتي الفعلية، ولا يزال أكثر عمقاً، وأعظم عاطفة، وأقرب دافع للانبعاث. إن الهدف الحقيقي للفن الحديث لا يكمن بالاتساع بل بالكثافة. فإننا لم نعد نلقي أهمية للمثال في الفن. فلقد أصبح ما نصبو إلى تحقيقه هو صناعة الاستثناء. إنني لا أستطيع أن أضع آلامي في نموذج جاهز من صنعهم، وهو ما لا حاجة بي إلى قوله. إن الفن يبدأ فقط حيث ينتهي التقليد. غير أن شيئاً ما يتوجب علي أن أضيفه إلى أعمالي، ربما بكلمات أكثر تآلفا، أو إيقاعات أكثر زخماً، أو تأثيرات أكثر إلهاماً، أو بنظام بنائي أبسط لنصوصي، أو أي إضافات جديدة على الجودة الجمالية لأعمالي.

عندما فصل السيف جلد مارسياس عن لحمه، «مخرجا إياه من جراب أطرافه»، واستخدم دانتي في وصف ذلك واحدة من أفظع عباراته وأكثرها إضماراً على لسان الإغريقي عندما قال: «لم تعد في جعبته أية

أغاني جديدة». فقد انتصر أبوللو. وقهرت القيثارة القصبة. ولكن ربما لم يكن الإغريق على حق. فالواقع أنني أسمع في الفن الحديث صدى كثير من صرخات مارسياس، أسمعها قوية في قصائد بودلير، وشجية حلوة في قصائد لامرتين، وصوفية عند فرلان، وفي القرارات المؤجلة لموسيقى شوبان. إنه في السخط الذي يطارد نساء بيرن جونز. بل ويطارد ماثيو أرنولد، الذي تروي أغنيته كاليكليس عن «انتصار القيثارة الجاذبة الجميلة»، و«النصر النهائي الشهير»، في مثل مزيج من تلك النغمة الصافية للجمال الغنائي. والنغمة المضطربة من الشك والضيق التي تطارد أبيات شعره، لم يستطع غوته ولا وردسورث أن يقدما له يد العون، على الرغم من أنه قد تبع آثارهم، وحينما مضى في البحث عن الحزن لأجل «ثيرسيس»[1] أو في الغناء بقصيدة «الغجري الأديب»، فلم يجد سوى القصبة لترجيع أنغامه. لكن سواء كان إله الرعاء الفريجاني صامتاً أو لا، فإنني لا يمكنني أن أكون كذلك، فالتعبير ضروري بالنسبة لي مثلما تكون أوراق الشجر والأزهار ضرورية للفروع السوداء للأشجار المتبدية من فوق حائط السجن والقلقة في مهب الريح. هناك خليج واسع يحول بين فني وبين العالم، ولكن لا يوجد أي شيء بين الفن وبيني. أو أن هذا ما أرجوه على الأقل.

لقد آلت حياة كل منا إلى مصائر مختلفة. فكانت لي الفضيحة العلنية، والسجن الطويل، والبؤس والعار والخزي، وكل ما لم أكن جديراً به، حتى هذه اللحظة على الأقل. أذكر أنني كنت أردد دائما أن باستطاعتي أن

(1)قصيدة للشاعر اليوناني (ثيوقريطوس) وتعد من قصائد الأناشيد الرعوية التي تقوم على مساجلة شعرية بين الشاعر وبين راعي صقلي يدعى (ثيرسيس).

أتحمل أية مأساة حقيقية إذا قدمت إليّ ببساط أرجواني من الرحمة وقناع من الحزن النبيل، لكن الشيء المروع بشأن الحداثة، هو أنها قد وضعت المأساة بثياب هزلية، فكانت النتيجة أن ظهرت الحقائق العظيمة كأشياء عادية أو مضحكة او مفتقرة إلى الأسلوب. إن هذا حقيقي بالنسبة إلى الحداثة. كما أنه صحيح على الدوام فيما يتعلق بأنماط الحياة الفعلية. فقد قيل أن جميع الشهداء قد بدوا دنيئين في نظر من شاهدوهم. وليس القرن التاسع عشر بمستثني من هذه القاعدة.

كل ما تعلق بمأساتي كان بشعاً، وسافلاً، ومنفراً، ومفتقراً في الأسلوب. فحتى ملابسنا نفسها كانت تجعل منا أشياء مضحكة، فنحن مهرجي الحزن، والمضحكين الذين تُكسَر قلوبهم. والذين قد صمموا بشكل خاص ليكونوا مدعاة للسخرية. في الثالث عشر من نوفمبر لعام 1895، جيء بي من لندن إلى هذا السجن.ومن الساعة الثانية حتى الثانية والنصف من ذلك اليوم، كان عليّ أن أقف على المنصة المركزية في تقاطع كلابهام مرتدياً ملابس المجرمين، ومقيّد اليدين، وذلك ليتمكن العالم من رؤيتي بوضوح! لقد أخرجوني من قاعة المستشفى بغير أن يدلى إليَّ بأي ملاحظة. ومن بين كل الأشياء الممكنة كنت أنا الأكثر بشاعة. فعندما رآني الناس استغرقوا في الضحك.وكل قطار كان يتوقف عند تقاطع كلابهام كان يزيد من عدد الجماهير الساخرة، ولم تكن هناك وسيلة أُخرى تزيد بسرورهم. كان ذلك، بالطبع، قبل أن يعرفوا من أكون. وبمجرد أن عرفوا زادت ضحكاتهم، استمر وقوفي هناك لمدة نصف ساعة، تحت مطر نوفمبر الأغبر، ومن حولي حشد من السفلة يضحكون ويتهكمون، لقد لبثت طوال عام بعد تلك الحادثة أبكي كل

يوم لمدة نص ساعة وفي الوقت نفسه الذي أُوقفتُ فيه. بالنسبة لك، قد لا يبدو ذلك بأمر مأساوي، أما بالنسبة إلى القابعين في السجون، فإن البكاء هو جزء من تجربتهم اليومية، فالأيام التي يقضيها السجين من دون أن يذرف الدموع تغدو أياما صعيبة على قلبه، ليست كالأيام التي يقضيها المرء بقلب سعيد.

حسناً، لقد بدأت الآن بالشعور بالأسف على أولئك الأشخاص الذين سخروا مني أكثر من شعوري بالشفقة على نفسي. من المؤكد أنني لم أكن منتصباً على أساس متين كالتمثال عندما كانوا ينظرون إليَّ، بل كنت مهاناً بآلة للتعذيب. غير أن الطبيعة التي تفتقر إلى المخيلة، هي من تعير اهتماما لمن يقفون منتصبين على أساس متين، فقد يكون الأساس الذي يقفون عليه غير حقيقي مطلقا. أما آلة التعذيب فهي الحقيقة المرعبة، كان عليهم أن يعرفوا كيف يفسرون الحزن بشكل أفضل. فقد كنت أقول بأن من وراء الحزن، يوجد دائما حزن دفين، سيكون من الأبلغ أن يقال بأن من وراء الحزن توجد دائماً الروح، والسخرية من الروح المتألمة أمر فظيع. ففي أبسط أشكال الأنظمة الاقتصادية في العالم، لا يحصل الناس إلا على ما يقدموه، وأولئك الذين لم تسعفهم مخيلتهم برؤية أكثر عمقاً لظواهر الأشياء، وأن يشعروا بالشفقة، فماذا يمكن أن يعطى بدلاً من الشفقة سوى الاحتقار؟

أكتب إليك هذا القدر من تفاصيل حالتي، ليتحقق لك مدى صعوبة الحصول على أي عائد من عقوبتي، سوى المرارة واليأس. وكان يجب أن أمر بذلك على أي حال، أما الآن فأمر بحالة من القبول والتسليم. قد يكون الربيع مختفياً في برعم صغير، وأن عش القنبرة المنخفض على الأرض

ربما اتسع للسرور المبشر بمطلع الفجر الوردي يوماً بعد الآخر، لذلك، مهما كان القدر المتبقي لي من جمال الحياة، فقد احتوته جميع لحظات الاستسلام والتذلل والخضوع التي مررت بها هنا. يمكنني، على أي حال، أن أواصل العمل على تطوير خط سيري الشخصي فقط، وأن أقبل كل ما حدث لي، وأجعله جديراً بكل الذي خضته.

اعتاد الناس أن يقولوا لي إنني إنسان مفرط في فرديته. أما الآن فيجب علي أن أكون أكثر فردية من أي وقت مضى، ولا بد لي أن أحوز على الكثير من نفسي أكثر مما قد كان، وأن أطالب العالم بأقل مما قد طالبته قط. في الواقع، لم يأت الخراب الذي قد اجتاح حياتي من فرط تفردي مع ذاتي، بل من الإقلال منه، فقد كان الفعل الوحيد المخزي في حياتي، والذي لا يغتفر، بل وسيبقى دائماً مبعثاً لاحتقاري، هو السماح لنفسي بمناشدة المجتمع طلبا للمساعدة والحماية، ولجعل مثل هذا الاستئناف سيئًا بما فيه الكفاية من وجهة نظر المتفرد مع ذاته، ولكن ما هي المبررات التي يمكن أن تقدم لطلب الالتماس؟ من المؤكد أنه عندما كانت لدي القوى الفاعلة التي يمتلك المجتمع مثلها، والتي تغني المرء عن الاحتياج إليه، انقلب المجتمع علي بأسره، قائلا: «هل بعد أن أمضيت كل حياتك في تحدٍ لقوانيني، تأتي الآن لتستخدم تلك القوانين طلباً للحماية؟ يجب عليك أن تطبق القانون بشكل بالكامل، ثم تلتزم بما كنت تناشد إليه». والنتيجة هي أنني الآن في السجن، وأنا على ثقة بأن أحداً لم يشعر بهذا القدر من الاحتقار، وبكل الطرائق الحقيرة الممكنة، كما قد حصل معي.

إن العنصر المادي في الحياة لا يُعد فشلا بالنسبة إلى مفهوم الفن

فأولئك الأشخاص الساحرون، مثل الصيادين والرعاة والحراثين والفلاحين وأمثالهم. إن هؤلاء الأشخاص لا يعرفون شيئاً عن الفن، ومع ذلك فهم ملح الأرض الذي لا غنى عنه. إنه ذلك المادي الذي يعزز القوى الآلية البليدة والعمياء ويدعم بقائها، ولا يملك القدرة على التمييز القوى المحركة والفاعلة عندما يقابلها سواء في الإنسان أو في الحركة.

لقد اعتقد الناس أنه من المروع أن أكون قد استمتعت في العشاء بصحبة أكثر الأشياء الشريرة في الحياة، ولأنني قد وجدت المتعة في صحبتهم، فما كان ذلك إلا بسبب وجهة النظر التي توصلت إليها بوصفي أحد فناني الحياة، فقد وجدت الاقتراب منهم ملهماً ومحفزاً لي بصورة بالغة السرور. فكان الخطر نصف الإثارة. لقد عملت كفنان مع «أريل»، ثم كان أن عرضت نفسي للمصارعة مع «كاليبان».[1]

جاء صديق عظيم لرؤيتي منذ قليل، بدأت صداقتي معه منذ عشر أعوام، وأخبرني أنه لا يؤمن بكلمة واحدة مما قد قيل ضدي، وتمنى أن أعلم بأنه يعتبرني بريئاً تماماً، وأنني ضحية لمؤامرة البشعة، فكان أن انفجرت بالبكاء على ما قاله، وقلت له إنه قد كان صحيحاً وجود بعض التهم المحددة التي لم تكن صحيحة إلى حد ما وتم تحويلها عليَّ بواسطة الخبث المثير للاشمئزاز، ولكن على الرغم من ذلك، كانت حياتي مليئة بالملذات المدمرة، ولم يكن صديقي يتقبل تلك الحقيقة عني، وبعد أن أدركها بشكل الكامل، فقدت صداقته إلى الأبد. لقد كانت صدمة فظيعة بالنسبة له، ولكن ما يؤلمني حقاً هو أنه كان صديقي، الذي لم أحصل على

(1) أريل وكاليبان شخصيتان لشكسبير في مسرحية «العاصفة».

صداقته من أجل مصالح زائفة.

لقد قلت بأن القوى العاطفية التي تحتل مكان ما في النوايا، محدودة في المدى والمدة، تماما مثل قوى المادية. إن الكوب الصغير المصمم للاحتفاظ بالكثير من الماء لا يمكنه أن يتحمل أكثر من طاقته، على الرغم من أن جميع الأواني الأرجوانية في بورغوندي تمتلئ بالنبيذ حتى أقصاها، ويقف الدائسون بأقدامهم الغائرة على أقصى أعماق العنب المتجمع في مزارع الكروم الصخرية في إسبانيا. لا يوجد خطأ أكثر شيوعاً من توقع الأشخاص الذين هم سبب أو جزء من مسببات المآسي الكبرى والذين يشاركون بمشاعرهم في الحالات التي تتجسد فيها الآلام. قد ينظر الشهيد إلى وجه اللّه وهو يرتدي «قميص اللهب»، ولكن بالنسبة لمن يكوم الأحطاب أو يلقي بالكتل في النار، فإن المشهد بأكمله ليس أكثر من ذبح الجزار للثور، أو قطع شجرة في الغابة لوضع خشبها في موقد الفحم، أو سقوط زهرة عندما يجز شخص العشب بواسطة المنجل. المشاعر العظيمة هي للأرواح عظيمة، والأحداث العظيمة لا يمكن رؤيتها إلا من قبل أولئك الذين على مستوى معهم.

لست أعلم في كل أنواع الدراما شيئاً أكثر في انقطاع نظيره من وجهة نظر الفن، أو أقوى إيحاء بدهائه في الملاحظة، من الصورة التي أخرجها «شكسبير» لكل من «روزنكرانتس» و«جلدنشترن» وهما صديقا «هملت» في الكلية. لقد كانا رفيقيه، وكانا يحملان معهما ذكريات من أيامهما الحلوة معه. وفي اللحظة التي يواجهانه فيها في الرواية يكون مضطرب الجوانح من ثقل عبء لا يحتمله هو بطبيعته. فقد خرج «الميت» من القبر مدججا بالسلاح ليفرض عليه رسالة بالغة العظمة من جانب وبالغة الانحطاط

بالنسبة إليه من جانب آخر. انه يعيش في عالم الأحلام، ولكن ها هو يدعى ليعيش في عالم العمل. وإن له طبيعة الشاعر ولكنه يسأل ليدخل في صراع مع التعقيدات العامة للسبب والنتيجة في الحياة، لا في جوهرها المثالي، وهو ما يعرف عنه الكثير، بل في واقعها العملي، وهو ما لا يعرف عنه شيئاً. لم يكن لديه رأي فيما يجب فعله، وكان جنونه تصنعاً للجنون. لقد اتخذ «بروتس» من الجنون رداءً ليخفي السيف الذي أعده لغرضه: الخنجر الذي عبر عن إرادته؛ غير أن الجنون بالنسبة إلى «هاملت» كان مجرد قناع لإخفاء الضعف. فهو يرى في إبداء سمات التقطيب تارة وإشارات المزاح أخرى فرصة للتأخير، وهو يستمر على اللعب بالعمل، كما يلعب الفنان بإحدى النظريات، وهو يجعل من نفسه جاسوساً على أعماله الخاصة.

وإذ يستمع إلى كلماته ذاتها، علم أنها مجرد «كلمات، كلمات، كلمات» وبدلاً من أن يحاول أن يجعل من نفسه بطلاً لتاريخه الخاص، يكتفي بأن يكون مشاهدا لمأساته. إنه لا يعتقد في أي شيء بما في ذلك هو نفسه، ومع ذلك فإن شكه لا يساعده، فهو لم يأت من تشككه بل جاء من إرادته المنقسمة. ومن هذا كله لا يدرك شيئاً كل من «جلدنشترن» و«روزنكرانتس» فهما ينحنيان، ويتكلفان تصنع الابتسامة، فيبتسمان، وما يقوله أحدهما يردده الآخر بتكرار ممل. وعندما يأتي لهاملت في النهاية، عن طريق تمثيل رواية في رواية، والعرائس الصغيرة التي مضت تعبث في تلك الرواية، أن «يقبض على ضمير الملك» ويدفع بالرجل المسكين إلى الفزع من عرشه، لا يرى «جلدنشترن» و«روزنكرانتس» في سلوكه أكثر من خروج طفيف عن «اتيكيت» البلاط كل ما يسببه هو بعض الامتعاض. وذلك بمقدار ما يستطيعان أن يبلغا في «تأمل مشهد الحياة بعواطف مناسبة» إنهما قريبان من

صميم سره، ولكنها لا يعرفان عنه شيئاً. ولم يكن هناك فائدة من إخبارهما. إنهما كالأقداح الصغيرة التي تتسع لقدر معين، ولا أكثر من ذلك. وفي مقترب الختام يوحي الأمر بأنهما، وقد وقعا في شرك ماكر نصب لغيرهما، قد لغيا، أو ربما يلقيان، موتاً عنيفاً مفاجئاً. غير أن مثل هذه النهاية الحزينة، وإن كانت قد مست بشيء من الدهشة والغرابة جاء من مزاج هاملت، ليست في الحقيقة لمثل هذين، فهما لن يموتا قط، أما «هوراشيو» الذي لكي «يدلي بخبر هاملت وقضيته بالضبط إلى غير المقتنعين».

تغيبه عن السعادة ردحاً من الزمن

وفي هذا العالم القاسي يرسم أنفاسه بألم

فإنه يموت، وإن لم يمت أمام نظارة، ويموت بغير أن يترك أخاً. غير أن «جلدنشترن» و«روزنكرانتس» يكتب لهما الخلود، كما كتب لـ«أنجلو» و«تارتوف» وهما يرتفعان إلى صفهما. إنهما ما ساهمت به الحياة الحديثة من صداقة للمثال القديم. فإذا كان هناك من يكتب صورة جديدة من «دي أمتيشتا» فيجب أن يحتفظ لهما بمكان لائق، وأن يثنى عليهما بنثر من النوع «التوسكولاني»[1] إنهما من النماذج التي رسخت لكل عصر، ولذلك فإن توبيخهما يدل على نقص في التقدير. فهما خارج دائرتهما فقط. وهذا كل ما هناك. ليس ثمة عدوى في سمو النفس، فالأفكار السامية والعواطف السامية منعزلة في صميم وجودها.

سوف يُطلق سراحي في أواخر شهر مايو القادم، إذا سارت الأمور كما

---

(1) Tusculan، نسبة إلى Tusculum، وهو مكان في إيطاليا القديمة يعرف اليوم باسم فراسكاتى.

ينبغي وآمل أن أذهب بعد الإفراج مباشرة إلى قرية صغيرة مطلة على البحر مع «ر» و«م»[1]، إن البحر كما يقول «يوريبيدس» في إحدى مسرحياته حول «إيفيجنيا»، يغسل بقع العالم وجروحه.فأرجو أن أقضي شهرا على الأقل مع أصدقائي، وأن أبلغ السلام والتوازن الذي أنشده، وأن أنعم بقلب أقل إضراما، ومزاج أكثر تناغما. إنني أشعر بشوق غريب للأشياء البدائية ال سيطة والعظيمة، كالبحر الذي هو لي بمثابة الأم. يبدو لي أننا جميعاً نتطلع إلى الطبيعة، ونعيش معها بأقل من اللازم. ألاحظ قدراً كبيراً من العقلانية في موقف الإغريق من الطبيعة.فهم لم يتحادثوا مطلقاً عن منظر غروب الشمس، أو أنهم قد ناقشوا ما إذا كان لون الظلال على العشب بنفسجيا أم لا. بل رأوا أن البحر وجد للسباحين والرمال لأقدام العدائين. لقد أحبوا الأشجار للظل الذي يلقونه منها، والغابة لما فيها من سكينة في وقت الظهيرة. كان فلاح العنب يجدل شعره بنبات العليق ليحمي نفسه من أشعة الشمس وهو ينحني فوق البراعم الصغيرة، أما الفنان والمصارع، وهما النوعان اللذان ورثنا إياهم اليونانيون، فقد كانا يجدلان شعرهما بأوراق الغار المر والبقدونس البري، ولم يكن لهما أي نفع آخر لخدمة الرجال.

إننا ندعو جيلنا بالنفعي، ومع ذلك فإننا لا نعرف الانتفاع ولو بشيء واحد! لقد نسينا أن الماء يمكن أن ينقى، وأن النار يمكن أن تطهر، وأن الأرض هي أمنا جميعا. وكنتيجة لذلك استوحينا فنونا من القمر، وتلاعبنا بالظلال، بينما استوحى الإغريق فنه من الشمس، وتعامل مع الأشياء مباشرة، إنني على ثقة بأن في القوى البدائية تطهيرا للإنسان، ولذلك

(1) روبي ومور أدي.

فأنني أريد أن أعود إلى تلك القوى لأعيش في وجودها. بالطبع بالنسبة إلى شخص عصري مثلي، وباعتباري «طفلا لهذا الجيل»، فإن مجرد النظر إلى العالم سيكون محبباً في كل حين. إن قلبي يهتز فرحاً عندما أتخيل أنه في يوم مغادرتي لسجني، سيتحول كل من الورود الحمراء والصفراء إلى حدائق غناء، وسأرى الرياح تثير جمالاً مخلفاً للذهب المتطاير، أو مطلقة لسراح الريش الإرجواني للطيور، فأراها لا تقل جمالاً عن رياح جنات عدن. لقد خر لينيوس على ركبتيه وبكى فرحاً عندما رأى للمرة الأولى مرجاً طويلاً في واحد من المرتفعات الإنجليزية وقد تحول إلى اللون الأصفر بعد أن كسته الزهور العطرية الصفراء بلونها؛ وأنا أعلم أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة لي، فلطالما كانت الزهور بالنسبة لي جزءاً من الرغبة. لذلك ستكون هناك دموعا في انتظار أوراق بعض الورود. لقد كان الأمر كذلك معي منذ طفولتي. فلا يوجد لون واحد مخفي في كأس الزهرة، أو منحنيات القشرة، والتي لا تستجيب لها الطبيعة بسبب تعاطفها الخفي مع روح الأشياء ذاتها، وكما كان «جوتيه»، كنت واحد من هؤلاء الذي وجد العالم المرئي من أجلهم.

بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك، فالواقع أنني أشعر الآن بأن من وراء كل هذا الجمال، وإن كان فيه كل الرضا، روحاً مخفية، وليست كل هذه الصور والأشكال في تلونها إلا مظاهر منها، وقد أصبحت راغباً في أن أكون في توافق مع تلك الروح؛ فقد وصلت إلى حالة السأم من ما يتفوه به الناس من عبارات صريحة، إن الشيء المبهم في الحياة، والمبهم في الطبيعة، هو ما أبحث عنه، وربما وجدته في سيمفونيات الموسيقى العظيمة، أو بدايات الحزن، أو في أعماق البحار، وإنما من المهم جداً أن أحصل عليه في أي

مكان كان.

جميع المحاكمات هي محاكمات لحياة الإنسان، وكل ما ينطق به القاضي من أحكام، هو نطق لحكم الإعدام. وقد حوكمت ثلاث مرات. في المرة الأولى التي غادرت فيها القفص ليلقى القبض عليّ مرة ثانية، وفي المرة الثانية أُخِذتُ إلى المعتقل وفي الثالثة أُرسِلتُ إلى السجن لمدة عامين. إن المجتمع، كما أنشأناه، لن يكون فيه مكان لي، وليس لديه ما يقدمه لي؛ ولكن الطبيعة، التي تسقط أمطارها الحلوة على الظالم والعادل على حد سواء، وبشقوق صخورها التي قد أختبئ بها، والوديان السرية التي أستطيع أن أبكي فيها خفية دون أن يزعجني أحد. وسأعلق في الليل مع النجوم حتى أسير في الخارج المظلم دون أن أتعثر، وسترسل الرياح لتمحو آثار قدمي وسوف تطهرني المياه العظيمة، وبأعشابها المرة ستعيدني كاملاً.

وفي غضون شهر، تصبح ورود يونيو في كامل بهائها، سأقوم بتدبير الأمر عن طريق «روبي» إذا وجدت في نفسي القدرة على ذلك، لألتقي بك في إحدى المدن الأجنبية الهادئة كمدينة «بريج» التي كان لبيوتها الرمادية، وقنواتها الخضراء، وطرقها الباردة الساكنة، سحر خاص سيطر علي لسنوات خلت. وسيكون عليك أن تغير اسمك مؤقتا، وتطرح جانباً ذلك اللقب الصغير الذي خلف فيك كل هذا الغرور ـ وهو الذي جعل اسمك يبدو في الواقع كما لو كان اسماً لزهرة! ويجب أن تقبل ذلك، إذا كنت تريد أن تراني، وسأغير بدوري اسمي أيضاً، الذي طالما كان أيقونة موسيقية تعزف على أوتار الشهرة، ما أضيق قرننا هذا، وما أخسه، وكم من قليل جازى به من عمل الكثير! بمقدوره أن يقدم للنجاح قصراً من

المرمر، غير أنه لا يهب للحزن والعار أي بيت ولو كان من صفصاف يحتميان به، إن كل ما يستطيع أن يقدمه لي هو أن يلزم علي أن أستبدل اسمي باسم آخر، بينما كان باستطاعة القرون الغابرة، حتى القرون الوسطى، أن تقدم قلنسوة الراهب، أو قناع وجه المجذوم، لأشعر بشيء من الراحة بينما أكون مختفياً خلفهما.

أرجو أن يكون لقاؤنا القادم، كما ينبغي عليه أن يكون اللقاء بيني وبينك. بعد كل ذلك الذي حدث، عرفت أنه قد كانت هناك دائما فجوة بيننا، ومنذ قديم الأيام التي عرفتك بها، لقد كانت تلك الفجوة بين الفن المنجز والثقافة المكتسبة، حتى أصبح بيننا الآن فجوة أكبر، صنعها الحزن. ومع ذلك فلا يوجد هناك ما هو مستحيل في حالة الحزن، كما تكون كل الاشياء سهلة في حالة الحب.

أما فيما يتعلق بردك على الخطاب، فتستطيع أن تجعله طويلاً أو قصيراً، كما تشاء. اكتب على المظروف: «المحافظ، سجن صاحبة الجلالة، ريدنج» وبداخله مظروف آخر مفتوح، وجه خطابك إليّ، فإذا كتبت على ورق رفيع، فلا تكتب على وجه الورقة، فسيجعلها ذلك صعبة القراءة على الآخرين. لقد كتبت إليك بحرية تامة، وأرجو أن تكتب إليّ كذلك بالمقابل. إن ما يجب أن أعلمه منك هو: لماذا لم تحاول قط أن تكتب لي؟ فمنذ أغسطس العام السابق، كنت على علم بمقدار العذاب الذي سببته لي، وكنت مدركاً لذلك، بل واعترفت للآخرين بأنك علمت ذلك، وقد زاد علمك به في مايو من العام الماضي، وها قد مضى أحد عشر شهراً بينما كنت أنتظر شهراً بعد آخر لأسمع منك دون جدوى، وحتى لو لم أكن في انتظارك، وأغلقت دونك

أبوابي، فقد كان يجب عليك أن تذكر، أن أحداً لا يستطيع أن يغلق أبواب الحب إلى الأبد. فالقاضي الظالم، كما جاء في الإنجيل، ينهض في النهاية ليصدر قراراً عادلاً، بعد أن كان العدل مستمراً بقرع أبوابه كل يوم، والصديق الذي لم يكن في قلبه ذرة من الصداقة الحقيقة، فإذا ما جاء الليل يستسلم في النهاية لصديقه، ليس هناك سجن في العالم لا يجد الحب طريقاً إليه، فإذا لم تفهم هذا فإنك لم تفهم شيئاً بتاتا عن الحب. ثم دعني أعلم كل شيء عن مقالتك عني إلى صحيفة «مركيز د فرانس» لقد علمت بعضاً مما جاء فيها، فلقد طُبِعَت، ولكنني أفضل أن تقتبس لي منها في رسائلك، وبودي أن أعرف أيضاً ما هي الصيغة الصحيحة التي وضعتها في الإهداء الذي وجهته لي في أشعارك، فإذا كانت نثراً فانقلها لي، وإذا كانت شعراً فانقلها كذلك، فليس لدي أدنى شك في أن فيها مسحة من الجمال.

اكتب لي بصراحة عن نفسك، عن حياتك، وأصدقائك، وعن أوجه نشاطاتك، وعن كتبك التي تقرأها، واخبرني كذلك عن كتابك الذي أصدرته، وكيف كانت الانطباعات حوله، ومهما كان ما تريد أن تقوله عن نفسك، فيمكنك أن تقوله من دون خوف، ولكن الشيء الوحيد الذي لا أريد منك أن تكتبه هو أن تكتب ما لا تعنيه، فإذا جاء في خطابك كذبًا أو زورا فاعلم بأنني سوف أمزقه بواسطة خاتمي في الحال، فهل كنت تحسب أنني كان قد أوصلت أخلاقي إلى هذا المستوى الرفيع عبثاً أو إلى غير غاية.

أريدك أن تذكر أيضاً بأنني لا أزال بحاجة إلى معرفتك، لكن من يدري، فربما كنا لا نزال بحاجة إلى معرفة أحدنا الآخر!

لم يبق هناك سوى شيء أخير أريد أن أقوله لك: لا تخف من الماضي! فمهما قال لك الناس، أن الماضي لن ينقضي من حياتك، فلا تصدقهم. إن الماضي، والحاضر، والمستقبل، ليسوا سوى لحظة واحدة في علم اللّه. وهو الذي يجب أن نحاول أن نعيش في علمه. إن الزمن والمكان، والتعاقب والامتداد، جميعها مجرد حالات مؤقتة يمر بها الفكر. والمخيلة تستطيع أن تتخطى هذا كله، لتتحرك في دائرة حرة من حالات الوجود المثالية. وكذلك الأشياء، فهي تكون في جوهرها ما نريدها لها أن تكون. فالشيء يأتي طبقا للحالة التي ينظر المرء فيها إليه، يقول «بليك» blake: «حيثما لا يرى الآخرون أكثر من الفجر يبزغ فوق التلال، أرى أبناء اللّه يهتفون للسرور» لقد تصور العالم، وتصورت كذلك بدوري ما يمكن أن يكون عليه مستقبلي، ولكنه ضاع من يدي، وعندما أقدمت على رفع القضية على والدك، أمكنني أن أقول الآن إن مستقبلي كان ضائعاً قبل ذلك منذ زمن طويل. إن ما يقع أمامي الآن هو امتداد للماضي، لقد أوتيت المقدرة على أن أنظر إليه بعين مختلفة، وأن أجعل العالم ينظر إليه بطريقة مختلفة، وأن أجعل اللّه ينظر إليه كذلك، غير أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بتجاهله، أو التقليل من شأنه، أو بامتداحه، أو بإنكاره. فليس هناك طريق سوى قبوله بشكل كامل، كجزء لا مفر منه من نشوء حياتي وتطورها طبيعتي، ليس هناك من سبيل، سوى أن أحني رأسي لكل شيء تعذبت منه، وكم يبعدني ذلك عن مزاجي النفسي الحقيقي! هذا ما ستظهره لك هذه الرسالة بوضوح تام، بما في من حالات متقلبة ومتشككة، وما فيه من سخرية ومرارة، ولهفة، وفشل في الوصول

إلى تحقيق ما ألهف عليه، ولكن لا تنسى أي مدرسة مريعة أجلس فيها الآن لأداء واجبي، فإذا كنت لا أزال بعيداً عن الكمال، فربما كان هناك الكثير مما تستطيع أن تستفيده مني. لقد قدمت إلي لتتعلم من السرور في الحياة والسرور في الفن، ولكن من يدري، فربما كان قد وقع علي الاختيار لتتعلم مني شيئاً أكثر إذهالا: معنى الحزن، وما فيه من جمال!

صديقك المحب
أوسكار وايلد

سجن ريدنج

(1)

لم يكن مرتدياً معطفه القرمزي
بسبب الدم والنبيذ الأحمر
الذي لطخ يديه
عندما عثروا عليه بجوارِ الجثة
جثة المرأة المسكينة التي أحبها
وقُتِلت على سريرها

مشى بين رجال المحكمة
بحلةٍ رمادية اللون
وفوق رأسه قبعة صغيرة
بدت خطواته خفيفة وقصيرة
لكنني لم أرَ مطلقاً
رجلاً ينظر بهذا الكم من الحزن

لم أرَ رجلاً بحياتي

ينظر بتلك العيون الحزينة

إلى الخيمة الصغيرة الزرقاء

التي يدعوها السجناء

بالسماء

وإلى كل سحابة مندفعة مرت

تحف بها أشرعة من فضة

مشيت مع الأرواح الأُخرى بألم

داخل حلقة واحدة

وكنت أتساءل ما إن كان الرجل

قد ارتكب جُرماً عظيماً أو صغيراً

حينها جاء صوت هامس من ورائي

«هذا الرفيق محكوم بأن يتأرجح بالمشنقة»

عزيزي المسيح! إن جدران السجن ذاتها

تكاد أن تتهاوى

وإن السماء من فوقي
مثل خوذة من الصليب المكوي بالنيران
ومع أنني كنت ممن أُلحِق بهم الألم
إلا أنني لم أستطع أن أشعر بألمي

وإنما كنت على علم بتلك الفكرة الملحة
التي عجلت بخطاه، ولماذا
كان ينظر إلى اليوم البهيج
بتلك العيون الحزينة؛
لقد قتل الرجل الشيء الوحيد الذي أحبه
لذلك كان عليه أن يموت.

في النهاية، يقتل الجميع الشيء الذي يحبونه
وليسمعوا ذلك
بعضهم يُقتَل بكلمة مريرة
والآخر بكلمة متملقة
والجبان يُقتَل بقبلة
أما الشجاع فيقتل بالسيف!

بعضهم يقتل حبه عندما يكون صغيراً
والآخر يقتله عندما يشيخ

بعضهم يخنق بيدٍ من شهوة
والآخر بيدٍ من ذهب
أما الألطف بينهم، فهو الذي يستعمل السكين
حتى لا يمهل القتيل وقتاً للعذاب

بعض قصص الحب قصيرة وبعضها الآخر طويلة
وبعضهم يبيع، والآخر يشتري
وبعضهم يقدم على الفعل بالكثير من الدموع
والآخر بلا تنهيدة واحدة
فكل رجلٍ يقتل الشيء الذي أحب
ولكن لا رجل يموت!

لا يموت ميتة العار
في يوم مظلم بالخزي
ولا يجد حبلاً يطوق عنقه

أو غطاءً يخفي وجهه
ولا تتدلى قدماه من الأرض
إلى العدم

إنه لا يجلس بين رجال صامتين
ممن يحرسونه في الليل والنهار
يراقبونه كلما حاول أن يبكي
وكلما حاول أن يصلي
ويترقبونه خشية أن يسرق
من السجن فريسته.

لا يستيقظ فجراً
ليشاهد شخصيات مرعبة
تغمر غرفته
القسيس الذي يرتجف بردائه الأبيض
والمأمور المنقبض في كآبته السوداء
والحاكم الذي كل ما فيه يشع بالسواد
وبوجهه الأصفر الذي يوحي بالموت

إنه لا ينهض في عجلة يُرثى لها

ليرتدي ملابس المدانين

بينما يقف طبيب فظ اللسان شامتاً

وهو يسجل كل جديد يطرأ على نبضاته

وأعصابه

ويجس النبض من خلال ساعته التي

يشبه وقع صوتها

ضربات المطرقة المروعة

إنه لا يعرف ذلك الظمأ المقزز

الذي يترك الرمال في الحلق

قبل أن يدخل الجلاد من الباب المبطن

وقد وضع في يديه قفاز البستاني

ليقيده بثلاثة سيور من الجلد

حتى لا يظمأ الحلق بعدها أبداً

إنه لا يحني رأسه لسماع

تلاوات شعائر الدفن

وينبئه الرعب الذي بداخله

إنه لم يُفارق الحياة

فيسير على نعشه الخاص

ويتحرك

في داخل الحظيرة الموحشة

وهو لا يحدق في الهواء

من خلال سقفٍ صغير من زجاج

ولا يصلي بشفاهٍ من طيب

ليمرر منها معاناته

ولا يشعر بقبلة قيافا [1]

وهي تطبع على خده المرتجف

(1) يوسف بن قيافا المعروف بقيافا، وهو رئيس كهنة اليهود ومن الذين شاركوا في محاكمة المسيح واضطهد أتباعه.

(2)

مضت ستة أسابيع، والحارس يمشي بالفناء

مرتدياً حلة رمادية رثة

وعلى رأسه قبعته الصغيرة

تبدو خطواته خفيفة وقصيرة

ولكنني لم أرَ مطلقاً

رجلاً ينظر بهذا الكم من الحزن

لم أرَ رجلاً بحياتي

ينظر بتلك العيون الحزينة

إلى الخيمة الصغيرة الزرقاء

التي يدعونها السجناء

بالسماء

وإلى كل سحابة جرت خلفها

أذيالها المتحررة في الفضاء

لم يعتصر يديه، كما يفعل
حمقى الرجال من المندفعين
لمحاولة إعادة الأمل المتغاير
إلى كهف اليأس الأسود
لم ينظر سوى إلى الشمس
محتسياً شراب الهواء

لم يتعصر يديه، ولم يذرف دموعاً
ولم يختلس النظر حسرة
أو يهلك جسده من الشوق
وإنما كان يستنشق الهواء
كما لو كان شفاء
ويفتح فمه ليحتسي من الشمس
كما لو كانت خمرا!

أنا وجميع الأرواح المجتمعة في الألم
تجولنا في حلقة أخرى
ونسينا ما إن كنا قد اقترفنا شيئاً

صغيراً أو كبيراً

ومضينا نراقب بدهشة كئيبة

ذلك الرجل الذي حكم عليه

بأن يتأرجح في المشنقة

ومن الغريب أننا كنا نراه يعبر

بخطى في مثل تلك

الخفة والبهجة

وكان من الغريب أن نراه

ينظر بحزن شديد في ذلك اليوم

معتقدا بأنه قد توجب عليه

الوفاء بدينه

إن شجر البلوط والدردار له أوراق لطيفة

يتجدد نبتها كل ربيع

وإنما المفزع أن ينظر المرء

إلى تلك الشجرة الهائلة

بجذرها الذي لسعته الأفعى

وقد توجب عليها

خضراء كانت أو جرداء

بأن يشنق على جذعها إنسان

حتى قبل أن تؤتي

شيئاً من الثمار!

إن أرفع الأماكن ذلك الذي تغمره النعمة

ذلك الذي يحاول الوصول إليه جميع الماديين

ولكن من ذا الذي يرضى بالوقوف

في حلقةٍ من القنب

وفوق هيكلٍ عالي

وفي الطوق الذي يلتف حول القاتل

مرسلاً آخر نظراته إلى السماء

كم هو جميل الرقص على إيقاع الكمان

عندما تكون الحياة منصفة مع الحب

والرقص على أنغام العود والناي

رقيق ونادر

ولكن الأمر ليس جميلاً مع الأقدام

التي ترقص متأرجحة في الهواء!

وهكذا بعين من الفضول وحدس من الخيال
مضينا نتطلع إليه يوما بعد آخر
وكنا نتساءل في عجب ما إن كنا
سننتهي بالطريقة نفسها
وذلك لأن أحداً لا يعلم
في أي جحيم أحمر
سوف تستقر روحه
القصيرة النظر

وأخيراً لقد توقف الرجل الميت
عن المشي بين رجال المحاكمة
وقد علمت أنه كان واقفاً
في الحظيرة المرعبة
وقفص الاتهام المروع
وإنني لن أرى وجهه مرة أخرى
في عالم اللّه الجميل

مثل سفينتين منكوبتين تبحران في العاصفة

عبر كل منا طريق الآخر

غير أننا لم نبدِ أي إشارة، أو نحرك شفاهنا

إذ لم يكن لدينا ما نستطيع قوله

فنحن لم نلتقِ في الليلة المباركة

بل في يوم الفضيحة

كانت حيطانَ السجنِ من حولنا

وكنا اثنين من المنبوذين

أخرجهما العالم من قلبه

وطردهما اللّه من رحمته

فما لبثنا أن وقعنا

في حبائل مصيدة جهنمية

نصبت للمذنبين

(3)

في فناء السجن، الأحجار قاسية
والجدران المتعرقة عالية الأسوار
هناك مضى يستنشق الهواء
تحت السماء الرصاصية
وعلى كل من جانبيه حارس
خشية أن يفارق الرجل الحياة
أو أنه كان يجلس بين من راقبوه
في كل نهار وليل مطبق على العذاب
أولئك الذين كانوا شهوداً على بكائه
وصراخه للصلاة
وكانوا يحرسونه كي لا يسرق
من هيكلهم فرائسه

كان للحاكم قوة بالغة

في تنفيذ حكم القانون

وكان الطبيب يردد

بأن الموت حقيقة علمية

وكان يدعو الكاهن ليأتي

مرتين كل يوم

تاركا ورائه أوراق مواعظه

وكان الرجل يدخن غليونه مريتن كل يوم

ويحتسي ربع زجاجة من الجعة

كانت روحه عالية

ولم يكن هناك محل للخوف في قلبه

في كثير من الأحيان يقول بأنه

يشعر بالسعادة

كانت أيدي الجلاد بمقربة منه

ولكن لم كان يقول

شيئاً غريباً كهذا؟

لم يجرؤ الحارس على السؤال

لأن من حكم عليه

بأن يعمل حارساً

يجب أن يضع على شفتيه قفلاً

وعلى وجهه قناعاً

وإن لم يكن كذلك

فربما قد يتحرك قلبه

ويسعى للعزاء والمواساة

ولكن ماذا تنفع الشفقة الإنسانية

إذا حُبِسَت في حجر القاتل

وكيف لكلمة الرحمة في مكان كهذا

أن تخلص روحه

في التراخي والتأرجح حول الحلقة

تبعنا موكب الحمقى

لم نعبأ بذلك، فقد علما بأننا أعضاء

في فرقة الشيطان الخاصة

كانت رؤوسنا محلوقة

وأقدامنا رصاصية

كما لو كنا في حفلة تنكرية

مزقنا حبال القطران إلى أشلاء

بأظافر ملوثة تسيح منها الدماء

فركنا الأبواب والأرضيات

ولمعنا القضبان

وفي صف بعد آخر أصلحنا الألواح

وحمل كل منا دلوه

وسار به وهو يقرقع

قمنا بخياطة الأكياس، وحطمنا الحجارة

وحرثنا الأرض، مستنشقين الغبار

وطرقنا الصفائح

وصدحت أصواتنا بالتراتيل

وعرقنا في إدارة الطواحين

و لكن في قلب كل رجل منا

كان الفزع لا يزال مستلقيا

وبقي على وضعه مستلقياً كل يوم

يزحف مثل الموجة التي تراكمت

فيها الأعشاب الضارة

وكنا قد نسينا مصيرنا المشؤوم

الذي ينتظر الأحمق والوغد

حتى حدث مرة في عودتنا

من الشقاء

أن مررنا بقبر لا يستره حجاب

كما يفعل الفم المتثائب مع الهواء

كان هناك ثقبٌ أصفر

يفتح فمه ليبتلع الأحياء

والطين نفسه، كان يستجير مطالباً بالدم

من حلقة الإسفلت العطشى

وعلمنا أنه ذات فجر

سوف يكون على واحدٍ منا

أن يتأرجح على المشنقة

بأمر العدالة

ومضينا إلى الداخل

مع أرواحنا المستغرقة

في الموت والخوف

والقدر الغاشم

وجاء الجلاء بحقيبته الصغيرة

الممتزجة بالتعاسة

وارتعد كل رجلٍ منا وهو يفلت

من قبره المعتبر

في تلك الليلة

كانت جميع الممرات فارغة

ومليئة بأشكال الخوف

وفي أعلى المدينة الحديدية وأسفلها

مضت تسترق خطى لا نسمعها

ومن خلال القضبان التي تخفي النجوم

تراءت وجوه بيضاء

استلقى كما ينام المرء ويحلم
في أرضٍ مرحة ولطيفة
كان الحراسُ يراقبونه وهو نائم
ولم يتمكنوا من أن يفهموا
كيف يمكن للمرء
بأن ينعم بنومٍ هنيء
بينما يقف الجلاد فوق رأسه
بحبلٍ متين

ولكن لا وجود للنوم
عندما يبكي الرجال
ممن لم يذرفوا من قبل
دمعة واحدة
وهكذا احتفظنا نحن الحمقى
والغشاشين
والأوغاد

بيقظة لا نهاية لها

وفي داخل كل عقلٍ

سيطر الألم

وتسلل خوفٌ آخر

وا حسرتاه! إنه لشيء مخيف

أن يشعر المرء بذنب غيره

لأن سيف الخطيئة المسموم

سوف يتسلل إلى الأعماق

ومثل الرصاص المنصهر

كانت الدموع التي سكبناها

على دماء لم نسفكها

زحف الحراس بأحذيتهم

المصنوعة من الشعر

ومضوا يختلسون النظر من وراء الباب

و بعيون مليئة بالرهبة،

إلى أجساد رمادية منحنية على الأرض،

وتساءلوا لماذا يركع الرجال للصلاة

وهم لم يصلوا مسبقاً؟

طوال الليل كنا نركع ونصلي،

حزانى ومسلوبي العقل من الضيق

كانت الريشة تتأرجح في منتصف الليل

على النعش

والنبيذ المر العالق بالإسفنجة

كان في مذاقه طعم الندامة!

صاح الديك الرمادي، صاح الديك الأحمر،

غير أن النهار لم يأتِ قط

وأشكال الخوف تتلوى،

في الزوايا التي نضجع فيها

وكل الأشباح التي كانت تسرح ليلاً

بدت وكأنها تلهو أمامنا

كانوا ينزلقون بعيداً، وينحدرون سريعاً

مثل المسافرين من خلال الضباب

لقد سخروا من القمر راقصين

في استدارة سريعة

مع خطى محمومة

وحركات بغيضة

واستمروا على هذا الإيقاع

وجدناهم يرحلون وعلى وجوههم سحنة الكدر

والغضب

ظلال رفيعة يد كل منهم مشتبكة

بيد من بجواره

وكل واحدٍ منهم بجوار الآخر

وفي جمهرة شيطانية

مضوا يحاكون رقصة إسبانية

وأخرجوا صوراً

أشبه بالزخارف العربية

كما تفعل الرياح فوق الرمال

في حركات المهرج البهلوانية
مضوا يتخبطون متعثرين
وملأت أصوات مزاميرهم الآذان
بالخوف والفزع
ومثل قناعهم المريع
بدأوا يغنون بصوت عالٍ
يغنون طويلاً
لأن على غنائهم
أن يوقظ الموتى.

وكانوا يصيحون
«أوه! إن العالم واسع
لكن الأقدام المقيدة
تُعيق عن الحركة!
وأن ترمي النرد مرة أو مرتين
فهذا لعب نبيل
ولكن الذي يلعب مع الخطيئة
في البيت السري للعار
لا يفوز».

لم تكنِ تلك الأشباح

التي فرحت مع هذه الغبطة

محض خيالٍ

فقد بدت حقيقة لمن سلبوا الحرية

والذين قد لا تتحرر أقدامهم

من الأغلال

آه! يا جراح المسيح!

لقد كانوا كائنات حية

وكانوا أفظع ما يمكن

أن تراه

حولنا، حولنا، رقصوا وغنوا

بعضهم التقى في ازدواج مصطنع

وفي خطى تعرجت بحماقة

وبعضهم الآخر انحرف فوق السلالم

وبسخرية خبيثة

ونظرة ماكرة

مضى كل واحدٍ منهم

يساعدنا في تلاوةِ صلواتنا!

بدأت رياح الصباح تأن
وما زال الليل مستمراً
وأخذ نسيج الكآبة يلوح
في الأفق البعيد
حتى بددَ كل خيوطه
وبينما كنا نصلي
شعرنا بالخوف
من قضاء الشمس!

مضت الرياح النائحة تتخبط
حول سياج السجن الباكي
ومثل عجلة الصلب الدائرة
كنا نشعر بالدقائق
وهي تزحف ببطء
يا رياحَ الأنين، ماذا كنا قد ارتكبنا
لنقاسي هذا كله!

وأخيرا رأيت القضبان المظلمة
كأنما هي شباك صنعت من رصاص
تتحرك قدما عبر السور المطلي بالبياض
الذي يواجه سريري ذو المراتب الثلاث
وعلمت أنه في مكان ما من العالم
كان لون فجر اللّه المروع أحمراً

في الساعة السادسة نظفنا الزنزانات
في السابعة ساد السكون المكان
غير أن جناحاً هائلاً كان يتأرجح
فبدا السجن ممتلئاً به،
فقد جاء ملك الموت بأنفاسه الثلجية
ودخل إلى المكان ليقتل!

لم يقدم في موكب أرجواني
ولا ممتطياً صهوة جواد أبيض
فالمشنقة لا تحتاج إلى أكثر من
ثلاث ياردات من الحبل

ولوحة منزلقة

ليستطيع النذير

أن يقوم بعمله السري

مستخدماً حبال العار

كنا كمن مضى يتحسس طريقه

في الظلام الدامس

ولم نجرؤ على التنفس

أو على التعبير عن معاناتنا

فقد كان هناك شيء قد مات

في قلب كل واحد منا

وكان هذا الشيء هو الأمل

ذهب رجل العدالة المتجهم

إلى طريقه

ولم ينحرف عن مساره

ذبح الضعيف، وذبح القوي

ولديه قدم قاتلة

تذبح القوي بسحقة من حديد،

وتقتل المتوحشين

كما تقتل الأبرياء

انتظرنا أن تدق الساعة للمرة الثامنة

وقد جفت كل الألسنة من العطش

لأن الدقة الثامنة، هي التي تحدد المصير

وفيها تحل اللعنة على الإنسان

أفضلهم كان أو أسوأهم

وتلتف حول عنقه حبال المشنقة

لم يكن لدينا شيء آخر نفعله،

سوى انتظار ظهور العلامة:

هكذا كنا،

مثل حجارة في وادٍ وحيد،

جلسنا بهدوء

ولبثنا صامتين

غير أن قلب كل منا كان يخفق سريعاً

ويدق ثقيلاً

كما يدق المجنون على طبل!

وكان أن دقت الساعة فجأة
فسرى صداها في الهواء المرتجف
وارتفعت أصوات العويل
من اليأس العاجز
في جميع أرجاء السجن
كصوت المجذوم يأن في عرينه
ويتردد صوته في مستنقعات مليئة
بالخوف

وكما يرى المرء أشد الأشياء هولاً
في بلورة الحلم،
رأينا حبل القنب الدهني
منعقداً إلى دعامة سوداء
وسمعنا الجلاد يصلي بهمهمة
قطعتها صرخة مُفزعة!

ما خرج مع تلك الصرخة المريرة،

من الندم المهول

والتعرق الدامي

لم يَشعر به أحدٌ سواي

لأن الذي يعيش أكثر من حياة

يُعاني أكثر من موت!

(4)

إن الكنيسة لا تفتح أبوابها

في اليوم الذي يُشنَق فيه رجل

فقد يمرض قلب القسيس

أو يصبح وجهه باهتاً جداً

أو أن تلمع عيناه

بما لا يستطيع أحد أن يقرأه

وهكذا أبقوا علينا مجتمعين

حتى اقترب وقت الظهر

ثم قرعت الأجراس،

وجاء الحراس بمفاتيحهم المجلجلة

ليفتحوا كل زنزانة مستمعة،

وهبط كل واحدٍ منا

من جحيمه المنفصل

إلى السلم الحديدي

خرجنا في هواء اللّه الجميل
غير أن حالنا مختلفاً عن العادة،
لأن وجه هذا الرجل
كان أبيضَ من الخوف،
ووجه الرجل الآخر
كان رمادياً،
ولم أرَ في حياتي رجالاً
كانوا ينظرون بحزنٍ شديد
مثل ذلك اليوم

لم أرَ في حياتي رجالاً نظروا
بمثل تلك العيون الحزينة
على تلك الخيمة الصغيرة من اللون الأزرق
التي كان السجناء يدعونها
بالسماء،
وإلى كلِ سحابة مهجورة مرت

في حرية وصفاء.

ولكن كانوا بيننا جميعاً
أولئك الذين كانوا يمشون
منكسي الرؤوس
فقد علموا، أنه لو حصل كل على حقه،
لكان أحرى بهم أن يموتوا
عوضاً عن ذلك
فقد قتل الرجل شيئاً حياً
بينما هم فقد قتلوا الموتى.

ومن يخطئ مرة ثانية
فهو يوقظ روحاً ميتة
لتتألم من جديد،
ويسحبها من كفنها الملطخ،
ويجعلها تنزف مرة أخرى،
ويجعلها تنزف الكثير من دمائها،
ويجعلها تنزف عبثا!

مثل القرد أو المهرج، في ثيابٍ مريعة
متأنق بسهام ملتوية،
مضينا بصمتٍ، نجتمع ونجتمع
في ساحة من الإسفلت الزلق.
بصمتٍ مضينا، نجتمع ونجتمع،
ولم ينبس أحدٌ منا بكلمة

بصمتٍ مضينا، نجتمع ونجتمع،
ومن خلال كل عقلٍ أجوف
اندفعت ذكرى مروعة
كما تندفع الرياح العاتية،
وقد انساب الفزع أمام كل واحدٍ،
وتسلل الخوف من ورائه.

أخذ الحراس يتقابلون صاعدين نازلين
ومضوا يحرسون قطيعهم من المتوحشين،
كان الزي الرسمي الخاص بهم أنيقا،
فقد كانوا يرتدون بدلات يوم الأحد،

غير أننا قد علمنا ما هو عملهم،
من آثار الجير الحي فوق نعالهم

فحيثما يفتح قبر واسع،
لا يكون هناك قبر على الإطلاق
بل مجرد امتداد من الطين والرمال
بجانب سور السجن البائس،
وكومة صغيرة من الجير المحترق،
هي كل بساط الرحمة للرجل!

ولأجل ذلك الرجل البائس
كان بساطُ الرحمةِ،
ولكن من نوعٍ لا يتصوره إنسانٌ
في أسفل أعماق فناء السجن،
يرقد عارياً ليستزيد من العارِ،
وقد أغلق على كل من قدميه أغلالاً،
ملتفة بغطاء من نار!

وطوال الوقت يمضي الجير المحترق

في أداء مهمته

فيأكل اللحم والعظم،

يأكل العظام الهشة ليلاً،

واللحم الطري نهاراً،

يأكل اللحم والعظم بالتناوب،

ولكن ما يأكله دائما

هو القلب

لمدة ثلاث سنوات لن يزرعوا شيئاً

في تلك البقعة

ولن تغرس فيها شتلة

أو تنثر فيها البذور

لمدة ثلاث سنوات ستظل البقعة

عارية وعقيمة

تتطلع إلى السماء المتعجبة

بنظرة جديرة بالرثاء

يعتقدون أن قلب القاتل يلوث

كل بذرةٍ بسيطة يزرعونها.

هذا غير صحيح! فأرض اللّه الطيبة

أشفق مما يعتقد الرجال،

والوردة الحمراء تزداد هنا احمرارَ،

والوردة البيضاء تزداد نصاعة!

من فمه تخرج وردة حمراء!

من قلبه تخرج وردة بيضاء!

وإلا فمن يستطيع أن يخبر

بأي طريقة عجيبة

أخرج المسيح إرادته إلى النور،

بعد أن أزهر العود الجاف في يد الحاج

بنظرة من الأب الحنون!

ولكن لا وجود لورود حمراء وبيضاء

في السجن

فالحصى والحجر والصوان

هو كل ما يجود به هذا المكان

لقد كانت الزهور معروفة

بقدرتها على الشفاء اليأس

من قلب الإنسان

لذلك لن تتساقط في الخريف

أوراق الورود الحمراء أو البيضاء

الورقة بعد الأخرى

على هذا الامتداد الممهد بالطين والرمال

التي يقع جانب سور السجن البائس،

لإخبار الرجال الذين يصيحون بالفناء

أن ابن اللّه مات من أجل الجميع

ومع ذلك فإن ذلك السور البائس

لا يزال يقرع

في صولات وجولات

وإن كانت قد لا تسرح في المساء
تلك الأرواح المقترنة في الأصفاد
ولن تبكي غيرها، تلك الأرواح التي
أسرتها تلك البقعة المدنسة

ينعم بسلام ـ هذا الرجل البائس ـ
أو بسلام سيأتي قريباً
فليس هناك شيءٌ يسبب له الجنون،
ولا فزع يقدم إليه
في وضح الظهيرة،
لأن الأرض العقيمة التي يرقد فيها
لا يوجد بها شمس ولا قمر.

لقد شنقوه كما يشنق الوحش:
ولم يقيموا الصلاة على
روحه المفزوعة
عندما قرعت أجراس القداس
بل أخرجوه على عجل،

وأخفوه بحفرة.

جردوه من ملابسه الخشنة،
وقدموه طعاماً للذباب
سخروا من عنقه المتورم الأحمر،
ومن عينيه الصارخة والمحدقة
وفي ضحكات مرتفعة مضوا يعدون الكفن
الذي سيمكث فيه قتيلهم

لم يركع القسيس لأداء الصلاة
بجانب قبره المشين
ولم يحتفل بذلك الصليب المبارك
الذي وهبه المسيح للخطاة،
لأن الرجل كان واحداً من أولئك
الذي نزل المسيح من أجل خلاصهم

على الرغم من كلِ شيءٍ، سارت الأمور
على ما يرام

فلقد عبر نحو حتمية الحياة

ودموع الغرباء سوف تذرف

عليه طويلاً

رحمة بقلبه الذي طالما قد انكسر،

وذلك لأن من سيندبه

هم المنبوذون،

والمنبوذون هم دائماً الحزانى!

(5)

إنني لا أعلم ما إذا كانت القوانين صحيحة،

أو كانت باطلة؛

كل ما نعلمه نحن القابعون في السجون

إن الجدران قوية للغاية

وأن كل يوم يشبه العام،

وإن عامنا أطول مما قد تحتسبه الأيام

ما أعرفه، أن كل قانون

قد صنعه الإنسان لنفسه،

منذ أول رجل سلب حياة أخيه،

بدأ العالم الحزين،

يلقي القمح جانباً، ويحتفظ بالقشِ

بمذراةٍ صُنِعَت من الشر

وهذا أيضاً ما أعلمه، وقد اتخذته حكمة

أرجو من الجميع أن يعلمها

أن كل سجن يبنيه الرجال

يبنى بطوبٍ من العار،

وتلزم بها القضبان

خشية أن يرى المسيح

كيف يشوه الرجال إخوانهم.

بالقضبان يطمسون وجه القمر،

ويحجبون نور الشمس الساطع عن الأعين:

من الحسن أن يفعلوا ذلك

من أجل أن يخفوا الجحيم،

ففيه تحدث الأمور

التي يجب أن ينظر إليها دائماً

ابن اللّه، لا ابن الإنسان

إن أكثر الأعمال شراً

كالأعشاب السامة

تزهر جيداً في هواء السجن

إن الجانب الخير في البشر

فهو ما يذبل ويندثر هناك:

والحارس الأكبر هو الألم الشاحب

أما السجان فهو اليأس

إنهم يجعلون الطفل الصغير

يتضور من الجوع

حتى يبكي ليلاً ونهاراً:

وابتلوا الضعيف وضربوا الأحمقَ

وسخروا من المسن والواهن

بعضهم يُصَاب بالجنون

وجميعهم يصبحون في النهاية

مجرمين،

ولا يستطيع أحدٌ أن يعترض بكلمة

كل زنزانةٍ ضيقة نعيش فيها

هي مرحاض قذر ومظلم،

والنفس النتن للموت الحي
يخنق كل صيحة موجوعة،
وكل شيءٍ عدا الشهوة
حيل إلى رماد
في دولاب الإنسانية المدار

الماء المالح الذي نتجرعه
يتسرب في وحل تعافه النفس،
والخبز المر الذي يزنوه بالميزان
ممتلئ بالجير والطباشير،
ولا نستلقي لنلقى النوم
بل نمشي
بأعين متوحشة،
ونبكي ليمضي الوقت

ولكن على الرغم من أن الجوع القارص
والعطش المتنامي
كانا يقتتلان كحية صغيرة مع أفعى كبيرة

لم نجنِ سوى أقل الرعاية من السجن
على ما تقشعر له الأبدان وتقتل به الأنفس
وكل حجرٍ كنا نرفعه في النهار
يمسي قلباً لكل واحدٍ منا في الليل

إنه الظلام الدامس دائما
في كل قلب،
والشفق المعتم في
كل زنزانة
ندير ساعد الدولاب، أو نمزق الحبال،
كل في جحيمه الخاص،
يكون الصمت أشدُ رهبة
من وقت صوت الجرس المهول

ولا يحدث أن يأتي صوت إنسان
ملقياً كلمة لطيفة
والعين التي تراقب من خلال الباب
قاسية لا ترحم

وفي نسيان من الجميع،

نتعفن ونمعن في العفن،

فتتشوه الأرواح والأجساد معاً

وهكذا نحن وحدنا من نحدث

الصدأ في سلسلة الحياة الصلدة

في عزلة ووحدة

يلعن بعض الرجال

وبعضهم يبكي

وآخرين لا يحدثون أي أنين

غير أن قوانين اللّه

الأبدية الرحيمة

قادرة على أن

تكسر قلب الحجر

وكل قلب إنساني ينكسر

في زنزانة السجن أو فنائه،

هو مثل ذلك الصندوق الذي تحطم

فأعطى كنزه إلى الرب،

وملأ بيت المجذوم القذر

بأغلى عطور الناردين

آه! كم هم سعداء

أولئك الذين يمكن

أن تنكسر قلوبهم

ويظفرون بسلام العفو!

وإلا كيف يمكن للرجل أن

يصنع خطته باستقامة

ويطهر روحه من الخطيئة؟

بأي طريق، أن لم يكن طريق القلب المحطم

يستطيع المسيح أن يدخل إلى كل القلوب

وذلك الذي انتفخ عنقه محمراً

وجمدت عيناه على نظرةٍ ثابتة

في انتظار اليدين القدسيتين اللتين

أخذتا اللص إلى الفردوس

ولن يزدري الرب قط

قلبا محطماً

ندم وتحسر

إن الرجل الذي يحكم بالقانون

ذلك الذي يرتدي الثوب الأحمر

أمهله ثلاثة أسابيع للحياة

ثلاثة أسابيع قصيرة

يبرئ فيها نفسه

من كلِ ذنبٍ

ويطهر اليد التي قبضت على السكين

من كل آثار الدماء

وبالدمع المسال من الدماء

طهر يديه

تلك التي قبضت على الحديد

فالدماء لا يمحوها سوى الدماء

والدموع فقط من تبرِئ من الخطيئة

واللطخة الحمراء التي كانت من صنيع قابيا

أصبحت خاتما للمسيح ناصعَ البياض!

(6)

في سجن ريدنج، بمدينة ريدنج

توجد حفرة من العار

يرقد فيها رجلٌ تعيس

يستلقي في كفن من لهيب

لتأكل فيه ألسنة النيران

ولا يحمل ضريحه أي اسم

دعه يرقد هناك بسكون

إلى أن يستدعي المسيح الموتى

وليس ثمة حاجة لتذرف عليه دموع الحمقى

أو ترسل الحسرات المدوية عبثاً

فقد قتل الرجل الشيء الذي أحب

لذلك كان عليه أن يموت

في النهاية، يقتل الجميع الشيء الذي يحبونه

وليسمعوا ذلك

بعضهم يُقتَل بكلمةٍ مريرة

والآخر بكلمةٍ متملقة

والجبان يُقتَل بقبلة

أما الشجاع فيُقتَل بالسيف!

تُعد "من الأعماق" توثيقاً أدبياً لرحلة أوسكار وايلد الروحية في سنوات سجنه التي غيّرت اعتقاداته السابقة حول الجمال والتحرر، ليعي من خلالها أن "السطحية هي الرذيلة الأكبر".

كانت تبعات الاتهام الذي أدّى لسجنه تلاحقه على المستويين الشخصي والأدبي، دخل أوسكار وايلد السجن تُحاصره ضحكات الساخرين والشامتين وجميع من تمنى له السقوط والفشل. حتى أدبه الذي بلغ صيته أعلى المستويات آنذاك، والمسرحيات التي كانت تُعرض لسنواتٍ طويلة، توقفت جميعها وحُظِرَ إعادة تمثيلها على المسارح الوطنية، وأصبحت الكتب التي تحمل اسمه ممنوعة من التداول. ومع أن كل هذه التبعات كانت قاسيةً وشديدة الوطأة عليه، ومدمرةً لمركزه وحياته، إلا أن وايلد يُرجِع سبب معاناته وألمه الرئيسي إلى خذلان صديقه له ونسيانه جميع ما قدمه إليه من محبةٍ وصدقٍ وإخلاص.

هذه الرسائل حصاد المعاناة والحسرة التي قضى بها أوسكار وايلد أيامه في السجن التي تجرعها وحيداً ومخذولاً دون أن تُتاح له فرصةُ رواية قصته من منظوره الخاص، رسائل أُرسِلَت إلى العالم قبل أن تصل إلى "ألفريد دوجلاس"، تتضح فيها طبيعة العلاقة التي جمعتها وأثرها على حياة وايلد وفنه، وما آلت إليه من خسارة وخذلان، وكأنه كان يكتب ليكون هنا، ليكون حراً، ليحلّق ولو قليلاً رغم الجرح الذي يطوّق جناحيه.

الناشر

أوسكار وايلد
من الأعماق
رسائل أوسكار وايلد من السجن

9 789922 623016
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com